

من تراث المغرب

المعجب في تلخيص أخبار المغرب

لعبد الواحد المراكشي

تقديم وتحقيق وتعليق
دكتور/ محمد زينهم محمد عزب

دار الفرجانى
للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

إن الدراسات التاريخية المغربية من الدراسات الإسلامية الهامة فى حياة أمتنا العربية ، وهى صفحة هامة للباحثين والدارسين ، فلهذا أسرعت فى تقديم كتاب من كتب الدراسات المغربية هو « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » حيث يعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية من الطراز الأول وفى نفس الوقت طرازاً تاريخياً أو موسوعة تاريخية أيضاً . فهذا الكتاب ألقى الضوء على ما يدور فى منطقة الشرق والغرب الإسلامى حتى القرن السابع الهجرى بشئ من الدقة والتفصيل .

فلهذا يعتبر هذا الكتاب لاغنى عنه لكل دارس وباحث ومحقق مهتم بعلم التاريخ ، حيث برز لنا عبد الواحد المراكشى المؤرخ لعصرى المرابطين والموحدين من شتى النواحى الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية مع براعة الحس فى النقد العلمى والأدبى حيث يملك هذا المؤلف قوة العبارات ورصانة الأحداث والأخبار ومدى تعلقه بالدولة الموحدية .

والله ولى التوفيق

الناشر

دار الفرجانى
القاهرة : ٩ ميدان الذهبى - منشية البكرى - مصر الجديدة
ص . ب : ٢٣٨٢ الحرية تليفون : ٢٩٠٥٨٩٥

المعجب
في تلخيص أخبار المغرب

من تراث المغرب

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب

لعبد الواحد المراكشى

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور / محمد زينهم محمد عزب

دار الفرجانى للنشر والتوزيع

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾
وبه نستعين

والصلاة والسلام على أفضل خلق الله محمد بن عبد الله الصادق الأمين ، وعلى آله وصحبه ومن تبع الهدى وبعد :

إن الدراسات التاريخية المغربية من الدراسات الإسلامية الهامة فى حياة أمتنا العربية ، وهى صفحة هامة للباحثين والدارسين فلهذا أسرعت فى تقديم كتاب « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ضمن سلسلة الدراسات المغربية ، حيث يُعتبر هذا الكتاب موسوعة أدبية من الطراز الأول ، وفى نفس الوقت طرازاً تاريخيًّا أو موسوعة تاريخية أيضاً ، فهذا الكتاب ألقى الضوء على ما يدور فى منطقة الشرق والغرب الإسلامى حتى القرن السابع الهجرى بشىء من الدقة والتفصيل .

فعبد الواحد المراكشى يمثل أديبًا ومؤرخًا فى آن واحد وله عدة آراء غريبة نذكر منها : أنه حد حدود بلاد المغرب فشملت جزيرة أيبريا وجبال البرانس حتى المحيط الأطلسى أى ضمن دول ومدائن بلاد الأندلس ، كذلك المراكشى تعمق فى دولة الموحدين على حساب الدويلات الأخرى .

وشخصية عبد الواحد المراكشى مجهولة من نواحٍ عديدة سواء فى مكان مولده أو تفقهه وعلمه وأين هم أساتذته ومشايخه . فالآراء مضطربة عنه فهناك رأى يقول إنه ولد فى مدينة مراكش سنة ٥٨١ هـ فى عهد أبى يوسف المنصور الموحدى ، وإنه ترك مراكش إلى فاس وهو يبلغ من العمر ٩ سنوات ، وقرأ القرآن والحديث ثم رجع إلى موطنه مراكش وظل يتردد بين فاس ومراكش من حين لآخر ، وأثناء وجوده فى مدينة فاس التقى بالعالم أبى بكر بن زهر ، ولما بلغ من العمر ٢٢ سنة اتجه إلى مدينة الأندلس ، فاتصل بأبى إسحاق ابن أبى يوسف المنصور الموحدى وكان وقتذاك حاكمًا لإشبيلية من قِبَلِ أخيه محمد الناصر سلطان الموحدين ،

ثم تقابل فى قرطبة مع أبى جعفر الحميرى يتعلم منه ويتأدب ، وكان المراكشى قد ذهب فى رحلة لزيارة بلاد المشرق مثل مصر والشام والحجاز وبغداد حيث تقابل مع وزير السلطان الناصر لدين الله العباسى فأظهرعطفه وكرمه وجوده عليه .

صفوة القول : إن الكتاب يتحدث عن أدب وتاريخ بلاد المغرب والأندلس بشىء من الدقة والإمعان .

وقد اعتمدت فى إظهار هذا الكتاب على تحقيق أستاذنا الجليل الأستاذ ـ محمد سعيد العريان مع وضع بعض الهوامش والتعليقات والخرائط والجداول .

د / محمد زينهم محمد عزب

القاهرة ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمد لله مفنى الأمم ، وباعث الرمم ، وواهب الحكم ، ذى[1] البقاء والقِدم ، الذى لا مطمع فى إدراكه لثواقب الأذهان ونوافذ الهمم ؛ أحمده على ما علم وألهم ، وسوّغ وأنعم ؛ وصلى الله على كاشف الظُلم ، ورافع التُّهم ، ومُوضح الطريق الأمم[2] المخصوصِ بجوامع الكلمِ ، والمبتعثِ إلى جميع العرب والعجم ، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم ، وسلّم عليه وعليهم وشرّف وعَظّم .

وبعد ـــ أيها السيد الذى توالت علىّ نِعمه ، وأخذ بضَبعى حضيضى الفقر والخمول واعتناؤه وكرمه ، وقضى إحسانه إلىّ ومحبته التى جُبلتُ عليها بأن ألتزم من بره وطاعته ما أنا ملتزمُه ـ فإنك سألتنى ـــ بوّأك الله أعلى الرتب ، كما عَمر بك أندية الأدب ، ومنحك من سعادتى الدنيا والآخرة أوفر القِسَم ، كما جمع لك فضيلتى التدبير والقلم ـ إملاءَ أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره ، وشىء من سِير ملوكه ، وخصوصًا ملوك المصامدة بنى عبد المؤمن ، من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ م ـ وأن يضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيتُه أو لقيت من لقيه أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية ، من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل ؛ فلم أر بُدًّا من إسعافك والمسارعة إلى ما فيه رضاك ؛ إذ هى الغاية التى أجرى إليها ، والبغية التى أثابر أبداً عليها ؛ ولوجوب طاعتك علىّ من وجوه يكثر تعدادها ؛ فاستخرت الله عز وجل فيما ندبتنى إليه ، واستعنته واعتمدت فى ذلك عليه ؛ فهو الموئل والملجأ ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هذا مع أنى أعتذر لمولانا ـــ فسح الله فى مدته ـــ من تقصير إن وقع بثلاثة أوجه من الأعذار :

---

(١) إضافة من عندنا للسياق مع المعنى .

(٢) بمعنى الطريق الواضح أو الظاهر .

فأولها : ضعف عبارة المملوك وغلبةُ العِيّ على طباعه ، فمهما وقع فى هذا الإملاء من فتور لفظ ، أو إخلالٍ بسرد ، فهو خليق بذلك .

والوجه الثانى : أنه لم يصحبنى من كتب هذا الشأن شىء أعتمد عليه وأجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين ، وأما دولة المصامدة خصوصًا فلم يقع إلىّ لأحد فيها تأليفٌ أصلاً ، خلا أنى سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بسيرها ، وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعًا .

والوجه الثالث : أن محفوظاتى فى هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتت ؛ أوجبت ذلك هموم تزدحم على الخاطر ، وغموم تستغرق الفكر ، فرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من التسامح والتغاضى ، لا زال مجده العالى يرفع الهمم ، ويعقد الذمم ، ويوصل النعم ، ويعمر ربوع الفضل والكرم .

فصل

فى ذكر جزيرة الأندلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس(1) وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسير ملوكها ، من لدن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ ؛ إذ هي كانت معتمد المغرب الأقصى ، والمعتبر منه ، والمنظورَ إليها فيه ، وهي كانت كرسي المملكة ، ومقر التدبير ، وأم قُرى تلك البلاد ، لم يزل هذا معروفًا من أمرها إلى أن تغلب عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني(2) ، فصارت إذ ذاك تبعًا لمراكش من بلاد العُدْوَة(3) ، ثم تغلب عليها المصامدة بعده(4) فاستمر الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، فأقول وبالله التوفيق :

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حدها الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس ، وهو البحر الرومي(5) مما يقابل طنجة(6) ، في موضع يعرف بالزقاق(7)، سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً: وهذا الخليج هو ملتقى البحرين ، أعني بحر مانطس وبحر

---

(١) يقال بضم الذال وفتحها وضم الدال ليس إلاّ ، وهي كلمة أعجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفتها العرب في الإسلام . فالأندلس جزيرة كبيرة فيها عامر وغامر طولها نحو الشهر في نيف وعشرين مرحلة .
الجزيرة : الأرض التي يدور بها الماء من جميع جهاتها ، وليست الأندلس كذلك ، فهي تتصل من الشرق بالأرض الكبيرة « فرنسا » ، وإنما سميت جزيرة على المجاز ، كما سميت جزيرة العرب في آسيا جزيرة وليست كذلك .

(٢) المقصود بها دولة المرابطين .

(٣) يقصد به الشاطيء الأندلسي وقد قيل شاطيء الإفريقي أو شاطيء المغرب الأقصى ، ولكن القول الأول أقرب إلى الصواب .

(٤) المقصود بها دولة الموحدين .

(٥) يقصد البحر الأبيض المتوسط وكان قديما عند الجغرافيين والفلكيين اسم للبحر الذي نطلق عليه الآن بحر آزوف الذي يخترق إلى البحر الأسود ثم إلى بحر مرمرة ثم إلى البحر الأبيض ، ولكن المؤلف أطلق عليه بحر مانطس أي بحر الروم وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة .

(٦) بالفتح ثم السكون والجيم وهاء بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر . وقد قيل : إن طنجة آخر حدود إفريقية .

(٧) بضم أوله وآخره مثل ثانيه وهو في الأصل طريق نافذ وغير نافذ ضيق دون السكة وهي مدينة بالمغرب على البر المتصل بالإسكندرية والجزيرة الخضراء وهي في جزيرة الأندلس .

أُقيانس[1]، وحداها الشمالى والمغربى البحر الأعظم ، وهو بحر أُقيانس المعروف عندنا ببحر الظلمة ، وحدها المشرقى الجبل الذى فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين : بحر الروم وهو مـانطس ، والبحر الأعظم ، ومسـافة ما بين البحـرين من هذا الجبل قـريب من ثلاث مراحل ، وهو الحد الأصغر من حدود الأندلـس ، وحداها الأكبران الجنوبى والشمالى مسافة كل واحد منهما نحو من ثلاثين مـرحلة ، وهذا الجبل الذى ذكرنا فيه هيكل الـزهرة الذى هو الحد المشرقى من الأندلس ، هو الحاجـز ما بين بلاد الأندلس وبين بـلاد إفرنسية من الأرض الكبيرة ، أرض الروم التى هى بلاد إفرنجة العظمى[2] .

والأندلس آخـر المعمور فى المغرب ، لأنها ـ كما ذكرنـا ـ منتهية إلى بحر أقيـانس الذى لا عمارة وراء ه .

ومسافة ما بين طُليطلة التى هى قريبة من وسط الأندلس ، ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة ، قريب من أربعين مرحلـة ، ووسط الأندلس ـ كما ذكرنا ـ مـدينة طُليطلة العتيقة ، التى كانت قاعـدة القوطا من قبائل الإفرنج ، ثم ملكها المسلمـون زمان الفتح على ما سيأتى

---

(١) هو الأوقيـانوس ، أو المحيط الأطلسى ، نسبة إلى سلسلة جبـال أطلس التى تشرف عليه من المشرق ، ولـه فى كتب القدمـاء أسماء شتى ، فهـو الأوقيـانوس ، وبحـر الظلمات ، أو بحـر الظلمة ، والبحـر الأخضر ، والمحيط ، وإليه بلغ عقبة بن نـافع الفهرى فى فتوحه فى القرن الأول للهجـرة ، وعلى شاطئه وقف على صهوة جواده وقفتـه المأثورة وهو يقول : « اللهم رب محمد ، لـولا أنى لا أعلم وراء هذا البحر يابسة لاقتحمت هذا الهول المائج لأنشر اسم مجدك العظيم فى أقصى حـدود الدنيا . . . » أو كما قال . ترى مـاذا كان يحدث لـو أن عقبة كان يعلم يـومئذ أن وراء ذلك الهول المائج بلاداً ونـاساً ودنيـا تعدل فى الغنى والعمران سائربلاد الدنيا القديمة !

ولكن أحفاد عقبة من عرب الأندلس قد علموا فيما بعد ، ووطئت أقدامهم أرض أمريكا قبل أن تطأها قدم كولمبوس بسنين ، ولكنهم ـ وا أسفا ـ قد ضيعوا الأمانة وأفلتوا الفرصة فنُسب فضل اكتشاف أمريكا دونهم إلى نصارى الأسبان !

وقد يسمى هذا المحيط بالمحيط الأطلنطى ، نسبة إلى « أطلنطا » وهى الجزيرة الرملية التى خسف بها فى متاهات الصحراء الكبرى على ما جاء فى بعض الأساطير .

(٢) يقصد بها كل ما يقع فى شبه جزيرة الأندلس شرقـاً وغربًا إلى القسطنطينية من أراضى يطلق عليها بلاد إفرنجة ومركزها رومية .

بيانه ، وعرضها تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وطولها ثمان وعشرون درجة بالتقريب ، فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس .

وأقل بلاد الأندلس عرضًا المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، على البحر الجنوبى منها[1] ، وعرضها ست وثلاثون درجة ، وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التى على ساحلها الشمالى ، وعرض ذلك الموضع ثلاث وأربعون درجة .

فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس فى الإقليم الخامس أميلُ إلى الشمال ، فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغِلَظ ما هى ، فنبت عن كثير من الحكمة .

وطائفة من الأندلس فى الإقليم الرابع ، كإشبيلية ومالقة وقُرطبة وغرناطة والمرية ومُرسية ، فهذه البلاد التى ذكرنا فى الإقليم الرابع أعدل هواء وأطيب أرضاً وأعذب مياهًا من البلاد التى فى الإقليم الخامس ، وأهلها أحسن ألوانًا وأجمل صوراً وأفصح لغة من أولئك ، إذ كان للميول والسُموت فى اللغات تأثير بيّن لمن استقرأ ذلك وفهم علته .

وجملة مدن الأندلس التى هى أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضع مخاطبات أولى الأمر منها : أولاها فى الحد الشمالى مدينة شِلب ، ثم مدينة إشبيلية ، ثم قرطبة ، ثم جَيَّان ، ثم أغرناطة[2] ، ثم ألمريَّة ، ثم مُرسية ، ثم بلنسية ، ثم مالقة وهى على البحر الرومى .

فالذى على البحر الأعظم من هذه المدائن : شلب ، وإشبيلية ، وبينهما قريب من خمس مراحل .

والذى على البحر الرومى المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى من أعمال إشبيلية ، ثم مالقة ، وهى مستقلة ، ثم ألمرية ، ثم دانية : هذه كلها على البحر الرومى ، ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل .

---

(١) يطلق عليه قديمًا بحر الروم .
(٢) ذكرت فى كثير من المصادر والمراجع غرناطة .

ولما استقر أمر المسلمين بالأندلس فى غُرة المائة الثانية ، تخيروا مدينة قرطبة فجعلوها كرسى المملكة ومقر الإمارة ، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بنى أمية بالأندلس ، فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلبٌ على ما سيأتى بيانه .

وهذه المدن التى ذكرتُ هى التى يملكها المسلمون اليوم ، وقد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها فى هذا الموضع ، إلا أن ذكرها سيرد فيما يأتى من تفصيل أخبار الأندلس ، تعرف ذلك بقولى : « أعادها الله للمسلمين » .

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدى المسلمين .

فتـح الأنـدلس
وذكر لمحة عنها قبـل الفتـح

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق :

افتتح المسلمون جزيرة الأندلس فى شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة ، وكان فتحها على يد طارق ، قيل ابن زياد ، وقيل ابن عمرو ، وكان والياً على طنجة ، مدينة من المدن المتصلة ببر القيروان فى أقصى المغرب ، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزقاق ، وبالمجاز ، رتّبه موسى بن نصير أمير القيروان ، وقيل : إن مروان بن موسى بن نصير خلف طارقاً هناك على العساكر وانصرف إلى أبيه لأمرٍ عَرَض له ، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء ، منتهزاً لفرصة أمكنته ، وذلك أن الذى كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم[1] خطب إلى الملك الأعظم ابنته ، فأغضب ذلك الملك ، ونال منه وتوعّده ، فلما بلغه ذلك جمع جموعًا عظيمة وخرج يقصد بلد الملك ، فبلغ طارقًا خلوُّ تلك الجهة ، فهذه الفرصة التى انتهزها . . .

وقيل : إن العلج كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره ، وهو أن لذريق ملك الجزيرة لعنه الله كان له رسمٌ : يوجه إليه أعيان قواده و (أمراء دولته)[2] ببناتهم ، فيربيهن عنده فى قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه . . . ؛ فإذا بلغت الجارية منهن وحسُن أدبُها زوجها فى قصره لمن يرى أنه كفء أبيها ، فوجه إليه صاحب الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور ، فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء ، فرآها يومًا فأعجبته ،

---

(١) يذكر المراكشى فيما يلى سببين لدخول طارق الأندلس ، خلاصتهما أن الذى حبب إليه ذلك هو حاكم الجزيرة الخضراء من قبل ملك القوط ، والذى عليه أكثر المؤرخين أنه كان حاكما لسبتة أو طنجة ، على الشاطىء المغربى ، ويصفه ابن القوطية بأنه كان تاجراً من تجار العجم ، يعنى الروم ، أو القوط ، لا أميرًا من أمرائهم ولا حاكمًا من حكامها ، واسمه يوليان ، « وكان يختلف من الأندلس إلى بلاد البربر ـ المغرب ـ ويجلب إلى لذريق عتاق الخيل والبزاة من ذلك الجانب ، فتوفيت زوجة ذلك التاجر وتركت له ابنة جميلة ، فأمره لذريق بالتوجه إلى العدوة ، فاعتذر له بوفاة زوجته وأنه ليس له أحد يترك ابنته معه ، فأمر بإدخالها القصر ، فوقعت عين لذريق عليها فاستحسنها فنالها ، فأعلمت أباها بذلك عند قدومه فقصد طارق بن زياد فرغبه فى الأندلس وذكر له شرفها وضعف أهلها وأنهم ليسوا أهل شجاعة . . . » .

(٢) إضافة من المطبوع .

فدعاها فأبت عليه ، وقالت : لا والله حتى تُحضر الملوك والقواد وأعيان البطارقة وتتزوجنى ، هذا بعد مشورة أبى ! فغلبتْه نفسه واغتصبها على نفسها ، فكتبت إلى أبيها تُعلمه بذلك : فهذا كان السبب الذى بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين فكان الفتح ، فالله أعلم أىُّ ذلك كان ، فأول موضع نزله فيما يقال منها : المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم ، نزلها قبيل الفجر ، فصلى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه ، فبُنى بعد ذلك هناك مسجد وعرف بمسجد الرايات ، وهو باق إلى وقتنا هذا ، أسأل الله إبقاء ه إلى أن تقوم الساعة . . .

ثم دخل طارق هذه الأندلس وأمعن فيها واستظهر على العدو بها ، وكتب إلى موسى ابن نصير مُوليه بخبر الفتح وغلبته على ما غلب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم ، فحسده موسى على الانفراد بذلك ، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان يعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده ، إذ دخلها بغير إذنه ، ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذى ينتهى إليه الكتاب فيه حتى يلحق به ، وخرج متوجهًا إلى الأندلس ، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله ، وذلك فى رجب سنة ٩٣ ، وخرج معه حبيب بن أبى عبيدة الفهرى[١] ووجوه العرب والموالى وعرفاء البربر فى عسكر ضخم ، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قرطبة دار المملكة وقتل لذريق الملك ـ لعنه الله ـ بالأندلس ، فتلقاه طارق وترضاه ، ورام أن يستلَّ ما فى نفسه من الحسد له ، وقال له : إنما أنا مولاك ومن قبلك ، وهذا الفتح لك وبسببك ، وحمل طارق إليه ما كان غنم من الأموال ، فلذلك نُسب الفتح إلى موسى بن نصير ، لأن طارقًا من قبله ، ولأنه أتم من الفتح ما كان بقى على موسى .

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً وجامعًا للأموال ومرتباً للأمور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهراً من سنة خمس ، وقبض على طارق ، ثم استخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز

---

(١) انظر : نهاية الأرب للنويرى ، وفجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس .

ابن موسى ، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو، ورجع إلى القيروان ، ثم سـار منها بما حصل من الغنائم وأعده من الهدايـا إلى الوليد ابن عبد الملك ـ وكان مما وجد بمـدينة طليطـلة حين فتحها ، مائدةُ سليمان بن داود عليهما السلام ، فيقال إنها طـوق ذهب وطوق فضة ، مكللة باللـؤلؤ والياقوت ـ ومعـه ـ فيما يقال ـ طارق ، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية فى سنة ٩٦ ، فحمل ما كان معه إلى سليمان ابن عبد الملك ، ويقال : إنه وصل وأدرك الوليد حيًّا ، فالله أعلم .

وأقام عبـد العزيـز بن موسى بن نصـير أميراً على الأنـدلس إلى أن ثار عليـه من الجند جماعة ، فيهم حبيب ابن أبى عبيدة الفهرى ، وزيـاد ابن النابغة التميمى ، فقتله بعضهم ، وخرجـوا برأسه إلى سليمان بن عبـد الملك ـ وذلك فى صـدر سنة ٩٨ ـ[١] بعد أن أمّـروا على الأندلس أيوب ابن أخت موسى بن نصير[٢] ويقـال : إنهم كتبوا إلى سليمان بما أنكـروا من أمره ، فأمرهم بما فعلوه ، فالله أعلم .

ثم اختلف الأمر هنـالك ، ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زمـاناً لا يجمعهم وال ، ثم ولى عليها السمح بن مـالك الخولانى قبل المائة[٣] ، واجتمع عليـه الناس ، ثم ولى عليهـا الغمر بن عبـد الرحمن بن عبد اللـه ، ثم وليها عنبسـة بن سـحيم الكلبى وعُزل الغمـر بن عبد الرحمن ، ثم وليها عبد الرحمن بن عبد الله العكى نحـواً من العشـر ومائة ، وكان رجلاً

---

(١) كان مقتله فى المسجد وهو قائم لصلاة الصبح ، وكان قد اتخذ داراً فى كنيسة تشرف على مرج إشبيلية ، ونكح امرأة لذريق القوطية وسماها أم عـاصم ، وآواها إلى داره تلك ، وابتنى على باب الدار مسجداً هو الذى قتل فيه ، وقد بقى دمه فى ذلك المسجد زمانا ! .

(٢) هو أيوب بن حبيب اللخمى .

(٣) كانت الأندلس يومئـذ إلى والى إفريقية يولى عليها من يختار ، وكانت ولاية إفريقيـة بعد عزل موسى بن نصير إلى عبد الله بن يزيد مولى قيس ، فولى على الأندلس من قبله الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، فلم يزل عليها حتى استخلف عمر بن عبد العزيز ، فجعـل على إفريقية إسماعيل بن عبد الله مولى بنى مخزوم ، وعلى الأندلس السمح بن مالك الخولانى .

صالحا ، ثم وليها عبد الملك بن قطن الفهرى ، ثم عقبة بن الحجاج ، فهلك عقبة بالأندلس ورُدَّ عبد الملك بن قطن ، ثم جاء بلج بن بشر فادعى ولايتها من قبل هشام بن عبد الملك ، وشهد له بعض من كان معه ، ووقعت فتن من أجل ذلك ، وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء ، حتى أرسل إليهم واليا أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ، فحسم مواد الفتن ، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة ، وفى تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف ، إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراء ها وولاة الحروب فيها أيام بنى أمية قبل ذهاب دولتهم فى المشرق(١) .

(١) انظر : الحلة السيراء لابن الآبار تحقيق الدكتور حسين مؤنس طبعة دار المعارف ـ القاهرة .

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

وأنا ذاكر ها هنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط :

فمنهم : محمد بن أوس بن ثابت الأنصارى ، ويروى عن أبى هريرة .

ومنهم : حنش بن عبد الله الصنعانى ، ويروى عن على بن أبى طالب وفضالة بن عبيد

ومنهم : عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، يروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

ومنهم : يزيد بن قاسط ، وقيل ابن قسيط ، السكسكى المصرى ، يروى عن عبد الله ابن عمرو بن العاص .

ومنهم : موسى بن نصير الذى يُنسب الفتح إليه ، يروى عن تميم الدارى .

***

فضل بلاد المغرب

ذكر خبر دخول عبد الرحمن
ابن معاوية الأندلس

وفى هـذه السنـة دخل عبـد الرحمن بن معاويـــة بن هشـام بن عبـد الملك بن مـروان الأندلس ، الملقب بالداخل : فقامت معه اليمانيـة ، وحارب يوسف بن عبد الرحمن ابن أبى عبدة[1] بن عقبة بن نـافع الفهرى الـوالى على الأندلس المذكور آنفـاً ، فهــزمه . واســتولى عبد الـرحمن على قرطبـة دار الملك ، وكان دخولـه إياهـا يوم الأضحى من السنـة المذكورة ، فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢ .

وكان مولده بالشام سنة ١١٣ ، أمه أم ولدٍ اسمُها « راح »[2] ويكنى أبا المطرف ، دخل الأندلس فى ذى القعدة ، واستولى على قرطبة دار مُلكها فى التاريخ المذكور ، وذلك أنه هرب من الشـام لما انتشرت دولة بنى العبـاس ، فلم يـزل مستتراً ينتقل فى بلاد المغـرب حتى دخل الأنـدلس ، ودخل حين دخلها طـريداً وحيـداً لا أهل له ولا مـال ، فلم يزل يُصرِّف حِيلـه ويسمو بهمته والقدرُ مع ذلك يوافقه ، إلى أن احتوى على مُلكها ومَلَكَ بعض بلاد العُدوة ، وكان أبو جعفر المنصور إذا ذُكر عنده قال : « ذاك صقر قريش[3]» .

---

(١) انظر : الحلة السيراء .

(٢) كانت أمه راح بربرية من بنى نفرة فى طرابلس وكذلك كانت أم أبى جعفر المنصور بربرية .

(٣) روى ابن خلدون أن بنى أمية لما نـزل بهم بالمشرق ما نزل وغلبهم بنو العبـاس على الخلافة وأزالوهم عن كرسيها وتتبعوا بنى أمية بالقتل ـ كان ممن أفلت منهم عبـد الرحمن بن معاوية هذا ، وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك يُؤْثِرونها عن مسلمة بن عبد الملك (عم أبيه) . فكان يحدث نفسه بـذلك ، فخلص إلى المغرب ونزل على أخوالـه بنى نفرة ، واستنصر بقوم من زنـاتة ، ثم انتقل إلى مكناسة فمليلة وبعث مولاه بدراً إلى أشياع بنى مروان فى الأندلس يستنصرهم ، فاجتمعوا عليه وبثوا له فى الأندلس دعـوة ونشروا له ذكرًا ، ووافق قدومـه ما كان من الإحن بين اليمنية والمضريـة ، فاجتمعت اليمنية على نصرتـه كيداً ليوسف بن عبـد الرحمن الفهرى ، وعبر عبد الـرحمن المجاز والظروف مـواتية ، ونشبت الحرب بينه وبين يـوسف وهو ينتصر فى موقعة إثـر موقعة ، حتى غلب يوسف على أمـره واحتز رأسه ودخل قرطبة حاضرة الملك . . .

وظل عبد الرحمن الـداخل يدعو للمنصور على منابـر الأندلس زمانًا ثم قطع دعـوته ، ولكنه اكتفى من ذلك بلقب الأمير تأدبا مع الخلافة ، وظل خلفاؤه من بعده مقتصرين على لقب الإمارة ، حتى كان من عقبه عبد الرحمن الناصر ، وهو الثامن من أمراء بنى أمية بالأندلس ، فتسمى بأمير المؤمنين ، كان ذلك حين ضعف أمر الخلافة العباسية فى بغداد بعد المائة الثالثة ، وتوارث أبناؤه الإمارة من بعده إلى أن كانت آخرة الدولة المروانية فى الأندلس .

وكان عبد الرحمن بن معاوية من أهل العلم ، وعلى سيرة جميلة من العدل ، ومن قضاته معاوية بن صالح الحضرمى الحِمصى ، وله أدب وشعر ، ومما أنشدهُ وقاله يتشوق إلى معاهدة بالشام[1] قوله :

أيُّها الراكب المُيممُ أرضى ... اقرأ من بعضِى السلام لبعضى

إن جسمى كما علمتَ بأرضٍ ... وفؤادى ومالِكيه بأرضِ

قُدِّر البيْنُ بيننَا فافترقنا ... وطوى البينُ عن جفونى غَمْضِى

قد قضَى الله بالفِراقِ علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يَقضى !

وله شعر كثير أبرعُ من هذا أورده المؤرخون فى كتبهم[2] ، وكانت مدة ولايته منذ استولى على قرطبة دار الملك إلى أن تُوفى ، اثنتين وثلاثين سنة .

---

(١) كتب بها إلى أخته بالشام .

(٢) روى أن بعض أهله استقل ما رتب له من العطاء ، فكتب إليه يذكره بحقه ويسأله زيادة عطائه ، وكأنما شعر عبد الرحمن بعض المن فى كتاب قريبه هذا المروانى ، فكتب إليه مجيبًا .

شتان من قام ذا امتعاض ... منتضى الشفرتين نصلا

فجاب قفراً ، وشقّ بحراً ... مُساميـاً لجةً ومحلا

دبر ملكاً ، وشاد عزًا ... ومنبراً للخطاب فصلا

وجند الجند حين أودى ... ومَصَّر المصر حين أجلى

ثم دعا أهله إليه ... حيث انتأوا أن هَلُمَّ أهلا

فجاء هذا طريد جوعٍ ... شديدَ روعٍ يخاف قتلا

فنال أمناً ونال شبْعا ... ونال مالاً ، ونال أهلا

ألم يكن حق ذا على ذا ... أعظم من مُنعمٍ ومولى !

ويروى هذا الشعر على وجه آخر لسبب آخر ، ذلك أن جماعة من القادمين عليه من قبل الشام كانوا يتحدثون فى مجلسه عن شجاعة الغمر بن يزيد بن عبد الملك فى مجلس عبد الله بن على السفاح أيام المحنة ، حين جبهه بالمعارضة لم تردعه هيبة مجلسه ولا سيوف شيعته الحافين من حوله ، مستطيلاً بنسبه وآله والملوك من آبائه ، حتى أغص عبد الله بن على بريقة ، لم يسكت حتى تناولته سيوف بنى العباس تمزقه . . . فكأن الأمير عبد الرحمن حين استمع إلى حديث أولئك القوم فى التنويه بشجاعة الغمر بن يزيد قد استصغر ذلك منه ورأى نفسه فيما بلغ بهمته أعظم قدراً منه ، فقال ذلك الشعر . . .

ولاية الأمير هشام بن عبد الرحمن

ثم وَلّى بعد عبد الرحمن ابنه هشام ، يكنى أبا الوليد ، وسنه حينئذ [خمس و [1] ثلاثون سنة] ، واتصلت ولايته سبعة أعوام[2] إلى أن مات فى صفر سنة ١٨٠ وكان حسن السيرة ، متحريًا للعدل ، يعود المرضى ، ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج فى الليالى المظلمة الشديدة المطر ومعه صُرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوى البيوتات من الضعفاء ، لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات فى التاريخ المذكور ، أمه أم ولد اسمها حوراء .

(=) وبلغه وقد استقامت له الدولة أن بعض من أعانه يمن عليه بما بذل له من المعونة ويزعم أنه لولا جهده ما بلغ الداخل مبلغاً ، وأنه نال ما نال بسعده لا بتدبيره وعقله ، فحرك ذلك عبد الرحمن إلى شعر يروى له ، وهو :

لا يلف ممتنٌ علينا قائلٌ :	« لولاى ما ملك الأنامَ الداخلُ »
سعدى وحزمى والمهند والقنا	ومقادرٌ بلغت وحالٌ حائلُ
إن الملوك مع الزمان كواكب	نجمٌ يطالعنا ونجمٌ آفلُ
والحزمُ كل الحزم ألا يغْفلوا	أيروم تدبيرَ البريةِ غافلٌ ؟
ويقول قومٌ سعدُه لا عقله	خيرُ السعادة ما حماها العاقل
أبنى أمية قد جبرنا صدْعكم	بالغرب رغماً والسعودُ قبائل
ما دام من نسلى إمامٌ قائمٌ	فالملك فيكم ثابت متواصلُ

ومن شعره قد رأى نخلة فى رصافته بقرطبة :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة	تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى	وطول اكتئابى عن بنىَّ وعن أهلى
نشأتِ بأرض أنت فيها غريبةٌ	فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى	يصح ويستمرى المساكين بالوبْل

(١) إضافة من نفح الطيب للمقرى .

(٢) قيل : قضى فى الحكم ثمانِ سنوات ولكن الثابت تاريخيًا أنه مكث فى الحكم سبع سنوات وعدة شهور .

ولاية الحكم بن هشام الملقب بالربضى

ثم ولى بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة ، يكنى أبا العاصى ، أمه أم ولد اسمها زُخرف ، وكان طاغياً مسرفًا ، وله آثار سوء قبيحة ، وهو الذى أوقع بأهل الرّبض الوقعة المشهورة[1] ، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم ، وكان الربض محلة متصلة بقصره ، فاتهمهم فى بعض أمره ، ففعل بهم ذلك ، فسمى الحكم الربضى لذلك .

وفى أيامه أحدث الفقهاء إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل فى الصوامع ، أعنى صوامع المساجد ، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به ، مثل أن يقولوا : « يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه ، المصر على كِبره ، المتهاون بأمر ربه ، أَفِق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك . . . » وما نحا هذا النحو ، فكان هذا من جملة ما هاجه وأوغر صدره عليهم ، وكان أشد الناس عليه فى أمر هذه الفتنة الفقهاء ، هم الذين كانوا يحرضون العامة ويشجعونهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان .

وحكى أبو مروان ابن حيان أخبار الأندلس ، أنه لما تُسُور عليه القصرُ وأحس بالشر ، قال لأخص غلمانه : اذهب إلى فلانة ، إحدى كرائمه ، وقل لها تعطيك قارورة الغالية[1] ، فأبطأ الغلام وتلكأ ، فأعاد ذلك عليه ، فقال : يا مولاى ، هذا وقت الغالية ؟ فقال له : ويلك يا ابن الفاعلة ! بم يُعرف رأسى إذا قطع من رءوس العامة إن لم يكن مضمخا

---

(١) تفصيل هذه الواقعة أن الحكم الربضى هذا فى صدر ولايته قد انهمك فى لذاته ومباذله حتى اشتهر أمره وتعقبه الناس بألسنتهم ، وكان الفقهاء يومئذ هم قادة الرأى فى البلاد ، فاجتمع منهم بقرطبة جماعة من أهل الفقه والورع ، منهم يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت بن عبد الجبار المعافرى ، ومن أصحاب مالك بن أنس ورواة الموطأ ، فثاروا به يريدون خلعه وإقامة أخيه المنذر بن هشام مكانه ، وكان اجتماعهم بالربض الغربى من قرطبة ، ثم زحفوا إلى قصره ، فقاتلهم الحكم فغلبهم ، وهدم دورهم ومساجدهم ، وفر من بقى منهم على وجهه ، فمنهم من لحق بفاس من أرض العدوة ، ومنهم من لحق بالإسكندرية من أرض المشرق ، ثم لم يلبث هؤلاء الذين لحقوا بالإسكندرية أن ثاروا بها ثورة أخرى ، وكانت مصر يومئذ إلى عبد الله بن طاهر من قبل المأمون ، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر وغلبهم ، ففروا من وجهه إلى إقريطش (كريت) فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة .

بالغالية ؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم ، وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصر وعامة الحشم والجند يشغلونهم ، إلى أن دهمتهم الخيـل من ورائهم ، فانهزموا وقُتلـوا قتلاً قبيحًـا ، وأمر بـديارهم ومساجـدهم فهدمت وحُـرقت ، وأمر بنفى من بقى منهم عن البلاد ، فخـرجوا حتى نـزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومى المقابلة لبر برقة أول المغرب ، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفـرقـوا ، فـرجع بعضهم إلى الأنـدلـس ، واختـار بعضهم سكنى صقليـة ، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية .

ومن أعجب ما حكى أبو مـروان ابن حبان المؤرخ مما يتصل بخبر هذه الـوقعة ، قال : كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضًا ، رجلٌ من الفقهاء اسمه طالوت[٢] كان جليل القدر فى الفقهاء ، رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس وتفقـه على أصحابه ، وكان قويًّا فى دينه ، فلما أوقع الحكم بأهل الربض ــ كما ذكرنا ـ وأمر بتغـريب من بقى منهم ، كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه ، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن ، ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحـوال ، فاستخفى فى دار رجل يهودى سنـة كاملـة ، واليهـودى فى كل ذلك يكرمـه أبلغ الكرامة ، ويعظمـه أشد التعظيم ، فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفـاء ، فاستدعى اليهودى وشكره على إحسـانه إليه ، وقال لـه : قد عزمت غـداً على الخروج وقصد دار فلان الكاتب[٣] ، لأنه قرأ علىّ ولى عليه حقُّ التعليم ، وقد بلغنى أن لـه جاهًا عند هذا الرجل ، فعسى هـو يشفع لى عنده فيـؤمننى ويدعنـى فى بلدى ! فقـال له اليهـودى : يا مـولاى ، لاتفعل ، فما آمَنُهم عليك ! وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده ، أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أَمَلَّهُ ذلك ولا ثَقُلَ عليـه ، فأبى إلا الخروج ، فخلى بينه وبين ذلك ، فخرج حتى أتى دار ذلك الكـاتب بغَلس ، فاستـأذن عليه فأذن لـه ، فلما دخل عليـه رحب به وأدنى مجلسـه ،

---

(١) وهو العطر الجميل .
(٢) هو طالوت بن عبد الجبار المعافرى .
(٣) جاء فى نفح الطيب للمقرى هو أبو البسام الكاتب وزير الحكم بن هشام الربضى .

وسأله أين كان فى هذه المدة ؟ فقص عليه قصته مع اليهودى ، ثم قال له : اشفع لى عند هذا الرجل حتى يؤمننى فى نفسى ويمنَّ علىّ بتركى فى بلدى ! فوعده بذلك ، وركب من فوره ودخل على الحكم ، فقال [له كل ماسمع من طالوت ، ووشى به إليه : فأحضره الحكم إليه فعنَّفه ووبخه ، فقال له طالوت : كيف يحل لى أن أخرج عليك ، وقد سمعتُ مالك بن أنس يقول : « سلطان جائرٌ مدةً خيرٌ من فتنة ساعة » ؟ قال الحكم : الله . تعالَ ! لقد سمعت هذا من مالك ؟ قال طالوت : اللهم إنى قد سمعته ، قال : فانصرف إلى منزلك وأنت آمن . ثم سأله أين استتر ، فقال : عند يهودى مدة عام ، ثم إنى قصدتُ هذا الوزير فغدر بى ! فغضب الحكم على أبى البسام وعزله عن وزارته ، وكتب عهداً ألا يخدمه أبداً : فرؤى أبو البسام الكاتب بعد ذلك فى فاقة وذل ، فقيل : استجيبت فيه دعوة الفقيه طالوت رحمه الله تعالى] (١).

---

(١) ورد فى نفح الطيب أن الحكم بن هشام تقلد الحكم سنة ١٨٠ هـ ومات سنة ٢٠٦ .

ثم ابنه عبد الرحمن بن الحكم ، وقد ولى الإمارة بعد أبيه ، وتوفى سنة ٢٣٨ وقد بلغ من العمر اثنتين وستين سنة .

ثم ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكانت وفاته سنة ٢٧٣ وقد بلغ من السن خمسًا وستين سنة .

ثم ابنه المنذر بن محمد ، وكانت وفاته بغتة فى سنة ٢٧٥ وقد بلغ من السن ستًّا وأربعين سنة .

ثم أخيه عبد الله بن محمد ، وكانت وفاته سنة ٣٠٠ وقد بلغ اثنتين وسبعين سنة .

ثم أخيه عبد الرحمن الناصر ـ وهو أول من نودى بلقب أمير المؤمنين من بنى أمية فى الأندلس ـ وكانت وفاته سنة ٣٥٠ وقد بلغ ثلاثاً وسبعين سنة قضى منها على العرش خمسين سنة ! وفى عهده وفد إلى الأندلس من المشرق أبو على القالى صاحب الأمالى .

ثم تولى ولده الحكم المستنصر بالله ، وكانت ولايته غداة موت أبيه الناصر فى رمضان سنة ٣٥٠ .

وفى سياق الحديث عن الحكم المستنصر هذا أورد المراكشى شعراً لأبى عمر يوسف الرمادى وصل الخرم إلى منتصفه ولم نوفق إلى بدايته ؛ وسيأتى مزيد تفصيل عنه فيما يلى من حديث المراكشى عن أحداث عصر المستنصر . . . وكذلك فى كتاب نفح الطيب .

... ...

فقـــال وقـــد مضى ليل وثـــان ... ولم يسمعـه غنًّى : ليت شعرى(١)

أجـــارى المؤنس ليـــلاً غنـــاءً ... لخيرٍ قطْـــعُ ذلـــك أم لِشرّ ؟

فقـــالـــوا إنـــه فى سجـن عيسى(٢) ... أتـــوه بـــه بليلٍ وهـــو يسرى

فنـادى بـالطـويلـة « وهى ممـا ... يكـون بـرأسـهِ لجليلِ أمـر »(٣)

ويمم جـــاره عيسى بن مـــوسى ... فـــلاقـــاه بإكـــرام وبـــر

وقـــال : أحـــاجـــةٌ عـرضـت فإنى ... لقـــاضيهـــا ومتبعُهـــا بشكـــرِ !

فقـــال : سجنت لى جـــارًا يُسمى ... بِعمـــرٍو ! قـــال : يُطلـق كُلُّ عمـــرو

بسجنى حيث وافقـه اسـمُ جـارِ الْــ ... ـــفقيه ولـــو سجنتهمـو بـــوتـــر !

فأطلقهـم لـــه عيسى جميعـــاً ... لجارٍ لا يبيتُ بغير سكـــر !

فـإن أحببـت قُل لـجوار جـــارٍ ... وإن أحببتَ قـل لطـــلاب أجـــرِ

فإن أبـــا حنيفـــة لم يـــؤُبْ من ... تطلبُـــه تخلصُـــه بـــوِزرِ

وتلخيص هـذه الحكايـة التى نظمها أبـو عمر فى شعـره ، أن أبا حنيفـة رحمه الله كـان يجاوره رجل كيال ، فكـان كل ليلة يأخذ سمكـة ورغيفاً وشيئاً من النبيـذ ، فإذا صلى العشاء الآخرة أكل ثم شرب ، حتى إذا انتشى رفع عقيرته واندفع ينشد هذا البيت :

أضـــاعـــونى وأى فتًـى أضـــاعـــوا ... ليـــوم كـــريهةٍ وســـدادِ ثغـــرِ

---

(١) أول الشعر مجهول . وهـو لأبى عمر الرمادى ، من شعـراء عصر الحكم المستنصر كما سبقت الإشارة ، ويتضح من السياق أن الشاعر ينظم حكاية معروفة يوردها المراكشى منثورة فيما بعد .

(٢) عيسى بن موسى صاحب الشرطة فى بغداد لعهد الرشيد .

(٣) الطويلة كلمة يفسرها الشاعر : لباس خاص للرأس .

فلا يزال يُعيده حتى يغلبه النوم ، وكان أبو حنيفة ـ على ما اشتهر عنه ـ يُحيى الليلَ كله صلاةً ، فلما كان فى بعض الليالى فقد صوت ذلك الرجل ، فقال لبعض من عنده : ما فعل جارُنا هـذا الذى كان يغنى كـل ليلة ؟ أهو مريض أم غائب ؟ فقالوا لـه : إنه مسجون ! فقال : ومن سجنه ؟ فقالوا : خرج فى الليل لبعض حاجته فلقيه أصحاب عيسى بن موسى صاحب الشرطة فأتوا به فأمربسجنه ، فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عيسى بن موسى فى بيته ، فلما أُعلم عيسى بمكان أبى حنيفة خرج يتلقاه مسرعًا ، وبالغ فى تكريمه وبره ، وسأله عن حاجته ، فقال : لى فى سجنك جارٌ اسمه عمرو ، فقال عيسى : يُطلق كل من كـان اسمه عمروٌ بسجنى من أجل جار الفقيه ! فأطلقه وخلقاً كثيراً معه ، فأتى الرجل أبا حنيفة يتشكر له ، فلما وقعت عينه عليه قال له : أضعْناك ؟ قال الرجل : لا والله ، بل حفظت الجوار حفظك الله !

والبيت الذى نظمه أبو عمر وكان يتغنى به الرجل جارُ أبو حنيفة ، هو للعرْجِى ، رجلٍ من ولد عثمان بن عفان ، سجنه المغيرة خال هشام بن عبد الملك وعامله على مكة ، فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته من السجن .

ولأبى عمر هذا شعر كثير جيد ، وهو من الطبقة الثالثة من طبقات الشعراء الأندلسى ، فمما على حفظى له أول قصيدة يمدح بها أبا على القالى المتقدم الذكر(١) وهى :

من حاكم بينى وبين عذولى ... الشجُو شَجوِى والعويلُ عويلى
أقصر فما دين الهوى كفرٌ ولا ... أعتدُّ لومك لى من التنزيل
عجباً لقوم لم يكن أذهانهم ... لهوًى ولا أجسادهم لنُحُول
دقت معانى الحب عن أفهامهم ... فتأولوه أقبح التأويل
فى أى جارحة أصون مُعذِّبى ... سلمت من التعذيب والتنكيل
إن قلت فى عينى فثم مدامعى ... أو قلتُ فى قلبى فثم غليلى
[لكن جعلتُ له المسامع موضعًا ... وحجبتها عن عذل كل عذول](٢)

---

(١) له ذكر فى عصر المستنصر .

(٢) إضافة من نفح الطيب .

هذا ما بقى فى حفظى منها . وكان أبـو عمر هذا من مُقدَّمى شعراء الحكم المستنصر (١) وكان مختصاً بأبى الحسن المُصحفى (٢) ، منضويًا إليه ، وهو الـذى حمله على هَجو محمد بن أبى عامر (٣) ، فلما أفضى الأمر إلى محمـد قبض على المصحفى واستصفى أموالـه ووضعه فى المُطبِق ، فلم يزل به حتى مات جـوعًا وهزالاً ، وأما ما كان من أبى عمر الشـاعر فإنه أوسعه عقوبة ونكالاً ، وأمر بتغريبه (٤) ، فشُفِعَ له عنده فى أن يتركـه ببلده ، فأذن فى ذلك ، غير أنه

---

(١) كان الحكم المستنصر محبًّا للعلوم مكرمًا لأهلها ، جامعًا للكتب على اختلاف أنواعها ، اجتمع له منها ما لم يجتمع لأحـد من الملوك قبلـه ، قال تليد الخصى ـ وكان على خزانـة العـلوم والكتب بدار بنى مروان : إن عدد الفهـارس التى فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، فى كل فهـرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الـدواوين . وقد أقام الحكم للعلم والعلماء سوقًا نافقـة ، جُلبت إليها البضائع من كل قطر ، وكـان يبعث فى شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار يـزودهم بالمال الجم لشرائها ، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهد ، وبعث فى كتـاب الأغانى إلى مصنفه أبى الفرج الأصفهانى ـ وكان نسبـه فى بنى أمية ـ بألف دينـار من الذهب العين ثمنًا لنسخة مـن كتابه ، فبعث إليه أبـو الفرج بنسخة منـه قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع أبى بكـر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكـم . ولما وفد على أبيـه أبو على القالى مـن بغداد سنـة ٣٣٠ أكرم مثواه وحسنـت منزلتـه عنده واختص به ، واستفـاد منه الحكم علماً . قال ابن بشكوال : « قلما يـوجد كتاب من خزائنـه إلا وله فيه قراءة أو نظر فى أى شىء ، ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده ، لعنايته بهذا الشأن » . وله شعر جيد ، فيما ينسب إليه قوله :

إلى اللـــه أشكـــو مـن شمائل مسرف	علىّ ظلـــوم لا يـــدين بما دِنتُ
نـأتْ عنـــه دارى فـــاستـزاد صـــدوده	وإنى على وجـــدى القـــديم كما كنت
ولـــو كنت أدرى أن شـــوقـى بـــالغٌ	من الـــوجـد مـــا بُلغْتُــه لم أكـن بنتُ

وقوله :

عجبتُ وقـــد ودعتُهـــا كيـف لم أمت	وكيف انثنت بعـــد الـــوداع يـــدى معى
فيـــا مقلتـى العَبْرى عليهـــا اسكبى دمًـــا	ويـــا كبـــدى الحرّى عليهـــا تقطعى !

(٢) وهو الحاجب أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفى للخليفة المستنصر .

(٣) وهـــو المنصـور ابن أبى عـامر وكـان الحكم قـد استوزره لـولده هشـام فترقى أمـره حتى بلغ من الجاه والسلطان .

(٤) انظر : نفح الطيب ٢ / ١٠٠ ـ ٢٠٠ .

خرج الأمر من جهته ألا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة : أمر مناديه أن ينادى [بذلك] فى جميع جهات قرطبة ، فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة فى آخر أيام أبى عامر .

وكان الحكم المستنصر مواصلاً لغزو الروم ومن خالفه من المحاربين ، فاتصلت ولايته إلى أن مات فى صفر سنة ٣٦٦ فكانت مدة ولايته منذ بويع له إلى أن مات ست عشرة سنة وأشهرًا ، وانقرض عقبه بعد موت ابنه هشام المؤيد ، لم يعش له ولد غيره .

ولاية هشام المؤيد بن الحكم المستنصر [وتغلب المنصور ابن أبى عامر](١)

ثم ولى بعده ابنه هشام بن الحكم ، يكنى أبا الوليد ، أمه أم ولد اسمها صبح ، وسنه إذ وَلى عشرة أعوام وأشهر ، فلم يزل متغيباً لا يظهر ولا ينفذ له أمر ، وكان الذى تغلب على أمره أولاً وتولى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته ، أبو عامر محمد بن عبد الله ابن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عامر المعافرى القحطانى(٢) .

وكان أصل ابن أبى عامر هذا من المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، من قرية من أعمالها تسمى طُرش ، على نهر يسمى وادى آرُوا ، إلا أنه كان شريف البيت قديم التعين ، ورد شابا إلى قرطبة ، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميز فى ذلك ، وكانت له همة يحدث بها نفسه بإدراك معالى الأمور ، وتزيد فى ذلك حتى كان يحدث من يختص به بما يقع له من ذلك ، وله فى ذلك أخبار عجيبة ، قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدث الضابط المتقن

---

(١) إضافة من الحلة السيراء ونفح الطيب .

(٢) وهو المنصور الذى ذكر من قبل .

أبو عبد الله محمد ابن أبى نصر الحُميدى[1] طرفًا فى كتابه المترجم بـ « الأمانى الصادقة » ، فمن جملتها قال الحميدى :

حدثنى أبو محمد على بن أحمد بن حزم قال : أخبرنى أبو عبد الله محمد بن إسحاق التميمى قال :

كان محمد ابن أبى عامر نازلاً عندى فى حجرة فوق بيتى ، فدخلت عليه فى بعض الليالى فى آخر الليل ، فوجدته قاعداً على الحال التى تركته عليها أولَ الليل حين فصلت عنه ، فقلت له : ما أراك نمت الليلة ! قال : لا ؛ قلت : فما أسهرك ؟ قال : فكرة عجيبة ! قلت : فى ماذا كنت تفكر ؟ قال : فكرت : إذا أفضى إلىَّ الأمر ومات محمد بن بشير القاضى ، بمن أستبدله ، ومن الذى يقوم مقامه ؟ فجلتُ الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد إلا رجلاً واحداً . . . قلت : لعله محمد بن السَّليم[2] ، قال : هو والله هو ، لشدَّ ما اتفق خاطرى وخاطرك !

قال الحميدى : وأخبرنى الفقيه أبو محمد على بن أحمد قال : كان ابن أبى عامر يومًا جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم ، فقال لهم : ليختر كل واحد منكم خطة أُولِّيه إياها إذا أفضى إلىَّ الأمر ! .

---

(١) كان الحميدى شاعراً مؤرخاً حافظاً راوية ، تتلمذ على الإمام الفيلسوف ابن حزم الظاهرى ، وعنه يروى أكثر علمه ، وكان مولده سنة ٤٢٠ ، ووفاته سنة ٤٨٨ ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، ألف فيها كتاباً فى طبقات علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » ، وعن كتابه هذا وكتابه الآخر المسمى بـ « الأمانى الصادقة » نقل عبد الواحد كثيراً من أخباره عن الفترة الأولى من تاريخ المغرب والأندلس ، وتوجد من كتاب « جذوة المقتبس » نسخة مخطوطة فى أكسفورد .

(٢) هو أبو بكر محمد بن إسحاق الشهير بالسليم ، قاضى الجماعة بقرطبة ، ذكره المقرى فيمن كانت لهم رحلة إلى المشرق ، وله شعر كتب به إلى الحكم المستنصر ، هو قوله :

لو ان أعضاء جسمى ألسنٌ نطقت ... بشكر نعماك عندى ، قل شكرىَ لك
أو كان ملّكنى الرحمن من أجَلى ... شيئاً وصلت به يا سيدى أجلك
ومن تكن فى الورى آماله كثرت ... فإنما أملى فى أن ترى أملك !

توفى سنة ٣٦٧ .

فقال أحدهم : تُـوليني قضاء كورة ريَّة ، وهى مالقـة وأعمالها ، فإنه يعجبنى هذا التين الذى يجىء منها ! .

وقال الآخر : توليني حِسبة السوق ، فإني أحب هذا الأسفنج !

وقال ثالث : إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يُطـاف بى قرطبة كلها على حمار ووجهى إلى الذنب وأنا مطلىٌّ بالعسل ليجتمع علىَّ الذباب والنحل !

وافترقوا على هذا ، فلما أفضى إليه الأمر كما تمنى بلغ كل واحـد منهم أمنيته على نحـــو ما طلب ! .

ولم تزل حالـه تعلو منذ ورد قرطبـة إلى أن تعلق بوكالة السيـدة صبح أم هشام المؤيد ابن الحكم والنظر فى أمـوالها وضياعها ، فزاد أمره فى الترقى معهـا إلى أن مات الحكـم المستنصر ، وكـان هشـام صغيراً كما ذكـرنـا ، وخيف الاضطـراب ، فضمن لصبح سكـون الحال وزوال الخوف واستقرار المُلـك لابنها ، وكـان قوىَّ النفس ، وسـاعدتـه المقادير ، وأمــــدته المرأة بالأمـوال ، فاستمال العساكـر إليه ، وجرت أحوال علت قـدمه فيها ، حتى صـار صاحب التدبير والمتغلب على الأمور ، وحجب هشاماً المؤيد ، وتلقـب هو بالمنصور ، فأقام الهيبة ، فدانت لـه أقطار الأندلس كلها وأمنت بـه ، ولم يضطرب عليه شىء منها أيام حيـاته لعظم هيبته وفرط سياسته .

واستـوزر جماعة منهم الـوزير أبـو الحسن جعفر بن عثمان الملقب بـالمصحفى ، ومنهم الوزير الكـاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريـس الجزيرى ، ومنهم الوزير أبو بكـر محمد بن الحسن الزبيدى الذى اختصر كتاب العين ـ وقد تقدم ذكره[1] ـ وكان قد ولاه شرطته ، وكان الزبيدى هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه .

واستـوزر أبا العـلاء صـاعـد بن الحسن الرَّبعىّ اللغـوى البغـدادى ، ولـه معه أخبـار مستطرفة ، ولعلى سأورد طرفًا منها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

---

(١) وهو أول كتاب فى اللغة وضعه الخليل بن أحمد .

وكان محبًّا للعلوم مؤثراً للأدب مفرطًا فى إكرام من ينسب إلى شىء من ذلك (ويفد)[1] عليه متوسلاً به ، بحسب حظه منه وطلبه ومشاركته فيه[2] ورد عليه الأندلس فى أيام إمارته أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعى المذكور آنفًا ، فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالاً جمة ، وكان وروده عليه سنة ٣٨٠ ، أظن أصله من بلاد الموصل ، دخل بغداد فقرأ بها ، وكان عالمًا باللغة والآداب والأخبار ، سريع الجواب ، حسن الشعر ، طيب المعاشرة ، فَكِهَ المجالسة ممتعًا ، فأكرمه المنصور وأفرط فى الإحسان إليه والإفضال عليه ، وكان مع ذلك محسنًا لظريف السؤال ، حاذقًا فى استخراج الأموال ، طَبًا بلطائف الشكر .

أخبرنى بعض مشايخ الأندلس بإسناد له ، أن أبا العلاء دخل على المنصور أبى عامر يومًا فى مجلس أنسه ، وقد كان تقدَّم له أن أتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التى كانت تصل إليه فيها الأموال منه ، فلبسهِ تحت ثيابه ، فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد ، تجرَّد وبقى فى القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له : ما هذا يا أبا العلاء ؟ فقال : هذه الخرائط التى وصلتْ إلىّ فيها صِلات مولانا أتخذهَا شعاراً ! وبكى ، وأتبع ذلك من الشكر فصلاً كان رواه ، فأعجب ذلك المنصور ، وقال له : لك عندى مزيد ! وكان كما قال .

وألف له أبو العلاء هذا كتبًا ، فمنها كتاب سماه كتاب الفصوص ، على نحو كتاب النوادر لأبى على القالى ، واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر ، نهر قرطبة ، فخانت الغلام رجله فسقط فى النهر هو والكتاب ، فقال فى ذلك بعض الشعراء ـ وهو أبو عبد الله محمد ابن يحيى المعروف بابن العريف ـ بيتاً مطبوعًا بحضرة المنصور ، وهو :

قد غاص فى البحر كتاب الفصوص وهكذا كلُّ ثقيل يغوص !

---

(١) إضافة من نفح الطيب .
(٢) ورد ذكره فى نفح الطيب [تفاصيل القصة] .

فضحك المنصور والحاضرون ، فلم يَرُعْ ذلك صاعداً ولا هاله ، وقال مرتجلاً مجيباً لابن العريف :

عاد إلى معدنه إنما تـوجد فى قعر البحار الفصوص !

وكتاب آخر على نحو كتاب الخزرجى أبى السرى سهل بن أبى غالب ، سماه كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يشربى مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف ، وكتاب آخر فى معناه سماه كتاب الجوّاس بن قَعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء ، وهو كتاب مليح جدًّا انخرم أيام الفتن بالأندلس فنقصت منه أوراق لم توجد بعد ، وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب ، أعنى الجوّاس ، حتى رتَّب له من يخرجه أمامه كل ليلة ، ويقال : إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أُنْس لأحد ممن ولى الأمور بعده من ولده ، وادَّعى وجعًا لحقه فى ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصا ويعتذر به فى التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم ، وفى ذلك يقول فى قصيدته المشهورة فى المظفَّر أبى مروان عبد الملك بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، وهو الذى ولى بعد أبيه ، وأولها :

إليك حَدَوتُ ناجيةَ الركاب محمَّلة أمانىَ كالهضابِ

وبِعتُ ملوكَ أهل الشرق طُرًّا بواحدها وسيِّدها اللُّباب

وفيها يقول :

إلى الله الشَّكِيَّةُ من شَكاةٍ رَمَتْ ساقى فجلَّ بها مُصابى

وأقصتنى عن الملكِ المُرجَّى وكنت أرِمُّ حالى باقترابى

ومما استُحسن له قوله :

حَسبتُ المنعِمين على البَرايا فألفيتُ اسمَهُ صَدْرَ الحساب

وما قدَّمْتُه إلا كأنى أقدِّم تالياً أُمَّ الكتاب

قال أبو عبد الله الحميدى[1] : أخبرنى أبو محمد على بن الوزير أبى عمر أحمد بن سعيد ابن حزم[2]، أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدى المظفَّر فى عيد الفطر سنة ٣٩٦ ـ قال أبو محمد : وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفَّر ـ ولما رآنى أبو العلاء أستحسنُها وأُصغى إليها كتبها لى بخطه وأنفذها إلىَّ . انتهى كلام الحميدى .

وكان أبو العلاء كثيراً ما تُستغرب له الألفاظ ، ويُسأل عنها فيجيب بأسرع جواب ، على نحو ما يحكى عن أبى عمر الزاهد المطرِّز غلام ثعلب ، ولولا أن أبا العلاء كان كثير المزح لحُمل على التصديق فى كل ما يأتى به من ذلك وقد ظهر صدقه فى بعض ما قال ، فمما يحكى عنه فى هذا المعنى أنه دخل على المنصور يومًا وفى يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له فى بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد ، يذكر فيه القلب والتزبيل ، وهذه عندهم أسماء لمعاناة الأرض قبل الزرع ، فقال له : أبا العلاء ! قال : لبيك مولانا ! قال : هل رأيت فيما وقع إليك من الكتب كتاب القوالب والزوابل[3] لميدمان بن يزيد ؟ قال : إى والله يا مولانا ، رأيته ببغداد فى نسخة لأبى بكر بن دريد بخط كأكرع النمل فى جوانبها علامات الوُضَّاع هكذا هكذا . . . فقال له : أما تستحى أبا العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا [الذى تقدم ذكره][4]، وإنما صنعت لك هذه الترجمة مولَّدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ونسبتُه إلى عاملى لأختبرك ! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافق .

وقال له المنصور مرة أخرى وقدقدم طبقًا فيه تمر : يا أبا العلاء ، ما التمر كل فى كلام العرب ؟ قال : يقال تمر كل الرجل تمر كُلاً إذا التف فى كسائه !

---

(١) انظر : تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢١٨ ، شذرات الذهب ٣/ ٣٩٢ ، العبر ٣/ ٣٣٣ ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٦ ، وفيات الأعيان ١/ ٤٨٥ .

(٢) انظر : بغية الملتمس ٤٠٣ ، تذكرة الحفاظ ٣/ ١١٤٦ ، جذوة المقتبس ٢٩٠ ، شذرات الذهب ٣/ ٢٩٩ ، الصلة ٢/ ٤١٥ ، العبر ٣/ ٢٣٩ ، وفيات الأعيان ١/ ٣٤٠ .

(٣) انظر : إنباء الرواة .

(٤) إضافة من نفح الطيب .

وله من هذا كثير ، ولكنه مع هذا كان عالماً .

قال أبو عبد الله الحميدى : حدثنى أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى الوزير أبو عبدة حسان بن مالك ابن أبى عبدة ، عن أبى عبد الله العاصمى النحوى قال :

لما قدم صاعد بن الحسن اللغوى على المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر ، جمعنا معه ، فسألناه عن مسائل من النحو غامضةٍ فقصر فيها ، فلما رآه ابن أبى عامر كذلك قال : دعوه ، هو من طبقتى فى النحو ، وأنا أُناظره . قال : ثم سألنا صاعدًا فقال : ما معنى قول امرىء القيس :

كأنَّ دماء الهاديات بنحرِهِ ... عُصارة حَنَّاء بشيبٍ مُرجلِ .... ؟

فقلنا : هذا واضح ، وإنما وصف فرساً أشهب عُقرت عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا . فقال صاعد : سبحان الله ! أنسيتم قوله قبل هذا :

كُمَيتٌ يزِل اللبدُ عن حال متنه ... كما زلَّت الصفواء بالمتنزّلِ .. ؟

قال : فبُهتنا كأنا لم نقرأ هذا البيت قط ، واضطررنا إلى سؤاله عنه ، فقال : إنما عنى أحد وجهين : إما أنه تغشى صدره بالعَرق ، وعرقُ الخيل أبيض ، فجاء مع الدم كالشيب ، وإما شيء كانت العرب تصنعه ، وهو أنها كانت تَسمُ باللبن الحار فى صدور الخيل فيتمعَّط ذلك الشعر وينبت مكانه شعر أبيض ، فأيها عنى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم .

قال أبو عبد الله : وحدثنا أبو محمد على بن أحمد قال : حدثنى أبو الخيار مسعود بن سليمان بن مفلت الفقيه ، أن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب فى مجلس المنصور أبى عامر عن قول الشماخ بن ضرار :

دار الفتـــاة التى كنـــا نقـــول لها | يـاظبيـــةً عُطُـلاً حُسَّــانة الجيــد
تُـدنِـى الحمامـة منهـا وهـى لاهيـة | من يـــانع المردِ قِنـوانَ العنـــاقيـد

فقالوا : هى الحمامـة ، تنزل على غصن الأراكـة أو الكرمـة فتنفضه فتتمكن الظبيـة منه فترعاه . فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال : إن الحمامة فى هذا البيت هى المرآة ، وهى اسم من أسمائها ، فأراد أن هـذه الجارية المشبهة بـالظبية إذا نظرت فى المرآة أدنت المرآة منهـا فى المنظر شعرَها الذى هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم أو المرد ، فرأته .

ومن عجائب الدنيا التى لا يكاد يتفق مثلها ، أن صاعد بن الحسن اللغوى هذا أهدى إلى المنصور أبى عامر أيّلاً وكتب معه بهذه الأبيات :

يـــا حِـــرز كلِّ مُخوَّفٍ ، وأمـــان كل | مُشرَّدٍ ، ومُعـــزَّ كل مُــــذلَّـلِ
جـدواكَ إن تخْصُـص بـه فـلأهِلـه | وتعُمُّ بـــالإحســـان كلَّ مـــؤمِّل
كـالغيـث طبَّق فـاستـوى فى وبْلـه | شُعْـث البـــــلادِ مع المراد المقبـل
اللــه عَــونك مــا أبــرَّك بــالهدى | وأشـــد وقعك بـــالضـــلال المُشْعل
مـــا إن رأت عينى ، وعلمُك شـــاهـد | شروَى عــــــلائك فى مُعـمٍ مُخولِ
أنـدى بمُقـرَبـةٍ كسِرحــان الغَضَــا | ركضـــاً ، وأوغل فى مُثـــار القصطِل
مـولاى ، مـؤنسَ غُـربتى ، مُتخطفى | من ظفــــر أيـــامــى ، مُمنع معقلى
عبـدٌ نشلت بضبعــه وغـرستــه | فى نعمــــة أهــــدى إليك بأيِّـل
سميتــه « غــرسِيـــةً » وبعثتُــه | فى حبلــه ليُتــاح فيــه تفــاؤلى
فلئـن قبلتَ فتلـك أَسنَى نعمــــةٍ | أســدى بها ذو منحــــة وتطـــول
صحبتكِ غـــاديـــة السرور وجَللتْ | أرجـــاءَ ربعِك بـالسحـــاب المُخضلِ

فقضى الله فى سابق علمه أن غرسية بن شانجة من ملوك الروم ـ[1] وكان أمنع من النجم ـ أسر فى ذلك اليوم بعينه الذى بعث فيه صاعد بالأيل وسماه غرسية متفائلاً بأسره[2] ، وهكذا فليكن الجد للصاحب والمصحوب ، وكان أسر غرسية هذا فى ربيع الآخر سنة ٣٨٥ .

خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن ، وقصد صقلية فمات بها قريب من سنة ٤١٠[3] ـ فيما بلغنى ـ عن سن عالية .

ولم يزل المنصور أبو عامر محمد بن أبى عامر طول أيام مملكته مواصلا لغزو الروم ، مفرطا فى ذلك لا يشغله عنه شىء ، وكان له مجلس فى كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيمًا بقرطبة ، وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمصلى يوم العيد فحدثت له نية فى ذلك فلا يرجع إلى قصره ، بل يخرج بعد انصرافه من المصلى كما هو من فوره إلى الجهاد ، فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأول ، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر . غزا فى أيام مملكته نيفًا وخمسين غزوة ذكرها أبو مروان بن حيان كلها فى كتابه الذى سماه بـ « المآثر العامرية » واستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها ؛ وفتح فتوحًا كثيرة ، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله ، وملأ الأندلس غنائم وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم ، وفى أيامه تغالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدور ، وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرة ، بلغنى أنه نُودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ـ وكانت ذات جمال رائع ـ فلم تساوِ أكثر من عشرين ديناراً

---

(١) وهو ملك البشكنس .

(٢) قال المقرى [« وسبب أخذه أنه خرج يتصيد فلقيته خيل للمنصور من غير قصد فأسرته وجاءتْه به ، فكان هذا الاتفاق مما عظم به العجب »] .

(٣) اختلف المؤرخون فى سنة وفاته وقد قيل : إنه مات سنة ٤١٧ هـ ، وقيل : سنة ٤١٩ هـ ، وهناك رأى آخر سنة ٤١٤ هـ .

عامرية ، وكان فى أكثر زمانـه لا يُخِل بأن يغزو غزوتين فى السنة ، وكان كلما انصرف من قتال العـدو إلى سرادقه يأمـر بأن ينفض غبـار ثيابـه التى حضر فيهـا معمعة القتـال ، وأن يُجمع ويتحفظ به ، فلما حضرته المنية أمر بها اجتمع من ذلك أن ينُثر على كفنه إذا وُضع فى قبره[1] .

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين ، بموضع يعـرف بمدينة سالم ، مبطونًا ، فصحت له الشهادة ، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣[2] فكانت مدة إمارتـه نحواً من سبع وعشرين سنة ، وكان معافرى النسب ، وأمه تميمية اسمهـا فريهة بنت يحيى بن زكريا التميمى ، وكان يُعرف بابن برطل ، ولذلك قال فيه أبو عمـر أحمد بن محمد بن دراج الشاعر المعروف بالقسطلى من قصيدة له :

تــلاقــت عليـــه من تميـم وَيعــرُبِ	شمــوس تــلألأ فى العـــلا وبـــدورُ
مــن الحِمْيريين الـــــــذيـن أكفُّهـم	سحــائبُ تهمـى بـالنـدى وبحُـورُ

وأبو عمر هذا من فحول شعراء الأنـدلس والمجيدين منهم ، وذكره أبو منصور الثعالبى فى كتـاب اليتيمة وقـال فيه : القسطلى عنـدهم كأبى الطيب بصقع الشـام . هذا قـول أبى منصور أو معناه[3] ، وكنت أنا فى أيام شبيبتى مولعاً بشعـره كثير الدراسة له ، فلم يبق اليوم على خاطرى منه شىء أصلاً ، خلا بيتين هما مما ارتجل فى بعض مجالسه ، وهما :

أَجِـــــدِ الكــــلامَ إذا نطقـتَ فإنما	عقلُ الفتــى فى لفظِــــه المسمـــوعِ
كـــالمرأ يختبرُ الإنــــاءَ بصـــوتـــه	فَيرى الصحيحَ بـــه مـن المصـــدوعِ

---

(١) هناك رواية ذكرت بأنه أمر بجمع ما بقى من تراب ليجعلها وسادة لرأسه فى القبر .

(٢) والثابت تاريخيا ٣٩٣ .

(٣) ورد فى يتيمة الدهر « أبو عمر : كان بصقع الأندلس كالمتنبى بصقع الشام » .

تقلد المظفر ابن أبى عامر الوزارة

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد ابن أبى عامر هذا ، ابنُه أبو مروان عبد الملك بن أبى عامر وتلقب بالمظفر ، فجرى فى الغزو والسياسة عن هشام المؤيد على سنن أبيه ، وكانت أيامه أعيادًا فى الخصب والأمان ، دامت سبع سنين ، إلى أن مات وثارت الفتن بعده .

تقلد الناصر ابن أبى عامر الوزارة

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده ، أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالناصر ، فخلط وتسمى ولى العهد ، ولم يزل مضطربَ الأمور مدة أربعة أشهر ، إلى أن قام عليه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، لثمان عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ ، فخلع هشاماً المؤيد ، وأسلمت الجيوش عبد الرحمن بن محمد بن أبى عامر ، فقُتل وصُلب .

وكان محمد بن هشام بن عبد الجبار ـ المتقدم ذكره ـ لما قام تلقب بالمهدى ، وبقى الأمر كذلك إلى أن قُتل محمد بن هشام بن عبد الجبار ، ورد هشام المؤيد إلى الأمر ، وذلك يوم الأحد السابع من ذى الحجة سنة ٤٠٠ ، وبقى كذلك وجيوش البربر تحاصره مع سليمان بن الحكم بن سليمان ، واتصل ذلك إلى خمس خلون من شوال سنة ٤٠٣ ، فدخل البربر مع سليمان قُرطبة وأخلوها من أهلها حاشا المدينة وبعض الربض الشرقى ، وقُتل هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، وكان ـ كما ذكرنا ـ فى طول دولته متغلباً عليه لا يُنفذ له أمر ، وغلب عليه فى هذا الحصار ، أعنى حصار البربر ، واحدٌ من العبيد بعد محمد بن أبى عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرحمن الناصر .

ولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدى

ثم قام محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، على هشام بن الحكم فى

جمادى الآخرة ــ كما تقدم ــ فخلعه وتسمى بالمهدى ، وكان يُكنى أبا الوليد ، أمه أم ولدٍ اسمها مُزنة ، وكان له ولد اسمه عبيد الله ، وكان مولد المهدى فى سنة ٣٦٦ ، وقُتل وله من العمر أربع وثلاثون سنة(١) ، ولم يزل والياً إلى أن قام عليه ـ يوم الخميس لخمس خلون من شوال سنة ٣٩٩ ـ هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر مع البربر ، فحاربه بقية يومه والليلة الآتية وصبيحةَ اليوم الثانى ، فقام عامة أهل قرطبة مع محمد المهدى ، فانهزم البربر وأُسر هشام بن سليمان ، فأتى به إلى المهدى فضرب عنقه .

ظهور الفتنة

واجتمع البربر عند ذلك فقدموا على أنفسهم سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وهو ابن أخى هشام القائم المذكور ، فنهض بالبربر إلى الثغر ، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قرطبة ، فبرز إليه جماعة أهل قرطبة ، فلم تكن إلا ساعة حتى قُتل من أهل قرطبة نيفٌ وعشرون ألف رجل ، فى جبل هنالك يعرف بجبل « قنطش » ، وهى الوقعة المشهورة ، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير . واستتر محمد بن هشام المهدى أيامًا ، ثم لحق بطليطلة ، وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته ، واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قرطبة ، فبرز إليه سليمان بن الحكم مع البربر ، إلى موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى « دار البقر » فانهزم سليمان والبربر ، واستولى المهدى على قرطبة ، ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر ، وكانوا قد عاشوا بالجزيرة ، فالتقوا بموضع يعرف بوادى أره ، فكانت الهزيمة على محمد بن هشام المهدى ، وانصرف إلى قرطبة ، فوثب عليه العبيد مع واضح الصقلبى(٢) ، فقتلوه وردوا هشام المؤيد كما تقدم قبل .

---

(١) وردت فى الأصل ٣٧ سنة .

(٢) كان واضح الصقلبى من موالى بنى عامر ، وكان يسمى أيضًا واضحًا العامرى ، فقد أخذ بثأر مواليه إذن حين أعان على قتل المهدى ، كما مَهَّدَ الأمر لنفسه بذلك ، إذ تولى الحجابة لهشام المؤيد !

فكانت مـدة ولاية المهدى منـذ قام إلى أن قُتل سبعـة عشر شهراً[1] ، من جملتهـا الستة الأشهر التى كان فيها سليمان بقرطبة وكان هو بالثغر ، وانقرض عقبه فلا عقب له .

ولاية سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المتلقب بالمستعين بالله

قام سليمان بن الحكم يوم الجمعة لست خلـون من شوال سنة ٣٩٩ ، وتلقب بالمستعين باللـه ، ثم دخل قرطبة كما تقدم فى ربيع الآخـر سنة ٤٠٠ ، فتلقب حينئذ بالظـافر بحول الله ، مضـافًا إلى المستعين بالله ، ثم خـرج عنها فى شوال من السنة بعينهـا ، فلم يزل يجول بعساكر البربر معه فى بلاد الأنـدلس ، يفسد وينهب ويُقفر المدائن والقرى بالسيف والغارة لا يُبقى البربر معـه على صـغير ولا كبير ولا امرأة ، إلى أن دخـل قـرطبة فى صـدر شـوال سنة ٤٠٣ .

[أولية بنى حمُّود]

وكان من جملـة جنده رجلان من ولـد الحسن بن على بن أبى طالب ، يسميـان القاسم وعليا ابنى حمود بن ميمـون بن أحمد بن على بن عبيد الله بـن عمر بن إدريس [بن إدريس] ابن عبـد اللـه بن الحسن بن الحسن بـن على بن أبى طـالب ، رضى اللـه عنهم ، فجعلهما قائدين على المغـاربة ، ثم ولى أحدهما سبتـة وطنجة وهو علىٌ الأصغـر منهما ، وولى القاسم الجزيرة الخضراء ، وبين الموضعين المجـاز المعروف بالزُّقـاق ، وسعة البحر هنـالك اثنا عشر ميلاً ، وقد ذكر فيما قبل .

---

(١) والصحيح أنه قتل سنة ٤٠٠ هـ.

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سليمان قرطبة ، فملكوا مدنًا عظيمة وتحصنوا فيها ، فراسلهم على بن حمود المذكور ـ وقد حدث له طمعٌ فى ولاية الأندلس ـ فكتب إليهم يذكر لهم أن هشام بن الحكم إذ كان محاصراً بقرطبة كتب إليه يوليه عهده ، فاستجابوا له وبايعوه ، فزحف من سبتة إلى مالقة ، وفيها عامر بن فتوح الفائقى ، مولى فائق مولى الحكم المستنصر ، فاستجاب له وأدخله مالقة ، فتملكها على بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ، ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة ، فخرج إليه محمد بن سليمان فى عساكر البربر ، فانهزم محمد بن سليمان ، ودخل قرطبة على بن حمود ، وقُتل سليمان بن الحكم صبراً : ضرب عنقه بيده يوم الأحد لتسع بقين من المحرم سنة ٤٠٧ ، وقتل أبوه الحكم ابن سليمان بن الناصر أيضاً فى ذلك اليوم ، وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة !

وكانت مدة ولاية سليمان ــ منذ دخل قرطبة إلى أن قُتل ــ ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر وأيامًا ، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم ، وكانت مدته ــ منذ قام مع البربر إلى أن قُتل ـ سبعة أعوام وثلاثة أشهر وأياما .

وانقطعت دولة بنى أمية فى هذا الوقت وذِكرهُم على المنابر فى جميع أقطار الأندلس ، إلى أن عادت بعد ذلك فى الوقت الذى نذكره إن شاء الله تعالى .

وكانت أم سليمان هذا أم ولد اسمها ظبية ، ومولده سنة ٣٥٤ ، ترك من الولد ولّى عهده محمدًا ، والوليد ، ومسلمة .

وكان سليمان أديباً شاعرًا ، قال الحميدى : أنشدنى أبو محمد على بن أحمد قال : أنشدنى فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادى الشاعر كان يكتب لأبى جعفر أحمد بن سعيد بن الدب ، قال : أنشدنى أبو جعفر قال : أنشدنى أمير المؤمنين سليمان الظافر لنفسه ، قال أبو محمد : وأنشدَنيها قاسم بن محمد المروانى قال : أنشدَنيها وليد بن محمد الكاتب لسليمان الظافر أمير المؤمنين :

عجبـا يهابُ الليث حــدَّ سِنـانى — وأهــاب لحظ فــواتــرِ الأجفــانِ

وأقــارع الأهــوالَ لا متهيبــاً — منهـا ســوى الإعـراض والهجـران

وتملكتْ نفسى ثــلاثٌ كــالــدُّمى — زُهــرُ الــوجـوه نــواعمُ الأبــدان

ككــواكبِ الظلماءِ لحنَ لنــاظــرٍ — من فــوق أغصــان على كُثبــان

هــذى الهلالُ وتلك بنتُ المشترِى — حُسنــاً ، وهـذى أختُ غُصن البــان

حــاكمتُ فيهن السُّلــوَّ إلى الضنى — فقضى بسلطــانٍ على سُلطــانى

فـأبَحْنَ مـن قلبـى الحمَى وثنيننـى — فى عــزِّ مُلكى كــالأسيرِ العــانى

لا تعــذلــوا ملكًــا تــذلل للهــوى — ذُلُّ الهوى عِــزٌّ وملْكٌ ثــان

مــاضرَّ أنى عَبــدُهُـنّ صبــابــةً — وبنــو الـزمــانِ وهن من عبـدانى

إن لم أطع فيهـن سلطــان الهوى — كلفــاً بهن فلستُ من مــروان

وإذا الكــريمُ أحـب أَمَّنَ إلفــه — خطب القلى وحــوادث السلــوان

وإذا تجارى فى الهوى أهــلُ الهوى — عــاش الهوى فى غِبطــة وأمــان

وإنما قصد المستعين بهذه الأبيات معارضة الأبيات التى عَمِلها العباسُ بن الأحنف على لسان هارون الرشيد فنُسبت إليه ، وهى :

ملك الثــلاثُ الآنســاتُ عِنــانى — وحللــن من قلبــى بكلِّ مكــان

مــالى تُطــاوعنى البريــة كلهــا — وأطيعهـن وهـن فى عِصيــانى

مــا ذاك إلا أن سلطــان الهوى — وبــه قَــوِينَ أعــزُّ من سلطــانى

أبومحمد الذى يحدث عنه الحُميدىّ : هو أبومحمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صلح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسى ، مولى يزيد بن أبى سفيان ابن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى ، قُرِىء علىَّ نسبُه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه ، أصل آبائه الأدنين من قرية من إقليم لبلة من غرب الأندلس ، سكن هو وأبوه قرطبة ، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد بن أبى عامر ، ووزراء ابنه المظفر بعده ، وكان هو المدبر لدولتيهما ، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله ، أخى المهدى المذكور آنفا ، ثم إنه نبذ الوزارة وأطرحها اختيارًا ، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن ، فنال من ذلك ما لم ينله أحد من قبله بالأندلس ، وكان على مذهب الإمام أبى عبد الله الشافعى رحمه الله ، أقام على ذلك زمانًا ، ثم انتقل إلى القول بالظاهر ، وأفرط فى ذلك حتى أربى على أبى سليمان داود الظاهرى وغيره من أهل الظاهر ، وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد فى أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذى يسلكه ، ومذهبه الذى يتقلده ، وهو مذهب داود بن على بن خلف الأصبهانى الظاهرى ومن قال بقوله من أهل الظاهر وُنفاة القياس والتعليل ، بلغنى من غير واحد من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه فى الفقه والحديث والأصول والنِّحَل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له ـ نحو من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ، وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله إلا لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفًا ، فقد ذكر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر الفرغانى فى كتابه المعروف بالصلة ، وهو الذى وصل به تاريخ أبى جعفر الطبرى الكبير : أن قومًا من تلاميذ أبى جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى فى سنة ٣١٠ وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته ، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة ، وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية البارى تعالى وحسن تأييده له .

ولأبى محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة ، وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة ، فمن شعره :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا ... فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنتْ فيه مسرةُ ساعة ... تولت كمر الطرف واستخلفت حُزنا
إلى تبعاتٍ فى المعاد وموقفٍ ... نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هَمٍّ وإثم وحسرةٍ ... وفات الذى كنا نقرُّ به عينا
حنين لما ولى ، وشُغل بما أتى ... وغم لما يُرجى ، فعيشك لا يهْنا
كأن الذى كنا نُسرُّ بكونه ... إذا حققته النفسُ ، لفظ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة ... ولكن عيبى أن مطلعى الغربُ
ولو أننى من جانب الشرقِ طالعٌ ... لجدَّ على ماضاع من ذكرى النهب
ولى نحوأكناف العراق صبابة ... ولا غرو أن يستوحش الكلف الصَّبُ
فإن يُنزل الرحمن رحلى بينهم ... فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائلٍ أغفلتُهُ وهو حاضر ... وأطلب ما عنه تجىء به الكتبُ !
هنالك يدرى أن للبعد قصة ... وأن كساد العلم آفتُه القُرب !
فياعجباً من غاب عنهم تشوقوا ... له ، ودُنُوُّ المرءِ من دارهم ذنبُ
وإن مكاناً ضاق عنى لضيقٌ ... على أنه فسح مهامُهُ سُهبُ
وإن رجالاً ضيعونى لضُيعٌ ... وإن زماناً لم أنل خصبهُ جدب(١)

---

(١) إضافة من نفح الطيب .

ومنها فى الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكن لى فى يـــوسف خير أســـوةٍ ... وليس على مَن بـــالنبـى ائتسى ذنب

يقول ــ وقال الحق والصدق ـ إننى ... حفيظٌ عليم ، مـا على صـادقٍ عتب

ومن المختار له قوله :

لا يشمتن حـاسدى إن نكبة عـرضت ... فـالــدهــر ليس على حــالٍ بمُترِكِ

ذو الفضل كالتبرِ طـوراً تحت ميقعةٍ ... وتـــارةً فى ذُرى تـــاج على ملك !

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحـتُ مـــرتحلاً بشخصى ... فـــروحى عنـــدكم أبـــداً مقيمُ

ولكـن للعيـــان لطيـفُ معنـى ... لـــه ســـال المُعـــاينـــة الكليمُ

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما فى رجل نمّام :

أنـم مـن المرآة فى كـل مــــادرى ... وأقطع بين النـــاس من قُضُب الهنــد

كأن المنـــايـــا والــزمـــان تعلمّا ... تحيلـــه فى القطع بين ذوى الـــوُد !

وُجد بخطه أنه ولد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ توفى رحمه الله فى سلخ شعبان سنة ٤٥٦ .

وإنما أوردت هذه النبـذة من أخبار هـذا الرجل وإن كانت قـاطعة للنسق خـارجة عن

بعض الغرض ، لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً فى مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت ، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم .

ولاية ابن حمود الناصر

ثم ولى على بن حمود على ما تقدم ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالناصر ، ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه ، وقدموا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، ولقبوه بالمرتضى ، وزحفوا به إلى غرناطة ، وهى من البلاد التى تغلب عليها البربر ، ثم ندموا على تقديمه لما رأوا من صرامته وحِدة نفسه ، وخافوا من عواقب تمكنه وقدرته ، فانهزموا عنه ودسوا عليه من قتله غيلة وخفى أمره .

وبقى على بن حمود بقرطبة مستمرّ الأمر عامين غير شهرين ، إلى أن قتله صقالبةٌ له فى الحمام سنة ٤٠٨ ، وكان له من الولد : يحيى ، وإدريس .

ولاية القاسم بن حمود المأمون

ثم ولى بعده أخوه القاسم بن حمود ، وكان أسن منه بعشرة أعوام ، وكان وادعًا ، أمن الناس معه ، وكان يُذكر عنه أنه تشيع ، ولكنه لم يُظهر ذلك ولا غير على الناس عادةً ولا مذهبًا ، وكذلك سائر من ولى منهم بالأندلس[1] .

---

(١) المقصود بنى حمود ويرجع أصلهم إلى الحسن بن على بن أبى طالب .

فبقى القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢ ، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن على ابن حمود بمالقة فهرب القاسم عن قرطبة بلا قتال وصار بإشبيلية ، وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر ودخل قرطبة بلا قتال ، وتَسمَّى بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى ، فبقى كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قرطبة ، فدخلها سنة ٤١٣ وهرب يحيى بن على إلى مالقة ، فبقى القاسم بقرطبة شهوراً واضطرب أمره .

وغلب ابن أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وهى كانت معقل القاسم ، وبها كانت امرأته وذخائره ، وغلب ابن أخيه الثانى إدريس بن على صاحب سبتة على طنجة ، وهى كانت عُدة القاسم ، يلجأ إليها إن رأى ما يخافه بالأندلس .

وقام عليه جماعة أهل قرطبة بالمدينة ، وغلقوا أبوابها دونه[1] ، وحاصرهم نيفاً وخمسين يومًا ، وأقام الجمعة فى مسجد خارج قرطبة ، يعرف بمسجد ابن أبى عثمان ، أثره باق إلى اليوم ، ثم إن أهل قرطبة زحفوا إلى البربر ، فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها فى شعبان سنة ٤١٤ ، ولحقت كل طائفة من البربر ببلد غلبت عليه .

وقصد القاسم إشبيلية ، وبها كان ابناه محمد والحسن ، فلما عرف أهل إشبيلية خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم ، طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر ، وضبطوا البلد ، وقدموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى[2] ، ومحمد بن يريم الألهانى ، ومحمد بن الحسن الزبيدى ، ومكثوا كذلك أياماً مشتركين فى سياسة البلد وتدبيره ، ثم استبد القاضى أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد بالأمر والتدبير ، وصار الآخران من جملة الناس .

---

(١) هرب إلى ما وراء أسوار مدينة قرطبة بعد ثورة أهلها عليه .
(٢) وهو مؤسس بنى عباد أصحاب إشبيلية .

ولحق القاسم بشريش ، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى ، فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار فى قبضة ابن أخيه ، وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر .

وبقى القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس ، فقُتل القاسم خنقا سنة ٤٣١ ، وحُمل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفن هناك .

فكانت ولاية القاسم منذ تسمَّى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام ، ثم كان مقبوضاً عليه ست عشرة سنة عند ابن أخيه يحيى وإدريس ، إلى أن قُتل ـ كماذكرنا ـ فى أول سنة ٤٣١ ، ومات وله ثمانون سنة وله من الولد محمد والحسن ، أمهما أميرة بنت الحسن ابن قنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

ولاية يحيى بن على المعتلى

اختُلف فى كنيته ، فقيل أبو القاسم ، وقيل أبو محمد ، وأمه لبُونة بنت محمدبن الحسن ابن القاسم المعروف بقنون بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وكان الحسن بن قنون من كبار ملوك الحسنيين وشُجعانهم ومردتِهم وطغاتهم المشهورين ، فتسمى يحيى بالخلافة بقرطبة سنة ٤١٣ كما ذكرنا ، ثم هرب عنهم إلى مالقة سنة ٤١٤ كما وصفنا ، ثم سعى قوم من المفسدين فى رد دعوته إلى قرطبة فى سنة ١٦ فتم لهم الأمر ، إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره ، واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطاف اليفرنى[1] ، فبقى الأمر كذلك إلى سنة ١٧ ثم قطعت طاعته جماعة البربر ، [2] وصرفوا عاملهم ، وبايعوا المعتلى الأموى أخا المرتضى[3] ، وبقى المعتلى

---

(١) وهو منسوب إلى يفرن من قبائل البربر وقد وصل إلى درجة من الجاه والقوة فى عهد عبيد الله ابن المهدى .

(٢) إضافة من نفح الطيب .

(٣) انظر : نفح الطيب ٤٩ ـ ٥٠ .

هـذا يردد لحصارهم العساكر ، إلى أن اتفقت كلمة البربر على الاستسلام لأبى القاسم وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن ، وعظم أمره بقرمونة ، فصار محاصراً لإشبيلية ، طامعاً فى أخذها فخرج يومًا وهو سكران إلى خيل ظهرت من إشبيلية بقرب قرمونة ، فلقيها وقد كمنوا له ، فلم يكن بأسرع من أن قتلوه(١) ، وذلك يوم الأحد لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ، وكان له من الولد : الحسن ، وإدريس ، ولأمىْ ولد .

[رد الأمر إلى بنى أمية]

ولاية عبد الرحمن بن هشام المستظهر

ولما انهزم البربر عن قرطبة مع أبى القاسم كما ذكرنا ، اتفق رأى أهل قرطبة على رد الأمر إلى بنى أمية ، فاختاروا منهم ثلاثة وهم : عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، أخو المهدى المذكور آنفا(٢) ، وسليمان ابن المرتضى المذكور آنفا ، ومحمد بن عبد الرحمن بن هشام بن سليمان القائم على المهدى ابن الناصر(٣) .

ثم استقر الأمر لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ، فبويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة ٤١٤ ، وله اثنتان وعشرون سنة ، وتلقب بالمستظهر ، وكان مولده سنة ٣٩٢ فى ذى القعدة ، يكنى أبا المطرف ، وأمه أم ولد اسمها غاية .

ثم قام عليه أبوعبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر ، مع طائفة من أراذل العوام ، فقتل عبد الرحمن بن هشام ، وذلك لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة ، ولا عقب له(٤) .

---

(١) كان هذا بإيعاز من ملك إشبيلية ، ابن عباد .
(٢) انظر التفاصيل فى نفح الطيب ١/ ٤١ .
(٣) انظر : المعجب ٤١/ ٤٢ .
(٤) جلس فى الحكم ٧٥ يوما .

وكان فى غايـة الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس ، كذا قـال أبو محمد على بن أحمد ، وكان خبيراً بـه ؛ لأنه وزر لـه ، وقال الوزيـر أبو عامـر أحمد بن عبد الملك بن شهيـد : كان المستظهر شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد ، وهو القائل فى ابنة عمه :

حمامـــة بيت العبشميين(١) رفـرفت	فطــرت إليهـــا من سراتهم صقْــرا
تَقِلُّ الثــريــا أن تكـــون لها يــدًا	ويــرجو الصبـاح أن يكون لها نحــرا
وإنــى لطعـــــانٌ إذا الخيل أقبلـت	جـوانبهـا حتى تـرى جُـونها شُقـرا
ومُكـرِمُ ضيفى حين ينــزل ســاحتى	وجـاعل وفـرى عنــد ســائلـه وفـرا

وهى طويلة ، قـالها أيـام خطبته لابنـة عمه أم الحكم بنت سليمـان المستعين .

قال أبـو عامر : « وكان متهما فى أشعـاره ورسائله ، حتى كتب أبياتًـا ليعلى بن أبى زيد حين وفد عليه ارتجالا ، فعجب أهل التمييز منه ، وأما أنا فقد كنت بلوته ، وكان ورود يعلى فجأة ولم يبرح مـن مجـلسه حتى ارتجـل الأبيات وأنـا والله أخـاف أن يــزلّ ، فأجاد وزاد » هذا آخر كلام أبى عامر .

ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفى بالله

ولــى محمد بـن عبد الرحمن المذكور ولــه ثمان وأربعون سنة وأشهر ؛ لأن مولده فى سنة ٣٦٦ ، وكنيته أبو عبد الـرحمن ، أمه أم ولد اسمها حوراء ، وكان أبوه قـد قتله ابن أبى عامر فى أول دولة هشام المؤيد ، لسعيه فى القيام وطلبه للأمر .

---

(١) وهم من بطن بنى عبد شمس .

وكان محمد بن عبد الرحمن هذا يلقب بالمستكفى بالله ، وكانت ولايته ستة أشهر وأيامًا ، وكان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وَزَرَ له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد ، هو كان المدبر لأمره والمدير لدولته ، فقل فى دولة يُديرها حائك . . . !

ولم يزل كذلك إلى أن خلع وقُتل وزيره المذكور فى داره : دخل عليه عوام أهل قرطبة نهاراً فتولوه بالحديد إلى أن برد ، وخلعوا المستكفى بالله وأخرجوه عن قرطبة ، بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجونًا لا يصل إليه طعام ولا شراب ، ثم نفوه - كما ذكرنا - فلحق بالثغور ، ورجع الأمر إلى يحيى بن على الفاطمى[1] .

وانتهى المستكفى المذكور من الثغر إلى قرية تعرف بـ « شمنت[2] » بالقرب من مدينة سالم ، ومعه أحد قواده ، وهو عبد الرحمن بن محمد ابن السليم ، من ولد سعيد بن المنذر القائد المشهور أيام عبد الرحمن الناصر ، فكره هذا القائد التمادى معه ، فاستدعى المستكفى غَدَاءه ، فعمد القائد إلى دجاجة فدهنها له بعُصارة نبت يقال له البيش[3] - وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة - فلما أكلها المستكفى مات مكانه ، فغسَّله وكفنه وصلى عليه ودفنه ، فقبره هناك ، ولا عقب له[4] .

ثم أقام يحيى بن على الفاطمى فى الولاية نافذ الأمر ، إلا أنه لم يدخل قرطبة ، وإنما كان مقيمًا بقرمونة كما قد قدمنا إلى أن قُتل فى التاريخ الذى تقدم ذكره .

ولاية هشام المعتدّ بالله

---

(١) وهو المعتلى ابن حمود .
(٢) وجاءت عبارة أخرى عند المقرى « وفرَّ المستكفى إلى ناحية الثغر ومات بفرة » .
(٣) وهو صاحب ابن زيدون الشاعر المعروف .
(٤) انظر : الحلة السيراء ١/ ١١٠ .

ولما انقطعت دعوة يحيى بن على الفاطمى عن قرطبة فى التاريخ الذى ذكرناه ، أجمع رأى أهل قرطبة على رد الأمر إلى بنى أمية ، وكان عميدهم فى ذلك والذى تولى معظمه وسعى فى تمامه ، الوزير أبا الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر ابن أبى عبدة ، وقد كان ذهب كل من ينافس فى الرياسة ويخبُّ فى الفتنة بقرطبة ، فراسل جهور من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلبين هنالك على الأمور ، وداخلهم فى هذا الأمر ، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، وهو أخو المرتضى المذكور آنفا .

وكان هشام هذا مقيمًا بحصن يدعى « ألبُنْت » ، من الثغور ، عند أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلب بها ، فبايعوه فى شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ ، وتلقب بالمعتدِّ بالله .

وكان مولده فى سنة ٣٦٤ ، وكان أسن من أخيه المرتضى بأربعة أعوام ، وسنه يوم بُويع له أربع وخمسون سنة ، أمه أم ولد اسمها « عاتب » .

فبقى ينتقل فى الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع ، ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلبين واضطراب شديد ، إلى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قرطبة قصبة الملك ، فسار إليها ودخلها فى الثامن من ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، فلم يُقم بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند ، فخُلع ، وجرت أمور يطول شرحها ، من جملتها إخراج المعتد بالله هذا من قصره هو وحشمه ، والنساء حاسرات عن وجوههنَّ ، حافية أقدامهن ، إلى أن أُدخلوا الجامع الأعظم على هيئة السبايا ، فأقاموا هنالك أيامًا يُتعطَّف عليهم بالطعام والشراب ، إلى أن أُخرجوا عن قرطبة .

ولحق هشام ومن معه بالثغور بعد اعتقالٍ بقرطبة ، فلم يزل يجول فى الثغور إلى أن لحق بابن هود المتغلب على مدينة لاردة وسرقسطة وأفراغة وطُرطوشة وما والى تلك الجهات ، فأقام عنده هشام إلى أن مات سنة ٤٢٧ ، ولا عقب له ، فهشام هذا آخر ملوك بنى أمية بالأندلس .

نسبُه : هو هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصرى بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم .

وبخلعه انقطعت الدعوةُ لبنى أمية وذِكرُهـم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعُدوة إلى الآن .

فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بنى أمية بالأندلس على شرط التلخيص .

ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال الدعوة الأموية عنها وعن ملكها من الملوك إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١

ولما انقطعت دعوة بنى أمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلُح للإمارة ولا من تليق به الرياسة ، استولى على تدبير مُلك قرطبة جهور بن محمد بن جهور ، ويكنى أبا الحزم ، وقد تقدم ذكر نسبه فى ترجمة هشام المعتد .

وأبو الحزم هذا قديم الرياسة شريف البيت ، كان آباؤه وزراء الدولة الحكمِية والعامرية ، وهو موصوف بالدهاء وبُعد الغور وحصافة العقل وحسن التدبير ، ولم يدخل من دهائه فى الفتن الكائنة قبل ذلك ، كان يتصاونُ عنها ويظهر النزاهة والتدين والعفاف ، فلما خلا له الجو وأَصفر الفناء وأقفر النادى من الرؤساء وأمكنته الفرصة ، وثب عليها فتولى أمرها واصطنع بحمايتها .

ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهرًا ، جرياً على ما قدمنا من إظهار سُنن العفاف ، بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه ، وذلك أنه جعل نفسه مُمسكا للموضع إلى أن يجىء من يتفق الناس على إمارته فيسلم إليه ذلك ، ورتّب البوابين والحشم على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ، ولم يتحول عن داره إليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جنداً له ، وجعل أرزاقهم رءوس أموال تكون بأيديهم مُحْصاة عليهم يأخذون ربحها ورءوس الأموال باقية محفوظة ، يُؤخذون بها ويراعون فى كل وقت كيف حفظهم لها ، وفرق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته فى الدكاكين والبيوت ، حتى إذا دهمهم أمرٌ فى ليلٍ أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان فى بيته أو دكانه .

وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى ، جاريًا على طريقة الصالحين ، وهو مع ذلك يدبر الأموال تدبير الملوك المتغلبين ، وكان آمنا وادعًا وقرطبة فى أيامه حرماً يأمن فيه كل خائف .

واستمر أمره على ذلك إلى أن مات فى غرة صفر سنة ٤٣٥ فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهراً .

ثم ولى ما كان يتولى من أمر قرطبة بعده ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، فجرى فى السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه ، غير مُخل بشىء من ذلك ، إلى أن مات أبو الوليد المذكور فى سلخ شوال من سنة ٤٤٣ .

فغلب عليه بعد أمورٍ جرت ، الأمير الملقب بالمأمون ابن ذى النون صاحب طُليطلة ، فدبرها مدة يسيرةً إلى أن مات .

وخلَّف فيها بعده من البربر رجلاً يُعرف بابن عكاشة ، أظن اسمه موسى ، فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأمير الظافر بحول الله أبوالقاسم محمد بن عباد على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

فهذا آخر أخبار قرطبة وكونها داراً للملك .

وبعد غلبة المعتمد عليها صارت تبعًا لإشبيلية .

***

فصـــل
عن بني حمود وطمع بني عباد في قرطبة

وأمـا أحوال الحسنيين ، فإنــه لما قُتل يحيى بن على ـ كما ذكرنا ــ لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ــ رجع أبو جعفـر أحمد بن موسى المعـروف بابن بقنـة ، ونجا الخادم الصقلبى ، وهما مدبرا دولـة الحسنيين ، فأتيا مالقة وهى دار مملكتهم ، فخـاطبا أخاه إدريس بن على ، وكان بسبتة ، وكـان يملك معها طنجة ، واستدعيـاه ، فأتى مالقة وبايعـاه بالخلافة على أن يجعل حسن بن يحيى المقتـول مكانه بسبتـة ، ولم يبايعا واحـداً من ابنى يحيى ، وهما إدريس وحسن ، لصغرهما ، فأجابهما إلى ذلك ، ونهض نجا مع حسن هذا إلى سبتة وطنجة ، وكان حسن أصغر ابنى يحيى ولكنه أسدُّهما رأيا .

وتلقب إدريس بالمتـأيد ، فبقى كذلك إلى سنـة ٣٠ أو ٣١ ، فتحركت فتنـة ، وحدث للقاضى أبى القـاسم محمد بن إسماعيل بن عباد صـاحب إشبيلية أمل فى التغلب على تلك البلاد ، فأخـرج ابنه إسماعيل فى عسكر مع من أجابـه من قبائل البربر ، ونهض إلى قرمـونة فحاصرها ، ثم نهض إلى حصن يدعى أشونة ، وحصن آخر يدعى أستجة فأخذهما ، وكانا بيد محمـد بن عبد الله ، رجلٍ من قواد البربـر من بنى برزال ، فاستصرخ محمد بن عبـد الله إدريس بن على الحسنى وقبائل صنهاجة ، فأمده صـاحب صنهاجة بنفسه ، وأمده إدريس بعسكر يقـوده ابن بقنة أحمد بن موسى مـدبرُ دولته ، فـاجتمعوا مع محمد بن عبـد الله ، ثم غلبت عليهم هيبة إسماعيل بن محمـدبن إسماعيل بن عباد ، قائد عســكر أبيــه القاضى أبى القاسم ، فافترقوا ، وانصرف كل واحـد منهم إلى بلده ، فبلغ ذلك إسماعيل بن محمد ، فَقَوِىَ أمله ، ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحـب صنهاجة ، وقدر صاحب صنهاجة أنه سيلحقه ، فـوجه إلى ابن بقنـة يسترجعه ، وإنما كـان فارقـه قبل ذلك بساعـة ، فرجـع إليه

والتقت العساكر فما كان إلا أن تراءى الجمعان ، فولّى عسكر ابن عباد منهزماً ، وأسلموا إسماعيل ، فكان أول مقتول ، وحُمل رأسه إلى إدريس بن على الحسنى .

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك ، فنزل على مالقة إلى جبل بباشتر ، وهو الذى قام فيه ابن حفصون المتقدم الذكر[1] ، فتحصن به وهو مريض مُدنف ، فلم يعش إلا يومين ومات ، وترك من الولد يحيى ، قُتل بعده ، ومحمداً الملقب بالمهدى ، وحسناً المتلقب بالسامى ، وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه على ، مات فى حياة أبيه ، وترك ابنا اسمه عبد الله ، أخرجه عمه[2] ونفاه لما وَلِىَ .

وقد كان يحيى بن على المذكور قبلُ قد اعتقل ابنى عمه محمداً والحسن ابنى القاسم بن حمود بالجزيرة ، وكان الموكل بهما رجلاً من المغاربة يعرف بأبى الحجاج ، فحين وصل إليه خبر قتل يحيى ، جمع من كان فى الجزيرة من المغاربة والسودان ، وأخرج محمداً والحسن ، وقال : هذان سيداكم ! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما ، لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثاره لهم ، وانفرد محمد بالأمر دون الحسن ، وملك الجزيرة ، إلا أنه لم يتسمَّ بالخلافة ، وبقى معه أخوه الحسن مدة ، إلى أن حدث له رأى فى التنسك ، فلبس الصوف وتبرأ عن الدنيا ، وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم ، زوجة يحيى بن على المعتلى[3] .

فلما مات إدريس كما تقدم ، رام ابن بقنة أحمد بن موسى ضبط الأمر لولده يحيى بن إدريس المعروف بحيون ، ثم لم يجسر على ذلك الجسر التام ، وتحير وتردد .

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عباد وموت إدريس بن على إلى نجا الخادم الصقلبى ،

---

(١) لا يوجد أى أخبار عن ابن حفصون .

(٢) المقصود به يحيى بن على بن حمود .

(٣) وردت فى نفح الطيب رواية المقرى : « وكان محمد بن القاسم بن حمود لما اعتقل أبوه القاسم بمالقة سنة ٤١٤ ، وفر من الاعتقال ولحق بالجزيرة الخضراء وملكها وتلقب بالمعتصم ، إلى أن هلك سنة ٤٤٠ ، ثم ملكها بعده ابنه القاسم الواثق إلى أن هلك سنة ٤٥٠ »
ولم يذكر المقرى شيئاً عن تنسُّك محمد بن القاسم ولبسه الصوف .

وكان بسبتة ، استخلف عليها من وثق به من الصقالبة ، وركب البحر هو وحسن بن يحيى إلى مالقة ، ليرتب الأمر له ، فلما وصلا إلى مرسى مالقة ، خارت قوى ابن بقنة وهرب إلى حصن كمارش ، على ثمانية عشر ميلاً من مالقة .

ودخل حسن ونجا مالقة ، واجتمع إليهما من بها من البربر ، فبايعوا حسن بن يحيى بالخلافة ، وتسمى المستعلى ، ثم خاطب ابن بقنة وأمّنه ، فلما رجع إليه قبض عليه وقتله ، وقتل ابن عمه يحيى بن إدريس .

ورجع نجا إلى سبتة وطنجة ، وترك مع الحسن رجلاً كان من التجار يعرف بالسطيفى ، كان نجا كثير الثقة به ، فبقى الأمر كذلك نحواً من عامين .

وكان الحسن بن يحيى متزوجـًا بابنة عمه إدريس ، فقيل : إنها سمته أسفاً على أخيها ، فلما مات احتاط السطيفى على الأمر ، واعتقل إدريس بن يحيى وكتب إلى نجا بالخبر .

وكان للحسن ابن صغير عند نجا ، فقيل إنه اغتاله أيضاً فقتله ، فالله أعلم ولم يُعقب حسن بن يحيى ، فاستخلف نجا على سبتة وطنجة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه ، وركب البحر إلى مالقة ، فلما وصل إليها زاد فى الاحتياط على إدريس بن يحيى ، وأكد اعتقاله ، وعزم على محو أمر الحسنيين جملة ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فدعا البربر الذين كانوا جند البلد ، وكشف الأمر إليهم علانية ، ووعدهم بالإحسان ، فلم يجدوا لمساعدته بدًّا ، فوافقوه فى الظاهر ، وعظم ذلك فى أنفسهم باطناً ، ثم جمع عسكره ونهض إلى الجزيرة ليستأصل محمد بن القاسم ، فحاربه أياما ، ثم أحس بفتور نيات الذين معه ، فرأى أن يرجع إلى مالقة ، فإذا حصل فيها نفى من يخاف غائلته منهم واستصلح سائرهم ، واستدعى الصقالبة من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم ، وأحس البربر بهذا منه ، فاغتالوه فى الطريق من قبل أن يصل إلى مالقة ، فقُتل وهو على دابته فى مضيق صار فيه ، وقد تقدمه إليه الذى أراد الفتك به ، وفر من كان معه من الصقالبة

بأنفسهم ، ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مالقة ، فدخلا وهما يقولان : البشرى البشرى ، فلما وصلا إلى السطيفى ، وضعا سيفيهما عليه فقتلاه .

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيى من حبسه ، فقدموه وبايعوه بالخلافة ، وتسمى بالعالى ، فظهرت منه أمور متناقضة ، منها أنه كان أرحم الناس قلباً ، كثير الصدقات : يتصدق كل يوم بخمسمائة ، ورد كلَّ مطرود عن وطنه إليه ، ورد عليهم ضياعهم وأملاكهم ، ولم يسمع بغياً فى أحد من الرعية ، وكان أديب اللقاء ، حسن المجلس ، يقول من الشعر الأبيات الحسان[1] ، ومع هذا فكان لا يصحبُ ولا يؤثر إلا كل ساقط رذْل ، ولا يحجُب حُرمه عنهم ، وكل من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صنهاجة أو بنى يفرن أعطاه إياه ، وكتب إليه أمير صنهاجة أن يسلم إليه وزيره ومدبرأمره وصاحب أبيه وجده : موسى بن عفان السبتى ، فلما أخبره أن الصنهاجى كتب إليه يطلبه منه وأنه لابد من تسليمه إليه ، قال له موسى بن عفان : افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ! فبعث به إلى الصنهاجي فقتله .

وكان قد اعتقل ابنى عمه محمداً وحسناً ابنى إدريس بن على فى حصن إيرشُ ، فلما رأى ثقته الذى فى الحصن اضطراب آرائه ، خالف عليه وقدم ابن عمه محمد بن إدريس ، فلما بلغ ذلك السودان المرتبين فى قصبة مالقة ، نادوا بدعوة ابن عمه محمد بن إدريس ، وراسلوه بالمجيء إليهم وامتنعوا بالقصبة .

واجتمع العامة إلى إدريس بن يحيى ، واستأذنوه فى حرب القصبة والدفاع عنه ، ولو أذن لهم ما ثبت السودان فُواق ناقة[2] ، فأبى فقال لهم : الزموا منازلكم ودعونى ، فتفرقوا عنه .

---

(١) من شعراء الذخيرة .
(٢) تعبيراً عن السرعة .

وجاء ابن عمه ، فسُلم عليه ، وبويع بالخلافة ، وتسمى بالمهدى ، وولى أخاه عهده ، وسماه السامى ، واعتقل ابن عمه إدريس بن يحيى فى الحصن الذى كان معتقلا فيه(١) .

وظهرت من محمد بن إدريس هذا شهامة وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر وأشفقوا منه وأرسلوا المرتب فى الحصن الذى فيه إدريس بن يحيى هذا واستمالوه ، فأجابهم وقام بدعوة إدريس .

وقد كان إدريس أول ولايته بعد قتل نجا ـ كما تقدم ـ قد ولى سبتة وطنجة رجلين من برغواطة ، قبيلةٍ من قبائل البربر ، من عبيد أبيه ، اسم أحدهما رزق الله ، والآخر سكات ، فلما خُلع إدريس ، كما تقدم ، بقيا حافظين لمكانيهما .

فلما قام ـ كما ذكرنا ـ بدعوة صاحب خصن إيرشُ ، لم يُظهر محمد مبالاة بذلك ، بل ثبت ثباتاً شديدًا ، وكانت والدته تشجعه وتقوى متنه وتُشرف على الحرب بنفسها فتُحسن إلى من أبلى ، فلما رأى البربر شدة عزمه وثباته ، فَتَّ ذلك فى أعضادهم وتخلوا عن إدريس ابن يحيى ، ورأوا أن يبعثوا به إلى سبتة وطنجة ، إلى البرغواطين اللذين ذكرنا ، وقد كان إدريس جعل ابنه عندهما فى حضانتهما ، فلما وصل إليهما أظهرا تعظيمه ومخاطبته بالخلافة ، إلا أنهما حجباه حجابًا شديداً ولم يدعا أحداً من الناس يصل إليه ، فتلطف قوم من أكابر البربر حتى وصلوا إليه ، وقالوا له : إن هذين العبدين قد غلبا عليك ، وحالا بينك وبين أمرك ، فأذن لنا نكفكهما ؛ فأبى ، ثم أخبرهما بذلك ، فنفيا أولئك القوم ، وأخرجا إدريس بن يحيى وبعثا به إلى الأندلس ، وتمسكا بولده لصغره ، إلا أنهما فى كل ذلك يخطبان لإدريس بالخلافة .

ثم إن محمد بن إدريس أنكر من أخيه الملقب بالسامى أمراً ، فنفاه إلى العُدوة ، فصار فى جبال غمارة ، وهى بلاد تنقاد لهؤلاء الحسنيين ، وأهلها يعظمونهم تعظيماً مفرطاً .

---

(١) خرج من الحكم سنة ٤٣٨ هـ ومات سنة ٤٤٧ هـ .

ثم إن البرابرة خاطبوا محمد بن القاسم[1] الكائن بالجزيرة الخضراء ، واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر، فاستفزه الطمع وخرج إليهم ، فبايعوه بالخلافة ، وَتَسَمَّى بالمهدى ، وصار الأمر فى غاية الأخلوقة[2] والفضيحة : أربعة كلهم يتسمى بأمير المؤمنين ، فى رقعة من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً فى مثلها .

فأقاموا معه أيامًا ثم افترقوا عنه إلى بلادهم ، ورجع محمد[3] خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأيام ، فقيل : إنه مات غمًّا ، وترك نحوًا من ثمانية ذكور .

فتولى أمر الجزيرة بعده ابنه القاسم بن محمد بن القاسم ، إلا أنه لم يَتَسَمَّ بالخلافة .

وبقى محمد بن إدريس [المهدى] بمالقة إلى أن مات سنة ٤٤٥[4] .

وكان إدريس بن يحيى المعروف بالعالى[5] عند بنى يفرن بتاكرونة ، فلما توفى محمد بن إدريس بن يحيى [المهدى] ردت ، العامة إدريس العالى إلى مالقة واستولى عليها ، وهو آخر من ملكها من الحسنيين[6] .

فلما مات[7] أجمع البربر على رأيهم فى نفى الحسنيين عن الأندلس إلى العدوة والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد ، ففعلوا ذلك وتم لهم وما أراد وما منه .

كانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى إلى تاكرونة ، ومالقة وما وما والاها أيضاً إلى

---

(١) أبوه القاسم بن حمود الذى ولى الخلافة قبل ابن أخيه يحيى المعتلى وتلقب بالمأمون ، وكان محمد هذا مقيمًا بالجزيرة منذ خروجه من إشبيلية ودورة الدائرة على أبيه . انظر ص ٥٠ ـ ٥٢ .

(٢) كذا بالأصل ، ويظن دوزى أنها محرفة عن« الأضحوكة » ولا داعى لهذا الظن .

(٣) يعنى محمد بن القاسم .

(٤) فى نفح الطيب أن وفاته كانت سنة ٤٤٤ .

(٥) هو ممدوح أبى زيد الأشبونى السابق ذكره .

(٦) يروى المقرى أن إدريس بن يحيى العالى لم يكن آخر أمرائهم ، فقد بويع من بعده ولده محمد بن إدريس ولقب بالمستعلى ، ثم سار إليه باديس بن حيوس سنة ٤٤٩ فتغلب على مالقة وسار محمد المستعلى هذا إلى ألمرية مخلوعاً ، ثم استدعاه أهل المغرب إلى مليلة وبايعوه سنة ٤٥٦ فظل إلى أن مات سنة ٤٦٠ . .

(٧) كانت وفاته سنة ٤٤٧ هـ .

حصن منكب وغرنـاطة وأعمالها ، فى ملك البربر ، وملكـوا مع ذلك بعض أعمال إشبيلية ، كحصن أشـونة ، وقـرمونـة ، وشَلَّبر : ولم يـزالوا كـذلك إلى أن أخـرج من أيديهم مـا كانـوا يملكـونه من أعمال إشبيليـة المتعضد بـاللـه أبو عمـرو عبـاد بن محمد بن إسماعيل بن عبـاد اللخمى ، ثم أتم ابنه أبو القاسم المعتمد على الله ما ابتدأه أبوه من ذلك .

وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلق بهما ، حسبما أورده أبـو عبد الله محمد بن أبى نصر الحميدى ، عليـه عوَّلت فى أكثر ذلك ، ومن كتابـه نقلت ، خلا مواضع تبينت غلطـه فيها أصلحتُها جهد ما أقدر .

وعلى الله قصد السبيل ، وهو المسئول فى الهداية قولاً وعملاً .

فصـــل

يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدولة الأموية عنها على الإجمال لا على التفصيل

وأما حال سـائر الأندلس بعد اختلال دعـوة بنى أمية ، فإن أهلها تفرقـوا فرقًا ، وتغلب على كل جهـة منهـا متغلب ، وضبط كل متغلب منهم مـا تغلب عليـه ، وتقسموا ألقـاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم تسمى بالمأمون ، وآخر تسمى بالمستعين ، والمقتدر ، والمعتصم ، والمعتمد ، والموفق ، والمتوكل ، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية ، وفى ذلك يقول أبو على الحسن بن رشيق .

ممـــا يـــزهـــدُنـى فى أرض أنـــدلسٍ ... سماع مُقتـــدرٍ فيهـــا ومعتضـــدِ

ألقـــابُ مملكـــةٍ فى غير مـــوضعهـــا ... كالهر يحكى انتفاخـا صولة الأسد !

وأنا ذاكر ـــ إن شاء الله ـ فى هذا الفصل أسماء هم والجهـات التى تغلبوا عليها ، على نحو ما شرطتُ مـن الإجمال ، إذ لكل منهم أخبار وسِير ووقائع لو بسطت القـول فيها خرج هـذا التصنيف عن حـد التلخيص إلى حيز الإسهـاب ، وأيضـاً فالـذى منعنى من استيفـاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم ، قلةُ ما صحبنى من الكتب ، واختلالُ معظم محفوظاتى .

[ملوك الطوائف]

فأولهم فى الربع الشرقى(1) ، رجل اسمه سليمان بن هود ، تلقب بالمؤتمن ، وتلقب ابنه بالمقتدر ، وتلقب ابنه بالمستعين(2) .

كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية(3) : طُرطُوشة(4) وأعمالها ، وسرقسطة(5) وأعمالها ، وأفراغة ، ولاردة ، وقلعة أيوب(6) .

---

(1) تقع البلاد الآتى ذكرها فى الشرق الشمالى لا فى الجنوب .

(2) كذا بالأصل ، وفى غيره من المراجع أن سليمان بن هود هذا تلقب بالمستعين ، وابنه بالمقتدر ، وابنه بالمؤتمن ، وهو أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود بن عبد الله بن موسى ، مولى أبى حذيفة الجذامى ، وجدهم هود هو الداخل إلى الأندلس .

(3) فى الأصل : الجنوبية .

(4) مدينة جليلة على نهر أبرة ، اسمها الرومانى درتوزه (Dertosa) استولى عليها العرب فى بداية الفتح ، ثم عاد الأسبان فملكوها ، فاسترجعها عبد الرحمن بن الحكم فى عهد أبيه الحكم بن هشام الربضى ، ولوجودها فى طرف بلاد المسلمين كان الخلفاء يجعلونها منفى لمن يرون إبعاده من أهل الفتنة ، ولما انحلت وحدة الدولة ونجم ملوك الطوائف ، صارت طرطوشة إمارة مستقلة يحكمها مولى من موالى بنى عامر اسمه نبيل الصقلبى ، ويحكم معها بلنسية ، وفى سنة 452 ثارت طرطوشة بأميرها هذا الصقلبى ، فلجأ إلى المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة ، ودخلت طرطوشة منذ ذلك اليوم فى طاعة بنى هود .

ثم كان استيلاء النصارى عليها فى منتصف شعبان سنة 543 ، وكان الذى استولى عليها هو ريموند بيرانجة صاحب برشلونة ، بمساعدة فرسان الهيكل الصليبيين وأساطيل بيزة وجنوة ، كما استولى فى السنة نفسها على أفراغة ولاردة ، وتقع أفراغة ولاردة مما يلى بطرطوشة نحو الشمال على ساحل بحر الروم .

(5) مدينة كبيرة على نهر أبرة ، ترتفع عن البحر نحو 184 مترًا ، تحدق بها البساتين ، فتحها العرب سنة 94 واتخذوها قاعدة من قواعدهم فى الأندلس ، وكان صاحب الأمر فيها لعهد بنى مروان أمير من بنى قصى ، وهى أسرة إسبانية دانت بالإسلام وكان منها أمراء وقواد فى جيش الدولة .

ثم توارثها بعد محمد بن لب آخر أمراء بنى قصى الإسبانى الأصل ، أمراء من بنى تجيب ، وبنو تجيب : أسرة عربية كانت تقيم بسرقسطة منذ أول الفتح .

فلما كانت أيام الفتنة ، وثب أبو أيوب سليمان بن محمد بن هود عامل لاردة على سرقسطة ، فاستخلصها لنفسه من بنى تجيب ، وجعلها حاضرة ملكه ، وتسمى أبو أيوب هذا بالمستعين ، وهذا مبدأ دولة بنى هود ، وتوفى المستعين فى سنة 438 ، فخلفه ابنه أحمد المقتدر سيف الدولة إلى سنة 474 ، وتسلسل الملك فى بنى هود إلى أن استولى النصارى على سرقسطة سنة 512 .

(6) مدينة من أعمال سرقسطة ، بالقرب من مدينة لبلة ، بنى قلعتها أيوب بن حبيب اللخمى ابن أخت موسى بن نصير الفاتح ، وإليه تنسب ، وكان سقوطها فى يد الإسبان أوائل القرن السادس .

هذا اليوم كلها بأيدى الفرنجة ، يملكها صاحب برشلونة ، لعنه الله ، وهى البلاد التى تسمى أرغن ، حد هذا الاسم آخر مملكة البرشنونى مما يلى بلاد إفرنسة

***

[ويجاور بنى هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز يكنى أبا مروان ، قديم الرياسة ، هو أحق ملوك الأندلس بالتقدُّم لشرف بيته ولا أعلم له لقبا ، كان يملك بلنسية وأعمالها(١)] .

***

وكان يلى الثغر رجل آخر يقال له : أبو مروان بن رزين ، كان يملك إلى أول أعمال طليطلة .

***

وكان الذى يملك طليطلة وأعمالها : الأمير أبو الحسن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن موسى بن ذى النون .

وأبو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رياسة وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدم ، تلقب بالمأمون ، كان أبوه إسماعيل هو الذى تغلب على طليطلة من قبل واستبد بملكها أول الفتنة

ولم يزل أبوالحسن هذا يملك طليطلة وأعمالها كما ذكرنا ، إلى أن أخرجه عنها الأدفنش لعنه الله(٢) ، استولى عليها النصارى فى شهور سنة ٤٧٨(٣) ، فهى قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا .

***

---

(١) إضافة من البيان فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى .

(٢) وهو ملك ألفونس السادس صاحب قشتالة .

(٣) وردت فى الأصل سنة ٣٧٦ .

وكـان يملك قـرطبة وأعمالها إلى أول الثغـر : جَهْـور بن محمـد بن جهور المتقـدم ذكـره ونسبه[1] إلى أن غلبـه عليها صـاحب طليطلـة إسماعيل بن ذى النـون والـد أبـى الحســن المذكور آنفا .

وكـان يملك إشبيليـة وأعمالها القــاضى أبـو القـاسم محمـــد بـن إسماعيل بن عبـاد اللخمى[2] ، تغلب عليها بعد أن أخرج عنها القاسـم بن حمـود وابنيه محمداً والحســن على ما سيأتى الإيماء إليه ـ إن شاء الله عز وجل .

***

كان يملك مالقة والجزيرة وغرناطـة وما والى ذلك : البربر بنو برزال الصنهــاجيون على ما قدمناه .

وتغلب على ألمرية وأعمالها زهير العـامرى الخادم ، ثم ملكها بعده خيران العـامرى أيضا الخادم ، ثم تغلب عليها بعدهما أبـو يحيى محمد بن معن بن صمادح المتلقب بالمعتصم ، فلم يزل فيها إلى أن أخرجه عنها يوسف بن تاشفين اللمتونى فى شهور سنة ٤٨٤ .

***

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهـد العامرى ، أصـــله رومـــى مولى لأبى عـامر محمد بن أبى عـامر ، ثم ملكهـا بعـده ابنه على بن مجاهـد وتلقب بـالموفق ، لا أعلم فى المتغلبين على جهات الأندلس أصونَ منه نفسًا ولا أطهر عـرضًا ولا أنقى ساحة ، كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها ، وكـان مؤثراً للعلـوم الشرعية مكرمًـا لأهلهـا ، تــوفى قبل فتنة المرابطين بيسير ، لا أتحقق [من] تاريخ وفاته[3] .

***

---

(١) انظر : البيان ٥٧ .
(٢) انظر: البيان ٥١ .
(٣) ظل على بن مجاهد يلى أمر دانية حتى غلبه عليها المقتدر صاحب سرقسطة ٤٦٨ هـ .

وكان يملك الثغر الذى من الجهة المغربية[1] من الأندلس وبعض المدن المجاورة للبحر الأعظم : ابن الأفطس المتلقب بالمظفر ، ذهب عنى اسمه[2] ، ثم كان له ابن اسمه عمر ، يكنى أبا محمد ، تلقب بالمتوكل على الله ، كان يملك بطليوس وأعمالها ، ويابرة ، وشنترين ، والأشبونة .

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه ، على نحو الاختيارات للروحى ، وعيون الأخبار لأبى محمد ابن قتيبة ، جاء هذا الكتاب فى نحو من عشرة أجزاء ضخمة وقفت على أكثره ، ترجمه « المظفرى » .

وكان لابنه المتوكل قدم راسخة فى صناعة النظم والنثر ، مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة ، وكان لا يُغب الغزو ولا يشغله عنه شىء ، واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين ، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً : ضربوا أعناقهم فى غرة سنة ٤٨٥ .

وكانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم ، وكانوا ملجأ لأهل الآداب ، خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم ، وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، من أهل مدينة يابرة ، قصيدته الغراء ، لا بل عقيلته العذراء ، التى أزرت على الشعر ، وزادت على السحر ، وفعلت فى الألباب فعل الخمر ، فجلَّت عن أن تسامى ، وأنفت من أن تضاهى ، فقلَّ لها النظير ، وكثر إليها المشير ، وتساوى فى تفضيلها وتقديمها باقل وجرير ، فلله هى من عقيلة خدرٍ قربت بسهولتها حتى أطمعت ، وبعُدت حتى عزّت فامتنعت ، أوردتها فى هذا المصنف وإن كان فيها طول مخرج عن الحد الذى رسمته ، مُخل بالتلخيص الذى شرطته : لصحة مبانيها ، ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها ، سلك فيها أبو محمد ـ رحمه الله ـ طريقة لم يُسبق إليها ، وورد شرعةً لم يُزاحم عليها ، فذلك قل مثلها لا بل عُدم ، وعز نظيرها فما تُوُهِّمَ ولا عُلم ، وهى :

---

(١) وردت فى المطبوع الشمالية .

الـــدهـــر يفجع بعـــد العين بـــالأثـــر ... فما البكـــاءُ على الأشبـــاح والصـــور

أنهاك أنهاك لا آلُـــوكَ مـــوعظـــةً ... عن نـــومـــةٍ بين نـــاب الليث والظفـــر

فـــالـــدهـــر حـــربٌ وإن أبـدى مُســـالمةً ... والبِيضُ والسـودُ مثـل البيض والسُّمـر

ولا هُـــوادة بين الـــرأس تأخـــذه ... يـــدُ الضرابِ وبين الصـــارم الـــذَّكـــر

فـــلا تغُـــرنك مـن دنيـــاك نـــومتُهـــا ... فما صنـــاعـــةُ عينيهـــا سـوى السهـــرِ

مـــا لليـــالى ـــ أقـال اللـــه عثـــرتنـــا ... من الليـــالى وخـــانتهـــا يـــد الغِير

فى كـل حينٍ لها فى كل جـــارحـــةٍ ... منـــا جـــراحٌ وإن زاغت عن النظـــر

تسُر بـــالشىء لكـن كى تُغـــرَّ بـــهِ ... كـــالإيم ثـــار إلى الجانـى من الـــزهـــر

كم دولـــةٍ وليت بـــالنصرِ خـــدمتهـــا ... لم تُبق منها ـ وسـل ذكراك ـ من خبر(١)

هـــوت بـــداراً وفلت غـــرب قـــاتلـــه ... وكـــان عَضبـــاً على الأمـلاكِ ذا أُثـــر(٢)

واسترجعت من بنى ســاسان مـا وهبت ... ولم تـــدع لبنى يـــونـــان من أثـــرِ(٣)

---

(١) الضمير هنا أيضًا يعود على الليالى . والمعنى : كم دولة هيأت لها الليالى أسباب النصر والتأييد ، ثم كرَّت عليها فسلبتها كل ما منحت ولم تُبق لها خبراً .

(٢) دارا : ملك من ملوك الفرس ، قالوا : إنه لبث فى الملك ثلاثين سنة ، ثم قتله الإسكندر، والفل : الكسر ، والغرب : الحد ، والعضب : السيف ، والأملاك : جمع ملك ، والأثر ضم الهمزة ، والثاء : فرند السيف ، والمعنى : أن الليالى سقطت بدارا عن عرشه ، وكان على أعدائه من الملوك سيفاً قاطعا ، ثم لم تبق على قاتله فحطمت سيفه وجرعته منيته . وقد تغلب الإسكندر على سائر ملوك عهده ، وبسط سلطانه على أكثر المعمور ، ومات وله من العمر بضع وثلاثون سنة !

(٣) بنو ساسان : الأكاسرة من ملوك فارس ، حكموها بعد ملوك الطوائف إلى عهد الفتح العربى ، وكانت مدة حكمهم أربعة قرون ونصف قرن .

وألحقت أختهـــا طسماً ، وعـــاد على … عـــادٍ وجـرهُم منهـــا نـــاقِضُ المرر (١)

ومـــا أقـــالت ذوى الهيئـــات من يمنٍ … ولا أجـارت ذوى الغـايـات من مُضر (٢)

ومـــزقـت سبأ فى كـل قـــاصيـــةٍ … فما التقـى رائحٌ منهـم بمُبتكـــرِ

وأنفـــذت فى كُليبٍ حُكمهـــا ورمت … مُهلهـــلاً بين سمـع الأرضِ والبصرِ

ولم تَـــردَّ على الضليلِ صحتـــه … ولا ثنـت أســـداً عـن ربها حُجُـــرِ

ودوَّخـت آل ذُبيـــان وإخـــوتهُم … عبســـاً ، وغصت بنى بـدرٍ على النهـر

وألحقت بعـــديّ بـــالعـــراق على … يـــد ابنـــه أحمر العينين والشعَـــر

وأهلكت إبـــرويـــزاً بـــابنـــه ورمت … بيـــزد جُـــرد إلى مـــروٍ فلم يحُرِ

وبلغتُ يـــزد جُـــرد الصين واختـــزلت … عنـــه سـوى الفُـرس جمع الترك والخزر

ولم تـــرد مـــواضى رستـمٍ وقنـــا … ذى حـاجبٍ عنـــه سعـداً فى ابنـة الغيرِ

---

(١) طسم ، وأختها جديس : من قبائل العرب البائدة ، كان موطنها باليمامة ، ولهما خبر مشهور فى تاريخ الجاهلية ، فقد كان ملك القبيلتين رجلاً من طسم اسمه عملوق ، وكان غشومًا ظالماً منقاداً لشهواته ، مجترئاً على حرمات الناس ، وكـانت جديس تلقى من شره مالا طاقة لأحد به ، فأجمعت أمـرها ـ بتدبير امـرأة منهـــا اسمهـــا عفيرة ـــ على الفتـك بـــه ، فكـــان مـن ذلك إبـــادة طسم وجـــديس .
و « عاد » التى ورد ذكرها فى البيت : هى التى عنـاها الله سبحانـه بقوله : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية** ﴾ .
« وأمـا جرهم » فقبيلـة من بنى يعرب بن قحطـان ، هاجـرت من اليمن إلى الحجاز انتجـاعا للـرزق ، وأصهر إليهم إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، وقد كثر عديدهم فى الحجاز حتي صاروا ذوى قوة وســـلطان ، ثم بغوا وضلـوا فأبادهم اللـه وأذهب ريحهم . والمرر بكسر الميم : جمع مرة ، وهـى القوة وشدة الخلق ، وناقض المرر : هو الدهر ، لأنه لا يدع ذا قوة على قوته!

(٢) كـانت الـريـاسة والملك وتـرف الحضـارة فى اليمن ، وكـان المضريـون من أهل الشمال أصحـاب مثل وغايات وأهداف بعيدة ، ولأمر ما كان محمد بن عبد الله ـ صلوات الله عليه ـ مضريًا ، ولكن الليالى لم تبق على أحد من هؤلاء ولا من أولئك !

يــوم القليب بنُـو بـدرٍ فنـوا وسعى ... قليبُ بــدرٍ بمـن فيــه إلى سقـر

ومــزقت جعفـراً بــالبيض واختلست ... من غيلـــةِ حمزة الظــلام للجــزُر

وأشرفت بخُبيـبٍ فـــوق فـــارعــةٍ ... وألصقت طلحــة الفيــاض بــالعفـرِ

وخضبت شيـب عثمان دمـــاً وخطت ... إلى الـــزبير ولم تستحيِ من عُمـر

ولا رعت لأبـى اليقظـــان صُحبتــه ... ولم تـــزوده إلا الضيـح فى الغُمُــر

وأجـــزرت سيف أشقـاهـا أبـا حسنٍ ... وأمكنـت من حُسينٍ راحتـى شَمِــرِ

وليتهـا إذ فــدت عمــراً بخــارجـةٍ ... سمرٍ فدت عليـا بمن شـاء ت من البشر

وفى ابن هنـدٍ وفى ابن المصطفى حسنٍ ... أتت بمعضلـــةِ الألبـــاب والفكـــر

فبعضنــا قــائل مــا اغتـالــه أحـدٌ ... وبعضنــا ســاكتٌ لم يـؤت من حصر

وأردت ابن زيـــادٍ بـــالحسين فلم ... يبـؤ بشسْعٍ لــه قـد طـاح أو ظفُـر

وعممت بــالظبى فــودى أبـى أنسٍ ... ولم تـردَّ الـــردى عنــه قنــازٌ فـر

وأنـــزلت مُصعبــاً من رأس شــاهقـةٍ ... كــانت بها مهجـــة المختـــار فى وزر

ولم تـــراقب مكـــان ابن الـــزبير ولا ... راعت عيــاذتـــه بـــالبيت والحجـــر

وأعملـت فى لطيـم الجنِّ حيلتهـــــا ... واستـوسقت لأبى الــذبـان ذى البخـر

ولم تـدع لأبى الـــذِّبَّـان قــاضبــه ... ليـس اللطيمُ لها عمـــــرو بمنتصر

وأحـرقت شلـو زيـدٍ بعـد مـا احترقت ... عليــه وجـداً قلـــوب الآى والســور

وأظفـرت بــالـوليـد بن اليـزيـد ولم ... تُبقَ الخلافـــة بين الكاس والــوتـــر

حبـــابـــةٌ حَبُّ رمـــانٍ أتيح لها ... وأحمر قطـــرتـــه نفحـــة القطـــر

ولـم تعـــد قضـب السفــاح نــائيــةً ... عن رأس مــروان أو أشيـاعـــه الفُجُـر

وأسبلت دمعة الروح الأمين على ... دم بفخ لآلِ المصطفى هَدر

وأشرقت جعفراً والفضل ينظره ... والشيخُ يحيى بريق الصارم الذكر

وأخفرت في الأمين العهد ، وانتدبت ... لجعفر بابنه والأعبُد والغُدر

وما وفتْ بعُهُود المستعين ولا ... بما تأكد للمعتزِّ من مرر

وأوثقت في عُراها كل مُعتمدٍ ... وأشرقتْ بقذاها كل مُقتدِر

وروَّعت كل مأمونٍ ومؤتمنٍ ... وأسلمت كل منصورٍ ومنتصر

وأعثرت آل عبادٍ لعاً لهم ... بذيل [زَبَّاءَ] ولم تنفر من الذُّعر

***

بنى المظفر والأيام لا نُزلتْ - ... مراحلٌ ، والورى منها على سفر

سُحقاً ليومكم يوماً ولا حملت ... بمثله ليلةٌ في غابر العُمُر

من للأسرَّةِ أو للأعنَّة ، أو ... من للأسنة يُهديها إلى الثغر

من للظبى وعوالى الخط قد عُقدت ... أطراف أسنتها بالعى والحصر

وطوقت بالمنايا السود بيضُهُم ... فأعجب لذاك وما منها سوى الذكر

من لليراعة أو من للبراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر

أو دفع كارثةٍ أو ردع آزفةٍ ... أو قمع حادثةٍ تعيا على القُدر

ويب السماح وويب البأس لو سلما ... وحسرةُ الدين والدنيا على عُمر

سقت ثرى الفضل والعباس هامية ... تُعزى إليهم سماحاً لا إلى المطر

ثلاثة ما رأى السعدان مثلهم ... وأخبر ولو عززا في الحوت بالقمر

ثلاثةٌ ما ارتقى النسران حيث رقُوا ... وكل ما طار من نسرٍ ولم يطر

ثـلاثـةٌ كـذوات الـدهـر منـذ ناوا — عنى ، مضى الدهر لم يربع ولم يُحر

ومـر من كل شيء فيه أطيبه — حتى التمتع بالآصال والبُكر

أين الجلال الذى غضت مهابته — قُلوبنا وعُيون الأنجمِ الزهر

أين الإباء الذى أرسوا قواعده — على دعائم من عز ومن ظفر

أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه — فلم يرد أحدٌ منها على كدرِ

كانوا رواسى أرض الله ، منذ مضوا — عنها استطارت بمن فيها ولم تقَر

كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت — هذى الخليقة يالله فى سدرِ

كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خُدع — منه بأحلام عاد فى خطى الحضر

ويلمه من طلوب الثأر مدركه — منهم بأسد سراة فى الوغى وصُبُر

من لى ولا من بهم إن أظلمت نُوب — ولم يكن ليلُها يُفضى إلى سحر

من لى ولا من بهم إن عُطلت سنن — وأخفيت ألسن الآثار والسير

من لى ولا من بهم إن أطبقت محنٌ — ولم يكن وردها يدعو إلى صدرِ

على الفضائل إلا الصبرَ بعدهم — سلامُ مرتقبٍ للأجرِ منتظرِ

يرجو عسى وله فى أختها أملٌ — والدهر ذو عُقبٍ شتى وذو غُيرِ

قرطت آذان من فيها بفاضحةٍ — على الخسان حصى الياقوت والدررِ

سيارةٍ فى أقاصى الأرض قاطعةٍ — شَقَاشِقاً هدرت فى البدوِ والحضر

مُطاعةِ الأمرِ فى الألبابِ قاضيةٍ — من المسامع ما لم يُقض من وطر

***

وكان أبو محمد هذا[1] يكتب للمتوكل على اللـه ، ونمت حاله معه ، وهـو أحد كُتاب المغرب ، وممن جمع منهم فضيلتى الكتابة والشعر ، على أنه مُقل من النظم ، ولم يثبت له منه إلا يسير بالنسبـة إلى غزارة آدابه ونباهـة قدره ، وسيمر من مختـار رسائله فى موضعـه من هذا الكتاب ما يدل على ما وصفناه به .

حكى عن نفسه ـ رحمه الله ـ أنه كان بين يدى مؤدبه ، وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة ، فعن للمؤدب أن قال :

*** الشعرُ خُطةُ خَسفِ ***

وجعل يردد هذا القول . قال الوزير أبو محمد ـ رحمه الله : فكتبت فى لوحى مجيزاً له :

*** لكـل طـالب عُرفِ ***

ثم خطر لى بيت ثان وهو :

للشيـخ عيبـة عيـب ــــــ وللفتـى ظـرفُ ظـرفِ

قال : فنظر إلىّ المؤدب وقـال : ياعبد المجيـد ، ما الذى تكتب ؟ فأريتـه اللوح فلما رآه لطمنى وعرَك أذنى وقال : لا تشتغل بهذا ! وكتب البيتين عنده .

ومن غزارة حفظـه ـ رحمه الله ــ ما حدّث الـوزير الأجلُّ أبـو بكر محمد ابن الـوزير أبى مروان عبد الملك بن أبى العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر ـ وكان أبو بكر هذا قد مـات عن سـن عالية ، نيف على الثمانين ـ قال :

« بينا أنـا قاعد فى دهليـز دارنا وعندى رجل نـاسخ أمرته أن يكتب لى كتـاب الأغانى ، فجاء الناسخ بالكراريس التى كتبهـا ، فقلت له : أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل معك

---

(١) المقصود به ابن عبدون .

به قال : ما أتيت به معى ، فبينما أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذُّ الهيئة ، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف ، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها ، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية ، فسلم وقعد وقال لى : يابنى ، استأذن لى على الوزير أبى مروان ، فقلت له : هو نائم ، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف ، حملنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ، ثم سكت عنى ساعة ، وقال : ما هذا الكتاب الذى بأيديكما ؟ فقلت له : ما سؤالك عنه ؟ فقال : أحب أن أعرف اسمه ، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب ! فقلت : هو كتاب الأغانى ، فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت : بلغ موضع كذا . وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه ، فقال : وما لكاتبك لا يكتب ، قلت : طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق ، فقال : لم أجىء به معى ، فقال : يابنى ، خُذ كراريسك وعارض ، قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى ، قال : فتبسمت من قوله ، فلما رأى تبسمى قال : يابنى أمسك علىّ ، قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاء ، قرأ هكذا نحواً من كراستين ، ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره ، فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء .

« فاشتد عجبى ، وقمت مسرعًا حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل ، فقام كما هو من فوره ، وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص ، وخرج حاسر الرأس حافى القدمين لا يرفق على نفسه ، وأنا بين يديه ، وهو يوسعنى لوماً ، حتى ترامى على الرجل وعانقه ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول يامولاى اعذرنى ، فوالله ما أعلمنى هذا الجلف إلا الساعة ، وجعل يسبنى والرجل يُخفض عليه ويقول : ما عرفنى ، وأبى يقول : هبه ما عرفك فما عذره فى حُسن الأدب .

« ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً ، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب ، وأمر بدابته التى يركبها فأُسرجت ، وحلف عليه ليركبنّها ثم لا ترجع إليه أبدا .

« فلما انفصل قلت لأبى : من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم ؟ قال لى : اسكت ويحك ! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى علم الآداب ، هذا أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون ، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ، وما حفظه فى ذكاء خاطره وجودة قريحته ؟ »

سمعت هذه الحكاية من أبى بكر بن زهر ـ رحمه الله ـ حين دخلت عليه وقد وفد على مراكش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن أبى يوسف فى شهور سنة ٥٩٥ .

وأنشدنى الوزير أبو بكر المذكور فى هذا التاريخ لنفسه ـ بعد أن سألنى عن اسمى وعن نسبى فتسميت وانتسبت ، وتسمَّى لى هو ـ رحمه الله ـ وانتسب من غير استدعاءٍ ، تواضعاً منه وشرف نفس وتهذيب خُلق ، قدس الله روحه وسامحه :

لاح المشيبُ على رأسى فقلت له : الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا

ياساقى الكأس لا تعدل إلىّ بها فقد هجرت الحُميَّا والحميم معا !

وأنشدني ـ رحمه الله ـ وقال احفظ عنى :

إنى نظرتُ إلى المرآة إذ جُليت فانكرت مُقلتاى كل ما رأتا

رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى[1]

هذا ما أنشدنى لنفسه بلفظه ، رحمه الله ، وله شعر كثير أجاد فى أكثره ، وأما الموشحات خاصة فهو الإمام المقدَّم فيها ، وطريقته هى الغاية القصوى التى يجرى كل من بعده إليها ، هو آخر المجيدين فى صناعتها ، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد الموشحات فى الكتب المجلدة المخلدة لأوردت له بعض ما بقى على خاطرى من ذلك .

---

(١) ورد البيتان فى نفح الطيب .

[رجع القول إلى ملوك الطوائف]

ثم رجع بناالقول إلى ذكر أحوال الأندلس ، فهؤلاء الـرؤساء الذين ذكرنا أسماء هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها ، استبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات ، وانقطعت الدعـوة للخلافة وذكر اسمهـا على المنابر ، فلم يُذكـر خليفة أموى ولا هـاشمى بقطـر من أقطار الأنـدلس ، خـلا أيـام يسيرة دُعى فيها لهشـام المؤيـد بن الحكم المستنصر بمدينـة إشبيلية وأعمالها ، حسبما اقتصته الحيلـة واضطر إليـه التدبير ، ثم انقطع ذلك حسبما يأتى بيانه إن شاءالله تعالى فأشبهت حـال ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا .

ولم يزالـوا كذلك وأحـوال الأندلس تضعف وثغورهـا تختل ، ومُجاوروها من الـروم تشتد أطماعهم ويقـوى تشـوُّفهم ، إلى أن جمع اللـه الكلمـة ، ورأب الصـدع ، ونظم الشمل ، وحسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة الإسـلام ، وقطع طمع العدو ، بيُمن نقيبة أمير المسلمين وناصرالدين أبى يعقوب يوسف بـن تاشفين اللمتونى ، رحمه الله ، ثم استمر على ذلك ابنه علىّ ، وأعادا إلى الأنـدلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشهـا ، فكانت الأندلس فى أيامهما حرما آمنا ، وأول دعاء دُعى للخلافة العباسية ـ أبقاها الله ـ على منابر الأندلس فى أيـامهما ، ولم تزل الـدعوة العبـاسيـة وذكر خلفـائها على منـابـر الأندلس والمغـرب ، إلى أن انقطعت بقيام ابن تومرت مع المصـامدة فى بلاد السـوس ، عــلى ما يأتى بيـانه إن شاء الله عز وجل .

***

ملوك بنى عباد بإشبيلية

وإذا ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلبين عليهـا بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال ، فلنرجع إلى ذكر مملكة إشبيلية خصوصاً من جزيرة الأندلس وذكر من مَلكها ، فبذلك يتصل

نسق الأخبار عما نريده، ويتطرق لنا القول فيما نقصده ، لأن ملك إشبيلية هو كان السبب فى دخول يوسف بن تاشفين مع المرابطين الأندلس ، على ما سُيذكر إن شاء الله تعالى ، فنقول :

أما أحوال إشبيلية فإنها كانت فى طاعة الفاطميين ، أعنى : على بن حمود ، والقاسم بن حمود ، ويحيى بن على بن حمود : أيام كان الأمر دائراً بينهم على ما تقدم ذكره ، فلما زحف يحيى بن على بالبرابر إلى قرطبة ، وهرب القاسم بن حمودمنها وقصد إشبيلية ـ وقد كان ابناه محمد والحسن مقيمين[1] بها ـ اجتمع أمر أهل إشبيلية واتفق رأيهم على إخراج محمد والحسن عنها قبل وصول القاسم أبيهما ، فأخرجوهما ، وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضًا ، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم ، فتوارد اختيارهم بعد مخض الرأى وتنقيح التدبير ، على القاضى أبى القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى[2] ، لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله ، وسعة صدره ، وعلوّ همته ، وحسن تدبيره ، فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك ، فتهيب الاستبداد ، وخاف عاقبة الانفراد أولاً ، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً سماهم ، لكى يكونوا له أعوانًا ووزراء وشركاء ، لا يقطع أمراً دونهم ، ولايُحدث حدثًا إلا بمشورتهم ـ وهؤلاء المسمَّون هم : الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى ، ومحمد بن يريم الألهانى ، وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمى ، وأبو محمد عبد الله بن على الهوزنى ، فى رجال آخرين ذهبت عنى أسماؤهم إلا أنى أعرف قبائلهم و بيوتهم ـ ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد، ولم يزل يدبر أمر إشبيلية وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

---

(١) يعنى : ابنى القاسم .

(٢) كان قاضياً لمدينة إشبيلية ، أصله من لخم ، من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة ، وفد جده السابع ، واسمه نعيم ، إلى الأندلس ، وكان قبل ذلك مصريًا من أهل العريش ، فأقام بقرية بقرب تومين من إقليم طشانة من أرض إشبيلية . ومحمد بن إسماعيل هذا أول من نبغ من ولده ، فلما ولى قضاء إشبيلية أحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم ، فرمقته القلوب ، فلما كانت الفتنة وانقضى أمر يحيى بن على المستعلى ، ولاه أهل إشبيلية أمرهم .

وكان له من الولد إسماعيل ، وهو الأكبر ، يكنى أبا الوليد ، وعباد ، يكنى أبا عمرو ، فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل فى التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشبيلية ، بعسكر من جند إشبيلية ، فالتقى هو وصاحب صنهاجة ، فأسلمت إسماعيل عساكره وكان أول قتيل ، وقطع رأسه وسير به إلى مالقة ، إلى إدريس بن على الفاطمى كما تقدم(١).

وبقى الأمر كذلك ، والقاضى أبو القاسم يدبر الأمور أحسن تدبير ، وكان صالحًا مصلحًا ، إلى أن مات فى شهور سنة ٤٣٩ .

ولاية المعتضد بالله العبادى

ثم ولى ما كان يليه بعده من أمور إشبيلية وأعمالها ، ابنه أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، فجرى على سنن أبيه فى إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل ، مدة يسيرة ، ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده ، وكان شهمًا صارمًا حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء ، وواتته مع هذا المقادير ، فلم يزل يعمل فى قطع هؤلاء الوزراء واحدًا واحدا ، فمنهم من قتله صبراً ، ومنهم من نفاه من البلاد ، ومنهم من أماته خمولاً وفقرًا ، إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر ، وتلقب بالمعتضد بالله .

وقيل إنه ادعى أنه وقع إليه هشام المؤيد بالله ، ابن الحكم المستنصر بالله وكان الذى حمله على تدبير هذه الحيلة مارآه من اضطراب أهل إشبيلية ، وخاف قيام العامة عليه ، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بنى أمية بقرطبة كالمستظهر ، والمستكفى ، والمعتد ، فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة ، وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بنى أمية من يقيمونه ، فادعى ما ادعاه من ذلك ، وذكر أن هشامًا عنده بقصره ، وشهد له خواص من حشمه ، وأنه فى

---

(١) انظر : البيان المغرب ٦٣ .

صورة الحاجب المنفذ لأموره ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، فاستمر ذلك من أمره سنين ، إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته فى سنة ٤٥٥ ، واستظهر بعهدٍ عهده له هشام المذكور فيما زعم وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس .

ولم يزل المعتضد هذا يدوخ الممالك وتدين لـه الملوك من جميع أقطار الأندلس ، وكان قد اتخذ خُشبًا فى ساحة قصره جللها برءوس الملوك والرؤساء عوضًا عن الأشجار التى تكون فى القصور ، وكان يقول : فى مثل هذا البستان فليُتنزه .

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس ، كانوا يشبهونه بأبى جعفر المنصور من ملوك بنى العباس ، كان قد استوى فى مخافته ومهابته القريبُ والبعيد ، لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبراً ، كان سبب ذلك أن ولده المذكور - كان اسمه إسماعيل - كان يبلغه عنه أخبارٌ مضمونها استطالةُ حياته وتمنى وفاته ، فيتغاضى المعتضد ويتغافل تغافل الوالد ، إلى أن أدى ذلك التغافل إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلةً وتسوّر سورَ القصر الذى فيه أبوه ، فى عُبدانٍ وأراذل معه ، ورام الفتك بأبيه ، فانتبه البوابون والحرس ، فهرب أصحاب إسماعيل ، وأُخذ بعضهم فأقرّ وأخبر بالكائنة على وجهها ، وقيل : إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك وجعل لمن قتل أباه المعتضد جُعلاً سنويًا ، فالله أعلم ، فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه ، فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ .

وبلغنى أنه قتل رجلاً أعمى بمكة كان يدعو عليه بها : كان هذا الرجل من بادية إشبيلية ، كان المعتضد قد وضع يده على بعض مالٍ لهذا الرجل الأعمى ، وذهب باقى ماله حتى افتقر ، ورحل إلى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناوله حقًا فيه دنانير مطلية بالسم ، وقال : لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكة ، وسَلِمَ عليه عنّا ! فاتفق أن سلم الرجل ومعه الحُقُّ ، فحين وصل مكة لقى الأعمى ودفع إليه الحُق ، وقال : هذا من عند المعتضد ، فأنكر ذلك

الأعمى ، وقال : كيف يظلمني بإشبيلية ويتصدق عليّ بالحجاز ؟ فلم يزل الرجل يخفضه إلى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أول شيء فعله أن فتح الحق وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه فى فمه ، وجعل يقلب سائرها بيده ، إلى أن تمكن منه السم ، فما جاء الليل حتى مات ، فأعجب الرجل بقاصية المغرب يعتنى بقتل رجل بالحجاز .

وقتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشبيلية ، فرّ منه إلى طليطلة ، فكان يدعو عليه بها فى الأسحار ، مقدّراً أنه قد أمن غائلته إذا صار بمملكة غيره[1]، فلم يزل يعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه .

وكان أكبر من يناويه من المتغلبين المجاورين له وأشدهم عليه ، البربر : صُنهاجة وبنو برزال الذين بقرمونة وأعمالها من نواحى إشبيلية ، فلم يزل يصرِّف الحيلة تارة ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استنزلهم ، ففرّق كلمتهم وشتت منتظم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفت له أموره .

كان له عين بقرمونة يكتب له بأخبار البربر ، بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذى جعله عينًا له بقرمونة كتاباً فى بعض أمره ، أن استدعى رجلاً من بادية إشبيلية شديد البله كثير الغفلة ، وقال له اخلع ثيابك ، وألبسه جُبة جعل فى جيبها كتاباً وخاط عليه ، وقال له : إخرج إلى قرمونة ، فإذا وصلت بقربها فاجمع حُزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحاب الحطب ، ولا تبعها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم ، وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذى بقرمونة ، فخرج البدوى كما أمره المعتضد ، فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه ، فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد ، ووقف فى موقف الحطابين ، فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمته ، فإذا قال : لا أبيعها إلا بخمسة دراهم ، ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه ، فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل والناس يسخرون منه ، فبعضهم

---

(١) كان يحكم طليطلة فى ذلك الوقت بنو ذى النون .

يقول : هـذا آبنوس ! ويقـول الآخر : لا بل هو عـودٌ هندى ! وما أشبـه هذا ، حتى مـر به صاحب المعتضد ، فقال له : بكم تبيع حـزمتك هذه ؟فقال : بخمسة دراهم ! فقال : قد اشتريتها فـاحملها إلى البيت ، فقام يحملهـا والرجل بين يـديه حتى بلغ بيته ، فـوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهـم ، فلما أخذها وهم بالانصراف قال له : أين تـريد فى هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق ؟ فبت الليلة عنـدى ، فإذا أصبحتَ رجعت إلى منزلك ، فأجابه ، فأدخله إلى بيت وقـدم له طعامًـا ، وسأله كأنـه لا يعرفه : من أين أنت ؟ فقـال : أنا من باديـة إشبيلية ، قـال : ياأخى ، ما الـذى جاء بك إلى هـذا الموضع وقد علمت نكـد البربر وشؤمهم وهـوان الدماء عليهم ؟ فقـال : حملتنى على هذا الحاجة ! ولم يُظهر لـه أن المعتضد أرسله ، فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له : تجرَّد من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأروَح لجسمك ! فتجرد الرجل ونام ، وأخذ صـــاحب المعتضد الجبة ففتق جيبهـا ، واستخرج الكتـاب فقرأه وكتب جوابـه ، وجعله فى جيب الجبـة وخاط عليـه كما كان ، فلما أصبح الـرجل لبس جبتـه ، ورجع إلى إشبيلية وقصـد باب دار الإمـارة واستأذن ، فأدخل على المعتضد ، فقال لـه : اخلع تلك الجبة ، وكساه ثيابًـا حسنًا فرح بها البدوى ، وخـرج من عنده فرحًا يـرى أنه قد خلع عليـه ، ولم يعلم فيمَ ذهب ولا بم جاء ! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة وتمم ما أراد من أمره .

ولـه فى تدبيرملكـه و إحكام أمـره حيل وآراء عجيبة لم يُسبق إلى أكثـرها يطـول تعدادهـا ويخرج عن حد التلخيص بسطها .

ولما قتل ابنه إسماعيل ـ كما تقدم ـ وكان قد لقبه المؤيد ، عهد بعده ابنه أبو القاسم محمد ابن عبـاد بن محمـد بن إسماعيل بن عبـاد ، ولقبـه بالمعتمـد على اللـه ، فحسنت سيرة أبى القاسم هذا فى حياة أبيه و بعد وفاته .

[أولية المرابطين فى مراكش]

وفى إمارة المعتضد بالله هذا نزل لمتونة ومسوفة ـ قبيلتان عظيمتان البربر ـ رحبة مراكش ، فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد ، وكانت نزلوها غيضةً لا عُمران بها ، وإنما سُميت بعبدٍ أسود كان يستوطنها بجنب الطريق اسمه مراكش[1] ، فاستوطنها البربر كما ذكرنا ، وقدّموا عليهم رجلاً كان اسمه تاشفين بن يوسف .

وكان المعتضد فى كل وقت يستطلع أخبار العُدوة : هل نزل البربر رحبة مراكش ؟ وذلك لما كان يراه فى ملحمة كانت عنده أن هؤلاء القوم خالعوه أو خالعو ولده ومُخرجوه من ملكه ، فلما بلغه نزولهم جمع ولده وجعل ينفِّر إليهم مصعِّدًا ومصوِّباً ويقول : ياليت شعرى مَنْ تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم ؟ فقال له أبو القاسم من بينهم : جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكروه يريد أن يُنزله بك ! فكانت دعوةً وافقت المقدار .

وكان نزول لمتونة ومسوفة قبيلتى المرابطين رحبة مراكش ، فى صدر سنة ٤٦٣ ، وانفصالهم عنها جملةً واحدة فى وسط سنة ٥٤٠ ؛ فكانت مدة إقامتهم فى الملك منذ نزلوا رحبة مراكش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة ، نحواً من ست وسبعين سنة

ثم توفى المعتضد بالله فى شهر رجب من سنة ٤٦٤ ، واختُلف فى سبب وفاته ، فقيل : إن ملك الروم سمَّه فى ثياب أرسل بها إليه ، وقيل : إنه مات حتف أنفه ، فالله أعلم .

ولاية أبى القاسم ابن عباد المعتمد على الله

ثم قام بالأمر من بعده ، ابنه أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد ، وزاد إلى المعتمد على الله : الظافر بحول الله ، وكان المعتمد هذا يشَّبه بهارون الواثق بالله من

---

(١) ويروى ابن خلكان أن « مراكش » معناها « امش مسرعاً » بلغة المصامدة ، موضعها مأوى للصوص ، وكان المارون فيه يقولون لرفقائهم هذه الكلمة ، فعرف الموضع .

ملوك بنى العباس ، ذكاء نفس وغزارة أدب ، وكان شعره كأنه الحلل المنشَّرة ، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب مالم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ، وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم إليه ، وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى ، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة ، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة ، وفى الجملة فلا أعلم خصلة يُحمد فى رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم ، وضرب له فيها بأوفى سهم ، وإذا عُدَّت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت فالمعتمد هذا أحدُها ، بل أكبرها .

ولى أمر إشبيلية بعد أبيه ، وله سبع وثلاثون سنة ، واتفقت له الخلافة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه فى شهر رجب الكائن فى سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته إلى أن خُلع وأُسر : عشرين سنة ، كانت له فى إضافتها مآثر أعيا على غيره جمعها فى مائة سنة أو أكثر منها ، كانت له رحمه الله فى تخليد الثناء وإبقاء الحمد .

[عبد الجليل بن وهبون الشاعر]

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مُرسية اسمه عبد الجليل وهبون ، كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل إلى دقيق المعانى وأنشد يومًا بين يدى المعتمد رحمه الله بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد وهما :

قلَّ الوفاء فما تلقاه فى أحدٍ	**ولا يمرُّ لمخلوقٍ على باله**
وصار عندهم عنقاء مُغربةً	**أو مِثلَ ما حدَّثوا عن ألفِ مثقاله**

فاعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد الجليل وهبون أحد خدم مولانا ! فقال المعتمد عند ذلك : هذا والله اللؤم البحت رجلٌ من خُدامنا والمنقطعين إلينا يقول : « أومثل ما حدّثوا عن ألف مثقاله ، وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدوثة ؟ وأمر له بألف مثقال ، فلما دخل عليه يتشكر له قال له : يا أبا محمد ، هل عاد الخبرُ عِيانًا ؟ قال : إى والله يا مولاى ، ودعا له بطول البقاء ، فلما همّ بالانصراف قال له : يا عبد الجليل الآن حدِّث بها لا عنها ، يعنى الألف مثقال(١) .

وله رحمه الله شعر كثير(٢) برّز فى أكثره وأجاد ما أراد ، وسيمر منه فى أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز ، عند ذوى التمييز ، فمما أختاره من شعره قوله :

علّل فؤادك قد أبلَّ عليلُ ... واغنم حياتَك فالبقاءُ قليلُ

لو أن عمرك ألفُ عامٍ كاملٍ ... ما كان حقًّا أن يقالَ طويلُ

أكذا يقودُ بك الأسى نحو الردَى ... والعُود عودٌ والشمول شمول

لا يستبيك الهمُّ نفسك عنوةً ... والكأسُ سيفٌ فى يديك صقيل

بالعقل تزدحمُ الهمومُ على الحشا ... فالعقلُ عِندى أن تزولَ عُقولُ !

ومن شعره السيار ، لا بل الطيار ، قوله فى مملوكٍ له صغير كان يتصرف بين يديه ، أهداه له صاحب طليطلة ، اسم المملوك سيف :

---

(١) ربما سنة ٢٧ .

(٢) كان ابن وهبون صديقًا لابن عمار ، فلعله هو الذى أنشد المعتمد من شعره ووصل به حبله حتى صار من جلسائه . وقد حكى المقرى أن ابن وهبون كان يوما فى مجلس المعتمد وهو ينشد قول المتنبى فى سيف الدولة مُستَحسنًا :

إذا ظفرت منك العيون بنظرة ... أثاب بها مُعيى المطى ورازمه

سمَّوه سيفاً وفى عينيه سيفان — هذا لقتلى مسلولٌ وهذانِ

أما كفتْ قتلةٌ بالسيف واحدةٌ — حتى أتيح من الأجفان ثنتانِ

أَسرتُه وثنانى غُنجُ مُقلته — أسيره ، فكلانا آسرٌ عانى

ياسيفُ أمسكْ بمعروفٍ أسير هوى — لايبتغى منك تسريحاً بإحسان !

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح ، الذى حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، قوله فى هذا المملوك وقد عذر :

تم لـه الحسنُ بالعذار — واقترن الليلُ بالنهارِ

أَخضر فى أبيض تبدَّى — ذلك آسى وذا بهارِى

فقد حوى مجلسى تمامًا — إن كان من ريقِه عُقارى

وبينما هو يومًا فى قُبة له يكتب شيئاً ، أو يطالع ، وعنده بعض كرائمه ، فدخلت عليه الشمس من بعض الكُوى الكائنة فيها ، فقامت دونه تستره من الشمس ، فقال رحمه الله بديهاً :

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتُها — عن ناظرى ، حُجبتْ عن ناظرِ الغيرِ

علماً لعمرك منها أنها قمر — هل تكسفُ الشمس إلا صورةُ القمرِ !

(=) فقال ابن وهبون مرتجلاً :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما — تُجيد العطايا ، واللُّها تفتح اللَّها

تنبَّأ عُجباً بالقريض ، ولو درى — بأنك تروى شعره لتألها !

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس فى يدها ، إذ لمع البرق فارتاعت ، فقال رحمه الله بديهاً :

ريعت من البرقِ وفى كفها — برقٌ من القهوةِ لماعُ
عجبتُ منها وهى شمسُ الضحا — كيف من الأنوار ترتاعُ !

وله مع هذا مقاطع حسان يرتجلها فى مجالس أُنسه ولاستدعاء خاصة جلسائه ، منعنى من استيفائها قلةُ ما على خاطرى منها .

وسيمر من شعره الذى قاله فى أيام محنته مايفجر الصم ، ويزعزع الشم ، وكان لايستوزر وزيرًا إلا أن يكون أديبًا شاعراً حسن الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء مالم يجتمع لأحد قبله .

[أبو الوليد ابن زيدون]

فمن جملة وزرائه الوزير الأجلُّ ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن زيدون ، ذو الأدب البارع والشعر الرائع ، أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيراً ، وإذا مدح أزرى بزهير ، وإذا فخر أناف على امرىء القيس ، فمن جملة مقاطعه التى تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله :

بينى وبينك مالو شئت لم يضع — سِرٌّ إذا ذاعت الأسرارُ لم يذعِ
يابائعاً حظه منى ولو بُذِلتْ — لى الحياةُ بحظى منه لم أبعِ
يكفيك أنك إن حملت قلبى ما — لاتستطيع قلوب الناسِ يستطع
تِه أحتمل واستطل أصبر ، وعز أهنْ — ووَلِّ أقبل ، وقُل أسَمع ، ومُر أُطعِ !

وهو القائل ــ رحمه الله ـ يخاطب بنى جهور ، وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد ، لأن أصله من مدينة قرطبة ، فنالته منهم محنة ، فخرج عن قرطبة إلى إشبيلية وافداً على المعتمد ، فعلت رتبته عنده ، فكان يبلغه عن بنى جهور مايسوءه فى نفسه وقرابته بقرطبة ، فقال يخاطبهم :

بنى جهورٍ أحرقتُمو بجفائكم ... فؤادى ، فما بال المدائح تعبقُ

تعدُوننى كالعنبرِ الورد إنما ... تفوح لكم أنفاسُه حين يُحرقُ

ومن نسيبه الذى يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة ، قصيدته التى قالها يتشوق ابنة المهدى « ولادة »[1] ، وهى بقرطبة وهو بإشبيلية .

[أضحى التنائى بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لُقيانا تجافينا]

بنتم وبنا فما ابْتلتْ جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا

حالت لِفقدكمُ أيامُنا فغدت ... سُوداً وكانت بِكم بيضاً ليالينا

إذ جانبُ العيشِ طلقٌ من تآلفنا ... وموردُ اللهوِ صافٍ من تصافينا

وإذا هصرنا غصونَ الأنسِ دانيةً ... قُطوفُها فجنينا منه ما شينا

ليُسق عهدُكمُ عهدُ السرورِ فما ... كُنتم لأرواحنا إلا رياحينا

من مُبلغٌ مُلبسينا بانتزاحهم ... حُزنًا مع الدهر لا يبلى ويُبلينا :

إن الزمان الذى مازال يُضحكنا ... أنساً بقُربهمُ قد عاد يُبكينا !

---

(١) وردت على هامش المخطوطة .

غيظ العدى من تساقِينا الهوى فدعوا ... بأنْ نغصَّ فقال الدهرُ آمينا

فانحل ماكان معقوداً بأنفِسنا ... وانبتَّ ماكان موُصولاً بأيدينا

وقد نكونُ ومايُخشى تفرقُنا ... فاليوم نحنُ ومايُرجى تلاقينا

[ماحقنا أن تُقروا عين ذى حسدٍ ... بنا ، ولا أن تسروا كاشحاً فينا

ياليت شعرى ولم نُعتب أعاديكم ... هل نال حظا من العُتبى أعادينا

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأياً ولم نتقلدْ غيره دينا

كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضُه ... وقد يئسنا فما لليأسِ يُغرينا]

ياسارِى البرق غَادِ القصرَ فَاسْقِ به ... من كان صِرفَ الهوى والودَّ يسقينا

[واسأل هنالك هل عينى تُذكرنُى ... إلفاً تذكرهُ أمسى يُعنينا]

ويانسيم الصبَا بلغ تحيتنا ... من لو على البُعد حيا كان يحيينا

[من لايرى الدهر يقضينا مساعفة ... فيه وإن لم يكن عنا يقاضينا]

***

[وبيتِ مُلكٍ كأن الله أنشأه ... مِسكا وقد أنشأ الله الورى طينا]

أو صاغه ورقاً محضاً وتوَّجه ... من ناصع التِّبر إبداعاً وتحسينا

إذا تأود آدتهُ رفاهية ... تُدمى العقول وأدمتْهُ البُرى لينا

كأنما نبتت فى صحن وجنته ... زُهر الكواكب تعويذاً وتزيينا

ماضر أن لم نكن أكفاء ه شرفًا ... وفى المودة كافٍ من تكافينا

***

لاتحسبوا نأيكم عنا يُغيرنا إذ طال ماغير النأىُ المحِبينا

والله ماطلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولاانصرفت عنكم أمانينا

[ولااستفدنا خليلاً عنك يشغلنًا ولااتخذنا بديلاً منك يُسلينا]

ياروضةً طال ماأجنت لواحظَنا ورداً جناه الصبا غضا ونسرينا

وياحياةً تملؤنا بزهرتها مُنى ضُروباً ولذاتٍ أفانينا

[ويانعيًما حضرنا من غَضارته فى وشيِ نُعمى سحبنا ذيلها حينا]

لسنا نُسميك إجلالاً وتكرمةً فقدرُكِ المعتلِى عن ذاك يُغنينا

إذ انفردت فما شُوركتِ فى صفةٍ فحسبك الوصف إيضاحاً وتبيينا

ياجنة الخُلد أُبدلنا بسلسلها والكوثرِ العذبِ زقُوماً وغسلينا

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا والسعد قد غض من أجفان واشينا

سرَّان فى خاطر الظلماء يكتُمنا حتى يكاد لسانُ الصبحِ يُفشينا

[لاغرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت عنه النهى ، وتركنا الصبر ناسينا]

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سُورًا مكتوبةً وأخذنا الصبر تلقينا

[إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء ففى مواقف الحشر نلقاكم ، ويكفينا

أما هواك فلم نعدل بمنهله شرباً وإن كان يُروينا فيُظمينا

لم يخف أُفقُ جمالٍ أنت كوكبُه سالين عنهُ ، ولم نهجُره قالينا

ولا اختياراً تجنبناكِ عن كثبٍ لكن عدتنا على كُرهٍ عوادينا

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة فيها الشمول وغنَّانا مغنينا

لا أكؤُس الراح تُبدى من شمائلنا سيما ارتياحٍ ولا الأوتارُ تُلهينا

دُومى على العهدِ ، مادُمنا مُحافِظةً فالحر من دانَ إنصافاً كما دِينا

فما ابتغينا خليلاً مِنك يَحبسُنا ولااستفدنا حبيباً عنك يُغنينا

ولو صبا نحونا من عُلوِ مطلعه بدرُ الدجا لم يكن حاشاكِ يُصبينا

أولى وفاءً وإن لم تبذلى صلةً فالذكرُ يُقنعنا والطيفُ يكفينا

وفى الجواب قناعٌ لو شَفعتِ به بيضَ الأيادى التى مازالت تولينا

عليك منى سلام الله مابقيت صبابة منك تخفيها فتخفينا]

أوردتها على الاختيار لا على النسق ، ولعلى فى كثير مما تركت منها أحسن مما أوردت ، وإنما منعنى من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص ، ومن شعره رحمه الله ، مما قاله فى مدة صباه :

أخذت ثُلثَ الهوى غصباً ولى ثُلُثُ ... وللمحبِّين فيما بينهم ثُلُثُ

تالله لو حلف العشاقُ أنهمو ... موتى من الوجد يوم البين ماحنثُوا

قوم إذا هُجروا من بعد ماوُصلوا ... ماتوا ، فإن عاد من يهوونه بُعثوا

ترى المحبين صرعى فى عراصهم ... كفتية الكهف مايدرُون مالبثوا

ومما قال رحمه الله يتشوق ابنه المهدى المذكور ومعاهده بقرطبة ، وضمنها بيت أبى الطيب فى أول قصيدته الكافورية :

« بمَ التعلل لا أهلٌ ولا وطن ... ولانديمٌ ولاكأسٌ ولاسكنُ » !

قصيدة أولها :

هل تذكرون غريباً عادهُ شجن ... من ذكركم وجفا أجفانه الوسنُ

يُخفى لواعجه والشوق يفضحه ... فقد تساوى لديه السرّ والعلن

ياويلتاهُ ! أيبقى فى جوانحهِ ... فُؤاده وهو بالأطلال مرتهنُ

وأرق العين والظلماء عاكفة ... ورقاء قد شفها ، أو شفنى ، حزنُ

فَبِتُّ أشكو وتشكو فوق أيكتها ... وبات يهفو ارتياحًا بيننا الغُصنُ

يا هل أُجالسُ أقواماً أحبهمُ ... كنا وكانوا على عهدٍ فقد ضغنُوا

أو تحفظون عهوداً لا أضيعها ... إن الكرام بحفظِ العهدِ تُمتحن

ومنها :

إن كـــان عـــادكم عيـــدٌ فَــرُبَّ فتى ... بــالشوق قـد عــاده من ذكركم حــزنُ
وأفـــردتـــه الليـــالى من أحبتـــه ... فبـات ينشـدُهـا ممـا جنى الـزمنُ :
« بــم التعلـــلُ لا أهـــلٌ ولا وطـــن ... ولانـــــــديم ولاكـأسٌ ولاسكـنُ »

[أبو بكر بن عمار]

ومنهم الوزير أبو بكر محمد بن عمار ، ذو النفس العصامية ، والآداب الأهتمية ، كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبى القاسم محمد بن هانىء الأندلسى(١) ، وربما كان أحلى منزعاً منه فى كثير من شعره ، ولشعره ديوان يدور بين أيدى أهل الأندلس ، ولم أُلفِ أحداً ممن أدركته سنى من أهل الآداب الذين أخذتُ عنهم إلا رأيته مقدمًا له مؤثراً لشعره ، وربما تغالى بعضهم فشبهه بأبى الطيب ، وهيهات !

---

(١) هو أبو الحسن محمد بن هانىء الأزدى ، من ولد المهلب ابن أبى صفرة ، كان أبوه يقيم فى المهدية بالمغرب ، ثم نزح إلى الأندلس فى أيام الحكم المستنصر والمنصور ابن أبى عامر ، فولد له محمد هذا فى إشبيلية ، وحصل له حظ وافر من الأدب ، ومهر فى الشعر ، وكانوا يعدونه فى المغرب كالمتنبى فى المشرق ، وكانا متعاصرين . . .

وكان ابن هانىء غالياً فى مدائحه ، فاتُّهِمَ بالكفر وساء فيه رأى الناس ، حتى اضطر إلى الهجرة ، واتصل بالمعز لدين الله العبيدى ، ومات فى ظروف غامضة سنة ٣٦٢ ولم يزل شابًّا فى عنفوانه ! .

فمن قصائده المشهورة التى أجاد فيها ماأراد : قصيدته التى كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد ـ لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه ـ وهى :

عَلى ، وإلا مـــابكـــاء الغمائم ... وفىَّ ، وإلا مـــانيـــاحُ الحمائمِ

وعنى أثـار الـرعـدُ صرخـة طـالبٍ ... لثأرٍ وهـز الـرق صفحـةَ صـارم

ومـالبستْ زُهـر النجـوم حـدادهـا ... لغيرى ولاقـامت لـــه فى مـآتِمِ

وفى هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

[إذا ركبـوا فـانظُـره أول طـاعن ... وإن نـزلـوا فـارصـده آخـر طـاعم]

أَبَى أن يـــراه اللـــه إلا مُقلـــدًا ... حميلـــةَ سيفٍ أو حمالـــة غـــارمِ

ومن جيد نسيبه قوله فى قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

جـاهُ الهوى ـ فـاستشعـروه ـ عـارُه ... ونعيمُـه ــ فـاستعـذبـوه ــ أوارهُ !

لاتطلبـــوُا فى الحُب عـــزًّا إنما ... عُبـــدانُـــه فى حُكمـــه أحـــرارُه

قـــالـــوا أضر بك الهوى فـأجبتُهم ... يـــاحبـــذاه وحبـــذا إضرارهُ

قلبى هـــو اختـار السقـام لجسمـه ... زيًّـــا ، فخلـــوه ومـــايختـــاره

عيَّرتمونى بـــالنحـــول وإنما ... شرف المهنَّـــدِ أن تـــرقَّ شفـــارهُ

وشمتـمُ لفـــراق من آلفتُـــه ... ولـــــربما حجـب الهلال سرارهُ

أحسبتم السلـــوان هبَّ نسيمُـــه ... أو أن ذاك النـــوم عـــاد غـــراره

إن كـان أعيا القلبُ من حـرب الجوى ... خـذلتـه من دمعى إذن أنصـارهُ

مـن قـدٍّ قلبى إذ تثنـى قـده ... وأقــام عُـذرى إذ أطل عـذارُه

أم من طـوى الصبح المنير نقـابُـه ... وأحـاط بـالليـل البهيم خمارُه

غُصنٌ ولكن النفـوس ريـاضُـه ... رشـأ ولكن القلـوب عـرارُهُ

سخـرتْ ببـدرِ التـم غـرتُـه كما ... أزرت على آفـاقِـه أزرارُه

مـازال ليل الـوصل من فتكـاتـه ... تسرِى إلىَّ بعـرفِـهِ أسحـاره

ويجود روض الحسن من وجنـاتـه ... دمعى فينـدى رنـدُه وبهارُه

حتى سقـانى الـدهـر كأس فـراقِـه ... فسكـرتُ سُكـراً لايُفيق خُماره

ووقفت فى مثـلِ المحصب مـوقفـا ... للبين مـن حب القلـوب جِمارُه

حيران أعمى الطـرف وهـو سماؤه ... وأذاب فيـه القلب وهـو قـرارُه

ولئن يُـذِبْـهُ وهـو مثـواه فكم ... قـد أحـرقت عُـود العفـارة نـارُه

إن يهنـهِ أنى أضعـتُ لِحُبـه ... قلبـى وذاعـت عنـده أسراره

فليهن قلبى أن شكـاه وشـاحُـه ... لسـواره فـاقتصَّ منـه سـوارُه !

فـوحُسنِـه لقـد انتـدبتُ لـوصفـه ... بـالبُخـلِ لـولا أن حِمصـاً دارهُ

بلـد رمتنى بـالمُنـى أغصـانُـه ... وتفجـرتْ لى بـالنـدى أنهارُه

ولابن عمار هذا مع المعتمد أخبار عجيبة عُنى بجمعها أهل الأندلس ، وأنا إن شاء الله مُورد منها مالايخل بالشرط الذى التزمته ، ولايخرج عن الحد الذى رسمته ، حسبما بقى على خاطرى من ذلك ، لأنى كنت فى حداثة سنى قد صرفتُ عنايتى إلى أخبار ابن عمار هذا مع المعتمد ، لما تضمنته من الآداب ، وقد فتشت خزانة حفظى فلم أُلفِ فيها إلا نبذة يسيرة ، وأنا مُوردها إن شاء الله عز وجل .

فابن عمار هذا هو محمد بن عمار ، يكنى أبا بكر ، أصله من شلب ، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس ، مولده ومولد آبائه بها ، كان خامل البيت ليس له ولا لأسلافه فى الرياسة فى قديم الدهر ولا حديثه حظ ولا ذكر فيهم بها أحد ، ورَدَ مدينة شلب طفلاً فنشأ بها ، وتعلم علم الأدب على جماعة ، منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم ، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ، ومهر فى صناعة الشعر ، فكان قصاراه التكسب به ، فلم يزل يجول فى الأندلس مسترفداً لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لايبالى ممن أخذ ولامن استعطف من مَلكٍ أو سُوقة ، وله فى ذلك خبر ظريف :

وذلك أنه ورد فى بعض سفراته شلب ، لا يملك إلا دابة لا يجد علفها ، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه ، فرآها ابن عمار من أَجَلِّ الصلات وأسنى الجوائز ، ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به البخت ، وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها أول ماأفضى الأمر إليه ، فدخلها ابن عمار فى موكب ضخم وجملةِ عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يُظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، فكان أول شيء سأل عنه ، الرجل صاحبه صاحب الشعير ، فقال : ماصنع فلان ، أهو حىّ ؟ قالوا : نعم ، فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم ، وقال لرسوله : قل له : لو ملأتها بُراً لملأناها تبرا .

ولم يزل ابن عمار على الحال التى ذكرناها ، من التقلب فى بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف ، إلى أن ورد على المعتضد بالله أبى عمرو ، فامتدحه بقصيدته المشهورة التى أولها :

أدرِ الزجاجةَ فالنسيمُ قد انبرى ... والنجمُ قد صرف العِنان عن السرى

والصبحُ قد أهدى لنا كافورَه ... لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد :

عبـــادٌ المخْضر نـــائلُ كفــه ... والجو قـــد لبس الـــرداء الأغبرا

فــداحُ زنـــدِ المجـــدِ لاينفكُ من ... نـــارِ الـــوغى إلا إلى نـــار القِــرى

يختـــارُ أن يهب الخريـدة كـــاعبــا ... والطـرف أجـرد والحســـام مُجوهـرا

وفى هذه القصيدة يقول فى وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيتْ بسيفك أُمــــةٌ لم تعتقـــد ... إلا اليهـــود وإن تسمـــوا بـــربـــرا

أثمــــرت رُمحك من رءوس كماتهم ... لما رأيـت الغصن يُعشـقُ مُثمـــــرا

وخضبت سيفك من دمـــاءِ نحُـورِهم ... لما عهِـــــدت الحسن يُلبـس أحمرا

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدم ولامتأخر بمثله ، وهو قوله :

السيف أفصـحُ من زيـــادٍ خُطبـــة ... فى الحرب إن كـــانت يمينُـك منبرا

ولما أنشد المعتضد هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومركب ، وأمر أن يُكتب فى ديوان الشعراء ، فكـان كذلك ، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهـو إذ ذاك شاب ، فلم تزل حالُه معه تتـزايد ، ومواتُّ خدمته له تقوى وتتأكد ، إلى أن صـار ابنُ عمار ألزق بالمعتمد من شعـرات قصه ، وأدنى إليـه من حبل وريده ، كـان المعتمد لا يستغنى عنـه ساعـةً من ليل ولانهار .

ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله « شلب » من قبل أبيه ، فاستوزر ابن عمار هذا فى تلك الولاية ، وسلم إليه جميع أموره ، فغلب عليه ابن عمار غلبة شديدة ، وساءت السمعة عنهما

. . . فاقتضى نظر المعتضد التفريق بينهما ، ونفى ابن عمار عن بلاده حسبما تقدم الإيماء إليه : فلم يزل ابن عمار مغترباً فى أقاصى بلاد الأندلس ، إلى أن توفى المعتضد بالله ، فاستدعاه المعتمد ، وقربه أشد تقريب ، حتى كان يشاركه فيما لايشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه .

وله معه أيام كونهما بشلب خبر عجيب ، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أُنسه ، على ما كانت العادة جارية به ، إلا أنه فى تلك الليلة زاد فى التحفى به والبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه ، لتضعَن رأسك معى على وسادة واحدة ! فكان ذلك .

قال ابن عمار : فهتف بى هاتف فى النوم يقول : « لاتغتر أيها المسكين ، إنه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : فانتبهت من نومى فزعا ، وتعوذت ، ثم عدت ، فهتف بى الهاتف على حاله الأولى ، فانتبهت من نومى فزعًا وتعوّذت ، ثم عدت ، فهتف الهاتف على الحال الأولى ، فانتبهت ، ثم عدت فسمعته ثالثة فانتبهت فتجردت من أثوابى والتففت فى بعض الحصُر ، وقصدت دهليز القصر مستخفيًا به ، وقد أزمعت على أنى إذا أصبحت خرجت مستخفيًا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ، فانتبه المعتمد فافتقدنى ولم يجدنى ، فأمر بطلبى ، فطلبت له فى نواحى القصر ، وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ، فكان هو الذى وقع علىّ ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فُتح ، فوقف بإزاء الحصير الذى كنت فيه ، فكانت منى حركة فأحس بى ، وقال : ماهذا الذى يتحرك فى هذا الحصير ؟ ثم أمر به فنفض فخرجت عُريانًا ما علىّ إلا السراويل ! فلما رآنى فاضت عيناه دموعًا وقال : ياأبا بكر ، ما الذى حملك على هذا ؟ فلم أر بُدًا من أن صدقته ، فقصصت عليه قصتى من أولها إلى آخرها ، فضحك وقال : ياأبا بكر ، أضغاث أحلام ، هذه آثار الخمر ، ثم قال لى : وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى إلا كنفسى ؟ فتشكر له ابن عمار ودعا له

بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه ، ومرت على ذلك الأيام والليالى ، إلى أن كان من أمره ماسيأتى الإيماء إليه ، فصدقت رؤيا ابن عمار ، وقتل المعتمد نفسه كما قال ! .

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد كما ذكرنا ، سأله ابن عمار ولاية شلب ، وهى كانت بلدة ومنشأة كما تقدم ، فأجابه المعتمد إلى ذلك وولاه إياها أنبه ولاته جعل إليه جميع أمورها ، خارجها وداخلها ، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه ، وضعُف عن احتمال الصبر عنه ، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد .

ولم يزل المعتمد يُعده لكل أمر جليل ، ويؤهله لكل رتبة عالية ، وكان ابن عمار مع هذا لا يُناط به أمرٌ إلا اضطلع به وكان فيه كالسكة المحماة ، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذُكر عنده ابن عمار قال : هو رجل الجزيرة ! وكان ابن عمار هو الذى ردَّه عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالها ، وذلك أنه خرج فى جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعا فيها ، فخافه الناس ، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعبًا منه ، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه ، فتولى ابن عمار ردَه بألطف حيلة وأيسر تدبير ، وذلك أنه أقام سُفرة شطرنج فى غاية الإتقان والإبداع ، ولم يكن عند ملك مثلها ، جعل صورها من الآبنُوس والعود الرطب والصندل ، وحلاها بالذهب ، وجعل أرضها فى غاية الإتقان ، فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى الأدفنش ، فلقيه فى أول بلاد المسلمين ، فأعظم الأدفنش قدومه وبالغ فى إكرامه ، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة فى حوائجه ، فأظهر ابن عمار تلك السفرة ، فرآها بعض خواص الأدفنش ، فنقل خبرها إليه ، وكان العلج - أعنى الأدفنش - مولعًا بالشطرنج ، فلما لقى ابن عمار سأله : كيف أنت فى الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية ، فأخبره بمكانه منه ، فقال له : بلغنى أن عندك سفرة فى غاية الإتقان ! قال ابن عمار : نعم ، فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتنى فهى لك وإن غلبتك فلى حُكمى ! فقال له الأدفنش : هلمها لننظر إليها ، فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وُضعت بين يدى العلج

صلب وقال : ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! ثم قال لابن عمار : كيف قلت ؟ فأعاد عليه الكلام الأول ، فقال له الأدفنش : لا ألعب معك على حكمٍ مجهول لا أدرى ما هو ، ولعله شيء لا يمكننى ! فقال ابن عمار : لا ألعب إلا على هذا الوجه ! وأمر بالسفرة فطويت ، وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجالٍ وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش ، وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ، ففعلوا فتعلقت نفس العلج بالسفرة ، وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوّنوا عليه وقالوا له : إن غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها ، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم ؟ وقبحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه ، وقالوا له : إن طلب ابن عمار مالا يمكن فنحن لك بردّه عن ذلك ، ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة ، فقال له : قد قبلت ما رسمته ! فقال له ابن عمار : فاجعل بينى وبينك شهوداً أسماهم له ، فأمر الأدفنش بهم فحضروا ، وافتتحا يلعبان ، وكان ابن عمار - كما ذكرنا - طبقة بالأندلس ، لا يقوم له أحد فيها ، فغلب الأدفنش غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، لم يكن للعلج فيها مطعن ، فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار : هل صح أن لى حكمى ؟ قال : نعم ، فما هو ؟ قال : أن ترجع من هنا إلى بلادك ! فاسود وجه العلج وقام وقعد ، وقال لخواصه : قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه علىّ فى أمثال لهذا القول ، وهم بالنكث والتمادى لوجهه ، فقبحوا ذلك عليه ، وقالوا له : كيف يُحمل بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصارى فى وقتك ! فلم يزالوا به حتى سكن ، وقال : لا أرجع حتى آخذ إتاوة عامين خلاف هذه السنة ! فقال ابن عمار : هذا كله لك ! وجاءه بها أراد ، فرجع وكف الله بأسه ، ودفعه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين ، ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به .

ثم إن المعتمد حدث له أمل فى التغلب على مُرسية وأعمالها ، وهى التى تعرف بتُدمير[1] ، وكانت بيد أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، كان هو المتغلب عليها والمدبر

---

(١) تدمير : كورة فى شرق الأندلس قاعدتها مرسية ، وكان يحكمها قبل الفتح العربى أمير قوطى من قرابة لذريق اسمه ثيودمير (THIODMIR) وكان له مع العرب إبان الفتح قصة من أطرف قصص =

لأمرها ، فجهز المعتمد جيوشاً عظيمة ، وتكفل له ابن عمار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها ، فولاه ماتولى من ذلك ، وخرج ابن عمار حتى نزل على مرسية ، فأخذها وأخرج ابن طاهر عنها[1] ، فلحق ابن طاهر حين خرج من مرسية ببنى عبد العزيز ببلنسية[2] ، فكان بها إلى أن مات رحمه الله .

ولما تغلب ابن عمار على مرسية دار ملك بنى طاهر كما ذكرنا ، حدثته نفسه وسول له سوء رأيه أن يستبد بأمره ، وأن يضبط تلك البلاد لنفسه ، فلم يزل يصرف الحيلة فى ذلك إلى

(=) المقاومة ، وباسم هذا الأمير سمى العرب هذه الكورة ، وقيل بل سموها تدمير تشبيهاً لها بتدمر من بلاد الشام .

أما مرسية فمدينة مستحدثة بعد الفتح العربى ، بناها العرب فى زمن عبد الرحمن بن الحكم سنة ٢٠٩ للهجرة ، ثم ازدادت عمراناً وأصبحت من حواضر الأندلس فى زمن عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر (سنة ٣٠٠ إلى ٣٦٦) . ولما نشبت الفتنة وتمزقت وحدة الأندلس ، استقل بمرسية فتى من موالى المنصور ابن أبى عامر اسمه خيران الصقلبى ، وخلفه عليها بعد موته زهير الصقلبى العامرى أيضاً ، فظل يحكمها بضع سنين ، ثم نشبت معركة بينه وبين باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، حقت فيها الهزيمة على زهير ، ففر من وجه خصمه إلى حيث لا يعلم أحد ! وقام فى الأمر من بعده فى مرسية جماعة من أبناء البيوتات بها ، منهم الشيخ أبو بكر أحمد بن إسحاق ، وأبو بكر أحمد بن طاهر ، وغيرهما ، ثم صارت إمرتها لأحمد بن طاهر ، ثم من بعده لولده أبى عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وفى عهده بدا للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية أن يستولى عليها ويضمها إلى ملكه ، وكان شاعره ابن عمار على رأس الحملة ، ويقود جنده الأمير عبد الله بن رشيق ، فتغلب ابن عمار على المدينة ، وخلع أميرها ابن طاهر ، ثم بدا له أن يستولى عليها لنفسه ، وكان ابن عمار على ولاء مع الأدفونش السادس ملك قشتالة ، ولعله كان ينتظر منه معونة على ذلك ، ولكن . . ولكن الأمور سارت على غير ما أراد .

(١) يذكر بعض المؤرخين أن ابن عمار اعتقله فى قلعة مونت قوط ، ثم عاد فقتله ، ولكن الفتح بن خاقان يذكر فى القلائد أنه شهد وفاته سنة ٥٠٧ فى بلنسية وقد جاوز التسعين ، ويذكر إلى ذلك ما يفيد أنه كان فى وقت ما معتقلاً فى مونت قوط .

(٢) بلنسية : حاضرة من حواضر الأندلس الكبرى ، متصلة بالبحر والجبل ، وكانت قاعدة الحكم فى شرق الأندلس أيام بنى أمية ، فلما كانت الفتنة استقل بها صقلبيان من موالى المنصور ابن أبى عامر ، هما : مبارك ومظفر ، فتقاسما سلطنتها ، مات أولهما ، وثار الأهالى بالآخر فطردوه ، وبايعوا صقلبيا آخر من العامريين اسمه لبيب ، ثم آل أمر بلنسية إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن ، من أحفاد المنصور ابن أبى عامر ، فطالت مدته بها ، (انظر ص ٧٢) ثم خلفه المظفر بن عبد العزيز ، وهو الذى لجأ إليه ابن طاهر حين أخرجه ابن عمار عن بلنسية .

أن تم له بعضه ودانت له مرسيـة وأعمالها ، وطمع فى ملك بلنسية ، إلى أن قام عليه رجل من أهل مـرسية يقال لـه ابن رشيق ، كـان أبوه من عُـرفاء الجنـد بها ، وكان ابن عمار قـد خرج لبعض أمره ، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه ، وقامت معه العامة وبعض الجند ، فسمع ابن عمار بذلك ، فجـاء يركض حتى أتى المدينـة وقد غلقت أبوابها دونـه ، فحاصرهـا بمن معه أيامًا ، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخـولها ، فبقى حائراً لا يدرى ما يصنع ولا أين يتوجه ، وقد كان بلغ المعتمد قيامه وخلع يده من طاعته ، فلم ير إلا الهروب ملجأ ، فهرب حتى لحق ببنى هود بسرقسطة[1] ، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافـوا غائلته ، وبغضه فى عيونهم مافعل مع صاحبه وولى نعمته ، فأخرجوه عن بلادهـم .

ولم تزل البلاد تتقاذفه ، وملـوكها تشنؤه ، إلى أن وقع فى حصن من حصون الأندلس فى غاية المنعة يدعى شقورة[2] ، كان المتغلـب عليه رجلٌ يقـال له ابن مبـارك ، فأكرم وفـادته وأحسن نزله ، ثم بدا له بعد أيام . . فقبض عليه وقيده وجعله فى سجنه ، فلما رأى ابن عمار ذلك منه قال لـه : لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكونى عنـدك وتعرضنى عليهم ، فمامنهم إلا من يرغب فى ، فمن كـان أشدهم رغبة جعل لك مـالاً ووجهت بى إليه ! ففعل ابن مبارك ذلك ، فما عـرضه على أحدٍ من ملوك الأنـدلس إلا رغب فيه ، وكتب فيمن كتب إلى المعتمد . . .

وفى ذلك يقول ابن عمار :

أصبحت فى السـوق يُنـادى علىّ ... رأسى بأنـواعٍ مـن المال

واللـه مـا جـارَ على مـالـهِ ... من ضمنى بـالثمنِ الغـالى !

---

(١) كان حاكمها فى ذلك الوقت المؤتمن .

(٢) شقورة : حصن كالمدينـة ، عامر بأهله ، شمالى مرسيـة ، وهو رأس جبل عظيم متصل منيع الجهة ، ويخرج من أسفله نهران ، أحدهما النهر الكبير الذى يمر بقرطبـة ، والثانى هو النهر الأبيض الذى يمر ببلنسية ، قال ياقوت : وكان بها دار إمارة همشك .

وفى هـذا السجـن يقـول ابن عمار وقـد استرعـى نـورة يستنظف بها فتعـذرت عليـه ، فاستدعى مُوسى فأتى بها ، فقال فى ذلك :

بُـؤسى شقُـورة عنـدي ... أربـى على كـل بُـوسَـى

فقـدتُ « هـارون » فيهـا ... فظلـت أطلـبُ « مُـوَسـى » !

وبعث المعتمد على اللـه من رجاله من تسلم ابن عمار من يد ابن مبـارك ، بعد أن بعث إليه بمال وخيل ، وأمر المعتمد الذين تسلمـوا ابن عمار أن يزيدوا فى الاحتياط عليه وتقييده ، فخرجوا بـه حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فـدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسـوأه ، على بغل بين عدلى تبن ، وقيـوده ظاهـرة للناس ، وقـد كان المعتمـد أمر بإخـراج الناس خـاصـة وعامـة حتى ينظروا إليه على تلك الحال ، وقـد كان قبل هذا إذا دخل قـرطبة اهتزت لـه وخرج إليه وجوه أهلهـا وأعيانهم ورؤساؤهم ، فـالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام ، وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر إليه على بُعْدٍ لايستطيع الوصول إليه ، فسبحان مُحيل الأحوال ومُديل الدول !

فدخل ابن عمار قـرطبة كما ذكرنا ، بعـد العـزة القعساء والمُلك الشامخ ، والريـاسة الفارعـة ، ذليلاً خـائفًا فقيرًا لا يملك إلا ثوبـه الذى عليه ، فسبحـان من سلبه مـا وهبه ، ومنعه ما كان به أمتعه .

وأخبر بعض الموكلين به مـا اتفق لهم معه من فرط ذكـائه وسرعة فطنته ، قال : لما قـرُبنا من قرطبـة بحيث يرانا النـاس ، خرج فـارسٌ من البلد يركض يقصـدنا ، فلما رآه ابن عمـار - وكـان معتمًّا - أزال العمامـة عن رأسه ، فجـاء الفـارس حتى وصل إلينا ، فنظـر إلى ابن عمار ودخل معنا فى الصف فمشى ، فسألناه فيم جاء ؟ فقال : الذى جئتُ فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه ! فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته .

فأدخل على المعتمد على الله على الحالة التى ذكـرت ، يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعـدد عليه أيـاديه ونعمـه ، وابن عمار فى ذلك كله مطـرقٌ لاينبس ، إلى أن انقضى كـلام

المعتمد ، فكان من جواب ابن عمار أن قال : ما أُنكر شيئًا مما يذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته لشهدت عليَّ به الجمادات فضلاً عمن ينطق ، ولكنى عثرتُ فأقل ، وزللت فاصفح ! فقال المعتمد : هيهات ، إنها عثرة لا تقال ! وأمر بـه فأحدر فى النهر إلى إشبيلية ، فدُخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة ، وجُعل فى غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك ـ وهو باق إلى وقتنا هذا ـ فطال سجنه هناك .

كتبت عنه فى هذا السجن قصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع عن جوره ، أو إلى الفلك لكف عن دوره ، فكانت رُقى لم تنجع ، ودعوات لم تُسمع ، وتمائم لم تنفع ، فمنها قوله :

سجاياك إن عافيت أندى وأسجح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلى الأدنى من الله تجنح
حنانيك فى أخذى برأيك ، لاتُطع ... عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فإن رجائى أن عندك غير ما ... يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفتُ ودًّا وخدمة ... يكران فى ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقبتُ أعمال مُفسدٍ ... أمـا تفسدُ الأعمال ثُمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جُرمٍ سلكتُها ... بهبة رحمى منك تمحو وتُمصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم ... فكل إناء بالذى فيه يرشح
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى ... بزور بنى عبد العزيز موشح
وما ذاك إلا ما علمت فإننى ... إذا ثُبت لا أنفك آسو وأجرح
كأنى بهم لا در لله درُّهم ... وأشاروا تجاهى بالشمات وصرحوا
وقالوا سيجزيه فلانٌ بفعله ... فقلت وقد يعفو فلانٌ ويصفح !
ألا إن بطشاً للمؤيد يرتمى ... ولكن حلماً للمؤيد يرجُح
وماذا عسى الواشون أن يتزيَّدوا ... سوى أن ذنبى واضح متصحح
نعم لى ذنبٌ غير أن لحلمه ... صفاةٌ يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلامٌ كيف دار به الهوى ... إلىّ فيدنو أو علىَّ فينزح
ويهنيه ـ إن مُتُّ السلوُّ فإننى ... أموت ولى شوقٌ إليه مُبرح
وبين ضلوعى من هواه تميمةٌ ... ستنفع لو أن الحمامَ يجلِّح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه ، كان بحضرته رجل من البغداديين ، فجعل يُزرى على هذا البيت « وبين ضلوعى . . . » ويقول : ما أراد بهذا المعنى ؟ فكان من جواب المعتمد ـ رحمه الله ـ أن قال : أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء ، لما أعدمه الفطنة والذكاء ، إنما نظر إلى بيت الهُذلى من طرف خفى ، وهو :

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمةٍ لا تنفع !

ولم يزل ابن عمار هذا بسجن المعتمد ، إلى أن قتله صبراً فى شهور سنة ٤٧٩ .

وتلخيص خبر قتله ، أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التى تقدم إنشادها ، فأدركت المعتمد بعضُ الرقة ، فوجه إليه ليلاً وهو فى بعض مجالس أنسه ، فأتى به يوسف فى قيوده فجعل المعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قبله ، فلم يكن لابن عمار جواب ولا عذر ، غير أنه أخذ فى البكاء ، وجعل يترفق للمعتمد عِطفيه ويستجلب من الألفاظ كل ما يقدر أنه يزرع له الرأفة فى قلب المعتمد ، فتم له بعض ما أراد من ذلك ، وعطف المعتمد عليه سابقته وقديم حرمته ، فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضًا لا تصريحًا ، وأمر برده إلى محبسه ، فكتب ابن عمار من فوره بما دار له مع المعتمد إلى ابنه الراضى بالله ، فوافاه الكتاب وبحضرته قومٌ كانت بينهم وبين ابن عمار إحنٌ قديمة ، فلما قرأ الراضى الكتاب قال لهم : ما أرى ابن عمار إلا سيتخلص ، فقالوا له : ومن أين علم مولانا ذلك ؟ فقال : هذا كتاب ابن عمار يُخبرنى فيه أن مولانا المعتمد قد وعده بالخلاص ، فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره ، فلما قاموا من مجلس الراضى نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادوا فيه زيادات قبيحة صُنْت هذا الكتاب عن ذكرها ، فبلغ المعتمد ذلك ، فأرسل إلى ابن عمار وقال له :

هل أخبرت أحداً بما كان بينى وبينك البارحة ؟ فأنكر ابن عمار كل الإنكار ، فقال المعتمد للرسول : قل له : الورقتان اللتان استدعيتهما ، كتبت فى إحداهما القصيدة ، فما فعلت بالأخرى[1] ؟ فادعى أنه بيض فيها القصيدة ، فقال المعتمد : هلمّ المسودة ! فلم يجد جوابا ، فخرج المعتمد حَنِقاً وبيده الطبرزينُ حتى صعد الغرفة التى فيها ابن عمار ، فلما رآه علم أنه قاتله ، فجعل ابن عمار يزحف وقيوده تُثقله ، حتى انكبَّ على قدمي المعتمد يقبلهما ، والمعتمد لا يثنيه شيء ، فعلاه بالطبرزين الذى فى يده ، ولم يزل يضربه به حتى برد .

ورجع المعتمد فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك ، فهذا ماانتهى إلينا من خبر ابن عمار ملخصاً حسبما بقى على خاطرى .

رجع الحديث عن بنى عباد

ولم يزل المعتمد هذا فى جميع مدة ولايته والأيام تساعده ، والدهر على مايريده يؤازره ويعاضده ، إلى أن انتظم له فى ملكه من بلاد الأندلس مالم ينتظم لملك قبله ، أعنى من المتغلبين ، ودخل فى طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم ، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية ، وهى التى تعرف بتدمير ، بينها وبين إشبيلية نحو من اثنتى عشرة مرحلة ، وفى خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة .

---

(١) يلاحظ أن السجناء فى ذلك الوقت كان يؤذن لهم فى الكتابة وتهيأ لهم أسبابها ، فهل يحث مثل هذا اليوم فى بلاد كثيرة !

وقد ذكر ابن خاقان فى القلائد ، أن صاحب شقورة لما كان ابن عمار معتقلاً عنده ، كان يأذن له فى الكتابة إلى أصحابه ويأذن لهم فى زيارته ومسامرته ، وأثبت لنا من هذا الباب قصيدة ممتعة كتب بها ابن عمار إلى صديقه أبى الفضل ابن حسداى الشاعر ، يستزيره فى معتقله من حصن شقورة ويصف له بعض ماهو فيه !

وكان تغلبه على قرطبة وإخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١(١) ، ثم رجع إلى إشبيلية واستخلف عليها(٢) ولده عباداً ولقبه بالمأمون ، وهو أكبر ولد له فى حياة أبيه المعتضد ، وسماه عبادا ، فكان المعتضد يضمه إليه ويقول : ياعباد ، ياليت شعرى من المقتولُ بقرطبة ، أنا أو أنت ؟ فكان المقتول بها عبادًا هذا فى حياة أبيه المعتمد وفى السنة التى زال عنهم الملك فيها .

أول أمر المرابطين بالأندلس

ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين ، مستنصراً به على الروم(٣) ، فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء ، وأنزله أكرم نُزُل ،

---

(١) كانت قرطبة بعد زوال الخلافة عنها لبنى جهور ، فطمع المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة فى استخلاصها لنفسه ، فسير إليها جيشه ، ولم يكن ذلك بعيداً من تدبير ابن عباد ، فلما رأى عبد الملك بن جهور تهديد ملكه ، طلب إلى المعتمد بن عباد أن يعينه ، فوافى جيشه قرطبة ، ونزل بربضها الشرقى . ولم يتم للمأمون ما أراد ، فنزح عن قرطبة ، وخلا الجو بذلك لابن عباد ، فأحدق جيشه بقصر ابن جهور ، وقبض عليه وعلى إخوته ، وأخرجوه عن قرطبة ، ودخلت حاضرة الأندلس منذ ذلك اليوم فى ملك ابن عباد ، وصارت تابعة لإشبيلية ، وتولى أمرها الظافر ابن المعتمد ، ولكن إمارتها لم تخلص له طويلاً ، فقد كان أهلها مستمسكين بدعوة الخلفاء ، يأملون أن تعود مدينتهم حاضرة لخليفة من بنى مروان ، فلم تلبث أن ثارت على الظافر ، وكان ابن عكاشة على رأس الثائرين ، فبرز له الظافر ليلاً ، منفرداً عن جنده ، فلم يزل يدافع الثائرين ويدافعونه ، حتى سقط صريعاً ، وظل جسده ملقيًا على الأرض حيث سقط حتى مر بجثته قبيل الصبح أحد الأئمة المغلسين ، فخلع رداءه عن منكبيه وستره به ، وأذاع نبأ مصرعه . . .

وبلغ النبأ المعتمد فى إشبيلية فأوجعه ، ولكن فجيعته فى ولده لم تلهه عن التدبير لملكه ، فلم يزل يسعى حتى استأصل دعاة الفتنة ، وأخرج ابن عائشة عن قرطبة ، وجعل ولايتها إلى ولده المأمون خلفاً للظافر فلم يزل والياً عليها حتى قتله المرابطون يوم دخولهم قرطبة ! .

(٢) يعنى على قرطبة .

(٣) كان سبب ذلك أنه لما استولى الأدفنش سنة ٤٧٨ على طليطلة من يد القادر ابن ذى النون ، قوى سلطانه وعظم أمله فى الاستيلاء على إشبيلية وقرطبة وغيرهما من قواعد الأندلس فأجمع ملوك الطوائف ـ وكبيرهم ابن عباد ـ أن يستعينوا بيوسف بن تاشفين ملك الغرب ، فدعوه لنصرتهم ، على ما يراود نفوسهم من خوفه وما يتوقعونه من طمعه فى الاستئثار بملك الأندلس دونهم ، وقد كان ماتوقعوا وتوقع ابن عباد معهم ، وكانت نكبة المعتمد على يدى نصيرة الذى استجار به ، يوسف بن تاشفين .

وكما فعل ابن عباد ببنى جهور حين استعانوه لدفع المأمون ابن ذى النون عن قرطبة فنكبها واستخلصها لنفسه ، فعل يوسف بن تاشفين ببنى عباد .

وسأله عن حاجته ، فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيلٍ ورجُل ليستعين بهم فى حربه فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه ، وقال له : أنا أوّل منتدِب لنصرة هذا الدين ، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسى!

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه فى طلبه ، ولم يَدْرِ أن تدميره فى تدبيره ، وسَلَّ سيفاً يحسبه له ولم يدرِ أنه عليه ، فكان .

قال أبو فراس :

إذا كان غير الله للمرءِ عُدةً أتته الرزايا من وجوه الفوائد

كما جرت الحنفاء حتف حُذيفةٍ وكان يراها عُدةً للشدائد !

فأخذ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس ، وذلك فى شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فاستنفر من قدر على استنفاره من القُواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر ، فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس فى عدد كثير من الرَّجل ، فعبر البحر بعسكر ضخم ، وكان عبوره من مدينة سَبتة ، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وتلقاه المعتمد فى وجوه أهل دولته ، وأظهر من بره و إكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين ، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك ، فكان هذا أول ما أوقع فى نفس يوسف التشوفَ إلى مملكة جزيرة الأندلس .

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقى الأندلس ، وسأله المعتمد دخول إشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أيامًا حتى تزول عنه وعثاء السفر ثم يقصد قصده ، فأبى عليه وقال : إنما جئت ناوياً جهاد العدو ، فحيثما كان العدو توجهت وجهه .

وكان الأدفنش ـ لعنه الله ـ محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط ، فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصنِ راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر .

وتوجه يوسف المذكور إلى شرقى الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر ، والإصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق ، قد تقدم ذكره فى أخبار ابن عمار ، فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين ، على أن يخرج له ابنُ رشيق عن مرسية ، ويعوضه المعتمد عن ذلك مالاً جعله له ، ويوليه فى جهة إشبيلية ولاية ، فأجابه ابن رشيق إلى ذلك وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها .

ولقى يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه ، كصاحب غرناطة ، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرِية ، وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية .

وقعة الزّلّاقة

ثم إن يوسف المذكور استعرض جنده على حصن الرقة ، فرأى منهم ما يسره ، فقال للمعتمد على الله : هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو ، وجعل يُظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوق إلى مراكش ، ويُصغر قدر الأندلس ، ويقول فى أكثر أوقاته : « كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت دون الوصف ! » وهو فى ذلك كله « يُسر حسواً فى ارتغاء » فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة ، واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس .

وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات ، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدروا عليه من خيل ورجال وسلاح ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة زُهاء عشرين ألفا ، والتقوا هم والعدو بأول بلاد الروم .

وكان الأدفنش ـ لعنه الله ـ قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدع فى أقاصى مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه ، وجاء يجر الشوك والشجر ، وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تشوف البرابرة عن جزيرة الأندلس والتهيب عليهم ، فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدى إليه الإتاوة ، وهم كانوا أحقر فى عينه وأقل من أن يحتفل لهم !

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى ، رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيما هالهم ، من كثرة عددٍ ، وجودة سلاح وخيلٍ ، وظهور قوة ، فقال المعتمد : ما كنت أظن هذا الخنزير ـ لعنه الله ـ يبلغ هذا الحد !

وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويُذكرهم ، فظهر منهم من صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سُر به يوسف والمسلمون .

وكان ترائيهم يوم الخميس ، وهو الثانى عشر من شهر رمضان ، فاختلفت الرسل بينهم فى تقرير يوم الزحف ليستعد الفريقان ، فكان من قول الأدفنش ـ لعنه الله ـ : الجمعة لكم ، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكُتابنا وأكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم ، والأحد لنا ، فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف . وقصد ـ لعنه الله ـ مخادعة المسلمين واغتيالهم ، فلم يتم له ما قصد . . .

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال ، وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لاتغدر ، فخرج هو وأصحابه فى ثياب الزينة للصلاة ، فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم ، فركب هو وأصحابه شاكى السلاح ، وقال لأمير المسلمين : صَلِّ فى أصحابك ، فهذا يومٌ ماتطيب نفسى فيه ، وها أنا من ورائكم ، وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين .

فأخذ يوسف وأصحابه فى الصلاة ، فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت فى وجوههم الخيل من جهة النصارى ، وحمل الأدفنش ـ لعنه الله ـ فى أصحابه ، يظن أنه قد انتهز الفرصة ، وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس ، فأغنى ذلك اليوم غناء لم يُشهد لأحد من قبله ، وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل ، واختلط الفريقان ، فأظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات مالم يكن يحسبه المعتمد ، وهزم الله العدو ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم فى كل وجه ، ونجا الأدفنش ـ لعنه الله ـ فى تسعة من

أصحابه[1] ، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس ، أعز الله فيه دينه وأعلى كلمته ، وقطع طمع الأدفنش ـ لعنه الله ـ عن الجزيرة ، بعد أن كان يقدِّر أنها فى ملكه ، وأن رءوسها خدم له ، وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين .

وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة ، وكان لقاء المسلمين عدوهم ـ كما ذكرنا ـ فى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن فى سنة ٤٨٠[2] ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحًا لهم وبهم ، فسُر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به ، وكثر الدعاء له فى المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعًا فيها ، وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التَّلاف ، من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الإتاوة من ملوكها قاطبة ، فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود فى الصدور .

ثم إنه أحب أن يجول فى الأندلس على طريق التفرج والتنزه ، وهو يريد غير ذلك ، فجال فيها ونال من ذلك ما أحب ، وفى خلال ذلك كله يُظهر إعظام المعتمد وإجلاله ، ويقول مصرِّحًا : إنما نحن فى ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عند ما يحده .

[بين المعتصم ابن صمادح والمعتمد ابن عباد]

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظى عنده واشتد تقريب أمير

---

(١) لم يتفق مؤرخو هذه الوقعة فى تحديد عدد الناجين مع الأدفنش من عسكره ، وإن كانوا مجمعين على أن جيشه قد باد كله ، قادة وجنوداً ، إلا قلة لا يكاد يخطئها الإحصاء ، وأصيب الأدفنش نفسه فى إحدى ركبتيه إصابة لزمه أثرها ما بقى من حياته ! .

(٢) الثابت تاريخيا أن وقعة الزلاقة كانت وقعت سنة ٤٧٩ هـ .

المسلمين لـه : أبـو يحيى محمـد بن معن بـن صمادح المعتصم صـاحب ألمريـة(١) ، وكـان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد ، كثير النفاسـة عليه ، لم يكن فى ملوك الجزيرة من يناوئه غيره ، وربما كانت بينهما فى بعض الأوقات مراسلات قبيحة ، وكان المعتصم يعيبه فى مجالسه وينال منـه ، ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مـروءته ونـزاهة نفسه وطهـارة سريرتـه وشدة ملوكيته ، وقد كان المعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير ، توجه إلى شرقى الأندلس يتطوف على مملكته ويطـالع أحوال عماله ورعيتـه ، فلما دانى أول بلاد المعتصم ، خرج إليـه فى وجوه أصحابه ، وتلقاه لقاء نبيلا ، وعزم عليـه ليدخلن بلاده ، فأبى المعتمد ذلك ، ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا فى أول حدود بلاد المتعصم وآخر حدود بلاد المعتمد ، فكان ذلك واصطلحا فى الظاهر ، واحتفل المعتصم فى إكرامـه ، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس ماظنه مُكمـداً للمعتمد مثيراً لغمه ، وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خلقـه الكريم عنه وعصمه بفضلـه منه ، ثم افترقا بعد أن أقـام المعتمد عنده فى ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع المعتمد إلى بلاده ، وبإثر ذلك عبر إلى مراكش ، ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا ، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتُحف جليلة ، وتلطف فى خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشـد تقريب ، وكان يقول لأصحابه : هذان رجُلا هذه الجزيرة ! يعنى المعتصم والمعتمد ، وكان أكبر أسباب تقريب أمير المسلمين إيـاه ، ثنـاء المعتمـد عليـه عنـد أمير المسلمين ، ووصفـه إيـاه عنـده بكل فضل ، ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به .

ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين ، بدا لـه أن يسعى فى تغيير قلبه على المعتمد وإفساد مـابينهما ـ حسن لـه ذلك سوء رأيه ودنس سريـرته وضعف بصره بعـواقب الأمور ،

---

(١) ألمرية : مدينة على ساحل البحر الرومى ، كانت قاعدة الأسطول الإسلامى ، وكان بها خيران العامرى من ملوك الطـوائف ، ثم زهير من بعده ، فلما هلك زهير آلت إلى عبد العـزيز ابن أبى عامـر صاحب بلنسية ، وغلبه عليها غدراً صهره ووزيـره معن بن صمادح والد المعتصم المذكور ، فاستتبَّ له الأمر بها وأورثها خلفه المعتصم . . .

وليقضى الله أمراً كـان مفعولا ، وليبلغ القدر ميقاته ، وإذا أراد اللـه تمام أمر هيأ له أسبابًا ـ فشرع المعتصم فيما أراده من ذلك ، ولم يدر أنـه ساقط فى البئر الذى حَفَـرْ ، وقتيل بالسلاح الذى شَهَرْ ، فكان من جملة مـا ألقى إلى أمير المسلمين ، أن جعل يقرر عنده عُجب المعتمد بنفسه ، وفرط كِبره ، وأنه لا يرى أحداً كفؤاً له ، وزعم أنه قال له فى بعض الأيام ـ وقد قال له المعتصم : طـالت إقامـة هـذا الرجل بـالجزيرة ، يعنـى أمير المسلمين ـ : « لـو عوجت لـه إصبعى مـاأقام بها ليلـة واحدة هـو ولا أصحـابه : وكأنك تخاف غـائلته ، وأى شىء هـذا المسكين وأصحابه ؟ وإنما هم قوم كانوا فى بلادهم فى جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم إلى هذه البـلاد نُطعمهم حسبة وائتجارا فإذا شبعوا أخرجنـاهم عنها إلى بلادهم ! » إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم ، وأعانه على ذلك قومٌ من وجوه الأندلس ، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغيير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد .

وقد كـان أمير المسلمين ضرب لنفسه ولأصحـابه أجـلاً وحد لـه ولهم مدة يقيمـونها فى الجزيـرة لايـزيـدون عليهـا ، وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المعتمـد وتسكينًـا لخاطـره ، فلما انقضت تلك المدة أو قاربت ، عَبر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وغِرَ صدرُه وتغيرت نفسه .

ومـــا النفس إلا نطفـــة فى قـــرارة　　　إذا لم تكـدر كـان صفـواً غـــديـرهـا

هذا مع ما ذكرنا من طمعه فى الجزيرة وتشوفه إلى مملكتها ، وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها أنه غُير عليه !

نكبة بنى عباد

ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفى نفسه من أمر الجزيرة المقيمُ المقعد ، فبلغنى أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابـه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئًا ، فلما رأيت تلك البلاد ، صغُـرت فى عينى مملكتى ، فكيف الحيلـة فى تحصيلها ؟ فـاتفق رأيـه ورأى أصحابـه على أن

يراسلوا المعتمد يستأذنونه فى رجال من صُلحاء أصحابهم رغبوا فى الرباط بالأندلس ومُجاهدة العدو والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا ، وكتبوا إلى المعتمد بذلك ، فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحبُ الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قومٌ من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة فى بلادها ، فإذا كان أمرٌ من قيام بدعوتهم أو إظهارٍ لمملكتهم وجدوا فى كل بلد لهم أعوانًا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس ـ كما ذكرنا ـ قد أُشرِبت حب يوسف وأصحابه ، فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم ، وَأَمَّرَ عليهم رجلاً من قرابته يسمى بُلُجين وأسرَّ إليه ما أراده ، فجاز بُلُجلينُ المذكور ، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة فقال له : أين تأمرنى بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من يُنزله ببعض الحصون التى اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد ، وكان مبدؤها فى شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لطنجة من العُدوة ، دون مقدمةٍ ظاهرة توجب ذلك ، فتشعبت جموعه وأهواؤها ملتئمة ، وانتثرت بلاده وقلوب أهلها على محبته منتظمة .

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين ، انتشر ذلك فى الأندلس ، وزحف القوم الذى قدمنا ذكرهم ، الكائنون فى الحصون ، إلى قرطبة ، فحاصروها وفيها عُباد بن المعتمد الملقب بالمأمون ، وقد تقدم ذكره ، وهو من أكبر ولده ، فدخلوا البلد ، وقُتل عبادٌ هذا بعد أن أبلى عذراً ، وأظهر فى الدفاع عن نفسه جَلداً وصبرًا ، وذلك فى مستهل صفر الكائن فى سنة ٤٨٤ ، فزادت الإحنة والمحنة ، واستمرت فى غُلَوائها الفتنة .

وأجمعت على الثورة بحضرة إشبيلية طائفة ، فأُعلم المعتمد بما اعتقدته الطائفة المذكورة ، وكُشف له عن مرادها ، وأُثبت عنده سوء اعتقادها ، وأُغرِى بتمزيق أديمها وسفك دمها ، وحُض على هتك حريمها وكشف حُرمها ، فأبى له ذلك مجده الأثيل ،

ورأيه الأصيل ، ومذهبه الجميل ، وما حباه الله به من حسن اليقين ، وصحة العقل والدين ، إلى أن أمكنتهم الغرة يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة ، فقاموا بجيش غير مستنصر ، واستنسروا بُغاثا غير مستنسر ، فبرز هو من قصره ، سيفه بيده ، وغلالة ترفُّ على جسده ، لا درقة له ولا درع عليه ، فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج ، فارساً من الداخلين مشهور النجدة شاكى السلاح ، فرماه الفارس برمح قصير أنابيب القناة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه ، وعصمه الله عنه ، ودفعه بفضله منه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه إلى أضلاعه فخر صريعًا ، وانهزمت تلك الجموع ، ونزل المتسنمون للأسوار عنها ، وظن أهل إشبيلية أن الخناق قد تنفس .

فلما كان عصر ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظُهر على البلد من واديه ، ويئس من سُكنى ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار فى شوانيه ، فانقطع عندها الأمل والقول ، وذهبت القوة من أيدى أهلها والحول ، وكان الذى ظهر عليها من جهة البر ، رجلٌ من أصحاب يوسف أمير المسلمين يُعرف بحدير بن واسنُو ، ومن الوادى رجلٌ يعرف بالقائد أبى حمامة مولى بنى سجوت ، والتوَت الحال أيامًا يسيرة ، إلى أن ورد الأمير سِيرُ بن أبى بكر بن تاشفين ـ وهو ابن أخى أمير المسلمين ـ بعساكر متظاهرة ، وحشودٍ من الرعية وافرة ، والناس فى خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ، وخالط قلوبهم الهلع ، يقطعون السبل سياحة ، ويعبرون النهر سباحة ، ويتولجون مجارى الأقذار ، ويترامون من شرفات الأسوار ، حرصًا على الحياة ، والموفون بالعهد ، المقيمون على صريح الود ، ثابتون ، إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى ، والطامة الكبرى ، فيه حُمَّ الأمر الواقع ، واتسع الخُرق على الراقع ، ودُخل البلد من واديه ، وأصيب حاضره وباديه ، بعد أن جد الفريقان فى القتال ، واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله وبأسه ، وترامیه على الموت

بنفسه ، مالا مزيد عليه ، ولا تناهٍ لخلق إليه ، وفى ذلك يقول المعتمد بعد ما نزل بالعدوة أسيراً حسيرًا :

لما تماسكت الدموع	وتنهنه القلب الصديعْ
قالوا الخضوع سياسة	فليبدُ منك لهم خُضوع
وألذُّ من طعم الخضو	ع على فمى السمُّ النقيع
إن تستلب عنى الدُّنا	مُلكى وتُسلمنى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعه	لم تُسلم القلب الضلوع
لم أُستلب شرف الطبا	ع أيُسلب الشرف الرفيع
قد رُمتُ يوم نزالهم	ألا تُحصنى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القمي	ص عن الحشا شيىء دفوع
وبذلتُ نفسى كى تسيـ	ـل إذا يسيلُ بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن	بهواى ذُلى والخُشوع
ما سرت قط إلى القتا	ل وكان من أملى الرجوع
شيمُ الألى أنا منهمو	والأصلُ تتبعُه الفروع !

فشُنت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبداً ولا لبداً ، وانتهبت قصور المعتمد نهباً قبيحاً ، وأُخذ هو قبضاً باليد وجُبر على مخاطبة ابنيه : المعتد بالله ، والراضى بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة ، لو شاء أن يمتنعا بهما لم يصل أحدٌ إليهما ، أحد الحصنين يسمى رُندة ، والآخر مارتُلة ، فكتب [إليهما][1] رحمه الله ، وكتبت

---

(١) إضافة من المطبوع .

السيدة الكبرى أمهما ، مستعطفين مسترحمين ، مُعلمين أن دم الكل منهم مُسترهن بثبوتهما ، فأنفا من الذل ، وأبيا وضع أيديهما فى يد أحد من الناس بعد أبيهما ، ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا فى حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ، ونزلا عن الحصنين بعد عهود مبرمة ، ومواثيق محكمة ، فأما المعتد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قُتل غيلة وأخفى جسده .

ورُحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله بُلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة ، فأقام بها أيامًا ، ولقيه بها الحصرى الشاعر ، فجرى معه على سوء عادته من قُبح الكُدية وإفراط الإلحاف ، فرفع إليه أشعاراً قديمة قد كان مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدّها عند وصوله إليه .

ولم يكن عند المعتمد فى ذلك اليوم مما زود به فيما بلغنى أكثر من ستة وثلاثين مثقالا ، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها ـ سقطت من حفظى ـ ووجه بها إليه ، فلم يجاوبه عن القطعة ، على سهولة الشعر على خاطره وخفته عليه . كان هذا الرجل ـ أعنى الحصرى الأعمى ـ أسرع الناس فى الشعر خاطرًا ، إلا أنه كان قليل الجيد منه ، فحركه المعتمد على الله على الجواب بقطعة أولها :

قُل لمن قد جمع العلم	وما أحصى صوابه
كان فى الصرة شعر	فتنظَّرنا جوابه
قد أثبناك فهلاَّ	جلب الشعر ثوابه ؟

ولما اتصل بزعانفة الشعراء ومُلحفِى أهلِ الكدية ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصرى ، تعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل فج عميق ، فقال فى ذلك رحمه الله :

شُعــــراء طنجـــة كلهم والمغـــرب ... ذهبــوا مِنِ الإغـراب أبعــد مــذهبِ

سألـــوا العسير مـن الأسير وإنـــه ... بســـؤالهم لأحقُّ فــاعجبْ واعجبِ

لـــولا الحيـــاء وعـــزةٌ لخميـــة ... طى الحشـــا ســـاواهمُ فى المطلبِ

قـد كـــان إن سُئل النـدى يُجزل وإن ... نـادى الصريخُ ببابــهِ اركب يركبِ

وله فى هذا المعنى رحمه الله :

قُبح الـــــدهــــرُ فماذا صنعـــا ... كلما أعطى نفيسًـــا نـــزعـــا

قـــد هـــوى ظلمًا بمن عـــادتــه ... أن ينـــادى كل مـن يهوى لَعَـــا !

مـن إذا الغيـثُ همى منهمــــــرا ... أخجلتــــه كفُّـــه فـــانقطعـــا

مـن غمامُ الجودِ مـن راحتِــــــه ... عصفت ريـحٌ بـــه فـــانتشعـــا

مـن إذا قيـل الخنـــــاصُـم وإن ... نطق العـــافُـون همســاً سمعـــا

قـل لمن يطمع فى نـــــائلـــــه ... قـــد أزال اليـأس ذاك الطمعـــا

راح لا يملـك إلا دعـــــــــوةً : ... جبر اللـــه العُفـــاة الضيَّعـــا

وأقام المعتمد بطنجةـ رحمه الله ـ أيامًـا على الحال التى تقدم ذكرها ، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة[1] ، فأقام بها أشهراً ، إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات ، فأقاموا بها إلى أن توفى المعتمـد ، رحمه الله ، ودفن بها فقبره معـروف هناك[2] وكانت وفاتـه فى شهور سنة ٨٧

---

(١) مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى ، تقع إلى الغرب من فارس ، وبينهما نحو ٣٥ ميلاً .

(٢) أغمات : مـدينة وراء مـراكش ، بينهما مسافـة يـوم ، ولم يزل قبر المعتمـد معروفًا بها حتى القـــرن الحـادى عشرالهجرى ، وقـد زاره المقرى صاحب نفح الطيب سنة ١٠١٠ من الهجرة ، قـال : فرأيته فى ربوة حسبما وصفـه ابن الخطيب ، يعنى لسـان الدين ، وقد كـان زاره قبل ذلك بقرنين وثلـث قرن ، =

وقيل سنة ٨٨ فالله أعلم.. وسنّه يوم توفى إحدى وخمسون سنة[1] .

فمن أحسن مامر بى مما رثى به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة[2] وأولها :

لكل شىء من الأشيـــاء ميقـــات ... وللمُنى من منـــايـــاهُن غـــايـــاتُ

والـدهر فى صبغـة الحربـاء منغمسٌ ... ألـــوانُ حـالاتـــه فيهـا استحــالاتُ

ونحن من لُعب الشطـرنج فى يـده ... وربما قُمـرت بـالبيـــدقِ الشــاةُ

فـانفض يـدك من الـدنيا وسـاكنهـا ... فالأرضُ قـد أقفرت والنـاس قد مـاتوا

(=) ووصفه فقال : وهو بمقبرة أغمات ، فى نشز من الأرض ، وقـد حفت به سدرة ، وإلى جنبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليها هيئةالتغرب ، ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما .

قال ابن الطيب فأنشدت فى الحال :

قـــد زرت قبرك عـن طـــوع بـأغمات ... رأيـــت ذلـــك مـــن أولى المهمات

لم لا أزورك يـــاأنـدى الملـــوك يـــداً ... ويـــاسراجَ الليـــالى المدلهمات

وأنت من لـــو تخطّى الـدهـرُ مصرعَـه ... إلى حيــاتى لجادت فيـــه أبيـــاتى

إلخ . . . . .

(١) كذا يروى المراكشى ، وأهل التاريخ مختلفون فى تحديد سنه يوم وفاته ، بين الحادية والخمسين والخامسة والخمسين . وقـد ذكر المؤلـف (ص ١٠٢) أن المعتمد تـولى العـرش وعمره ٣٧ سنـة ، وأنـه بقى على العرش عشرين سنة ، وكـانت وفاته بعد خلعه بـأربع سنوات ، فعلى هذا يبلغ عمره عند وفـاته إحدى وستين سنة !

(٢) هو أبو بكر الدانى محمد بن عيسى بن محمد اللخمى ، من مشاهير شعراء الأندلس فى المائة الخامسة ، وكان منقطعًا إلى بنى عبّاد ، وفيهم أجـود مدائحـــه ومراثيـه ، ولهم أبدع ما نظم مـن شعر فى مختلف الفنون ، وقد ألف كتـابين فى أخبـار بنى عباد ، أحـدهما « السلوك فى وعـظ الملوك » وقـدضمنه عـدة مقطوعات وقصـائد فى البكاء على أيامهم وما انتثر من نظامهم ، والآخـر « الاعتماد فى أخبار بنى عباد » فصل فيه تاريخهم منذ كانوا حتى مضوا . . . وله غير هذين كتاب « سقيط الدرر ولقيط الزهر » . توفى بميورقة سنة ٥٠٧ .

وقال عنه ابن الآبـار فى التكملة : « وابن اللبانة هـذا هو الذى قال أحسن قصـائده فى المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية ، وكتب عن آل عباد من النثر ماحفظه الناس حفظ النثر لنفاسته .

وقُل لعـــالمهـــا الأرضى قــــد كتمت سريـــرة العـــالم العُلـــوىِّ أغماتُ

طـــوت مظلتهـــا ، لا بـل مـــذلتهـــا من لم تـــزل فـــوقـه للعـــز رايـــاتُ

من كـان بين الندى والبأس ، أنصُلـه هنـــديـــةٌ وعطـــايـــاه هُنيـــداتُ

أنكـــرت إلا التـــواءً للقيـــود بـــه وكيف تُنكـــر فى الـروضـــات حيـاتُ

وقلتُ هــن ذؤابـــــاتٌ فلم عُكست من رأسـه نحـو رجليـه الـذؤابـات

رأَوه ليثـاً فخـــافـوا منـــه عـاديـة عـذرتهم فلِغُـدوى الليث عـادات[1]

وله قصيدة يرثيهم بها ، وهى كثيرة الجيد أولها :

تبكى السماءُ بـــدمعٍ رائحٍ غـــادى على البهـــاليلِ من أبنـــاءِ عَبَّـــاد

على الجبـالِ التى هُـدتْ قـواعـدُهـا وكـــانت الأرضُ منهـم ذات أوتـــاد

والـرابيـاتُ عليهـا اليـانعـاتُ ذوت أنـــوارُهـا فغـــدت فى خفضٍ أوهـــاد

عـــريسـةٌ دخلتهـــا النـائبـــاتُ على أســـــاودٍ لهمُ فيهـــا وآســـــاد

وكعبـــةٌ كـــانت الآمـالُ تعمـــرهـــا فـــاليـــوم لا عـاكفٌ فيهـــا ولا بـــاد

تلك الـــرمـــاحُ رِمـاحُ الخط ثقَّفهـــا خطبُ الـــزمـان ثِقـافـاً غير مُعتـاد

والبيض بيضُ الظبـا فلت مضـاربها أيـــدى الـــردى وثنتهـــا دون إغماد

لما دنـــا الـوقتُ لم تخـلـف لـه عِـــدة وكـل شىءٍ لميقـــــاتٍ وميعــــــاد

كم من درارى سعـد قد هـوت ووهت هُنـــــاك من دُررٍ للمجـــد أفـــراد

---

(١) وردت هذه الأبيات فى كتاب : قلائد العقبان .

نُــورٌ ونــورٌ فهــذا بعــد نعمتــه ذوى وذاك خبــا من بعــد إيقــاد

يـاضيف أقفـر بيتُ المكـرمـاتِ فخُـذ فى ضم رحلِك واجمع فضلــة الــزاد

ويــــامــؤمل واديهم ليسكُنـــه خفَّ القطينُ وجَفَّ الـزرع بــالـوادى

ضلتْ سبيلُ الندى بابنِ السبيل فسر لغيرِ قصـــدٍ فما يهديك من هــادى

وفيها يقول :

نسيتُ إلا غــداة النهــرِ كــونهم فى المنشــآتِ كأمــواتٍ بألحادِ

والنــاسُ قـد مـلأوا العبرين واعتبروا من لــؤلـؤٍ طــافيـاتٍ فــوق أزبـاد

حُـط القنـــــاع فلـم تُسْتر مُخدرة ومُـــزِّقـت أوجُـــهٌ تمزيـقَ أبـــراد

تفـرقــوا جِيرةً من بعـد مــانشئـوا أهـــــلاً بـأهـلٍ وأولاداً بـأولادِ

حــان الـوداعُ فضجت كـل صـارخـةٍ وصـــارخٍ مـن مُفــداةٍ ومن فــادى

ســارت سفـائنُهـم والنـوحُ يتبعُهـا كــأنها إبـــلٌ يحدو بها الحادى

كم ســال فى الماء من دمـعٍ وكم حملت تلك القطــائعُ مـن قِطعــاتِ أكبــاد

من لى بِكـم يــابنى مــاءِ السماءِ إذا ماءُ السماء أبـى سُقيا حشـا الصادى

وهى طويلة جدا[1] ، هذا ما اخترت له منها .

---

(١) قيل عنه : إن نسبه يرجع للنعمان بن المنذر ابن ماء السماء .

أبو بكر الدانى

وابن اللبانة هذا هو أبو بكر محمد بن عيسى[1] ، من أهل مدينةدانية ، وهى على ساحل البحر الرومى ، كان يملكها مجاهد العامرى وابنه علىٌّ الموفق على ما تقدم .

ولابن اللبانة هذا أخ اسمه عبد العزيز ، وكانا شاعرين ، إلا أن عبد العزيز منهما لم يرضَ الشعر صناعة ولا اتخذه مكسبًا ، وإنما كان من جملة التجار ، وأما أبو بكر فرضيه بضاعةً وتخيره مكسبًا وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم ، وشعره نبيل المأخذ ، وهو فيه حسن المهيع ، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها ، وجودة المعانى ولطافتها ، كان منقطعًا إلى المعتمد ، معدودًا فى جملة شعرائه ، لم يفد عليه إلا آخر مدته ، فلهذا قل شعره الذى يمدحه به .

وكان ــ رحمه الله ــ مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه ، قليل المعرفة بعلله ، لم يجِد الخوض فى علومه ، وإنما كان يعتمد فى أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته ، يدل على ذلك قوله فى قصيدة له سيرد ما أختاره منها فى موضعه :

من كان يُنفق من سواد كتابِه ... فأنا الذى من نور قلبى أُنفق

ولما خُلع المعتمد على الله وأُخرج من إشبيلية ، لم يزل أبوبكر هذا يتقلب فى البلاد ، إلى أن لحق بجزيرة ميورقة[2] ، وبها مُبشر العامرى المتلقب بالناصر ، فحظى عنده وعلت حاله

---

(١) انظر : نفح الطيب ١٤٧ .

(٢) ميورقة ، ومنورقة ، ويابسة : هى أكبر جزائر الأندلس فى بحر الروم ، على ساحلها الشرقى ، مصاقبة لقطلونيا وبلنسية ، ويسميها الجغرافيون المحدثون : جزائر البليار .

وكان مقدم ابن اللبانة إلى ميورقة فى آخر شعبان سنة ٤٨٩ ـ بعد بضعة أشهر ، أو بضعة عشر شهرًا من موت المعتمد ابن عباد بأغمات ـ وكان عليها مبشر بن سليمان العامرى ، من موالى المنصور ابن أبى عامر ، فمدحه ابن اللبانة بقصيدته التى مطلعها :

مَلِكٌ يَروعك فى حلى ريعانِه ... راقت برونقه صفاتُ زمانه !

معه ، وله فيه قصائد أجاد فيها ماشاء ، فمنها قصيدة ركب فيها طريقةً لم أسمع بها لمتقدم ولا متأخر ، وذلك أنه جعلها ، من أولها إلى آخرها ، صدرُ البيت غزل وعجزهُ مدح ، وهذا لم أسمع به لأحد ، وأول القصيدة :

وضحت وقد فضحت ضياء النيِّر — فكأنما التحفت ببِشرِ مُبشر
وتبسمت عن جوهرٍ فحسبتُه — ماقلدتهُ محامدى من جوهرِ
وتكلمت فكأن طيب حديثها — مُتعتُ منه بطيب مسك أذفرِ
هزت بنغمةِ لفظها نفسي كما — هُزَّت بذكراه أعالى المِنبر
أذنبتُ واستغفرتُها فجرت على — عاداتِه فى المذنِبِ المستغفِر
جادت علىَّ بوصلها فكأنه — جدوى يديه على المقلِّ المُقتر
ولثمتُ فاها فاعتقدت بأننى — من كفه سُوغت لثم الخِنصَرِ
سمحت بتعنيقى فقلتُ صنيعةٌ — سمحت غُلاه بها فلم تتعذَّرِ
نهدٌ كقسوةِ قلبِه فى معركٍ — وحشاً كلين طباعه فى محضرِ
ومعاطفٌ تحت الذوائبِ خلتُها — تحت الخوافقِ ماله مِن سمهرى
حسُنت أمامى من خمارٍ مثل ما — حسُن الكمى أمامه فى مِغفرِ
وتوشَّحتْ فكأنه فى جوشنٍ — قد قام عنبرهُ مقام العِثْيرِ
غمزت ببعض قسيه من حاجبٍ — ورنت ببعض سهامه من محجرِ
أومت بمصقول اللحاظ فخلته — يُومى بمصقول الصفيحة مُشهرِ
وضعت حشاياها فويق أرائكٍ — وضع السروج على الجياد الضُّمَّر
من رامةٍ أو رومةٍ ، لا عِلْم لى — ألأنت عن النعمان أم عن قيصر

بنتُ الملــوك فقـل لكسرى فــارس ... تُعـــــزى وإلا قُل لِتُبَّع حمير

عــاديتُ فيهـا غُـر قــومى فـاغتـدوا ... لأرضُهــم أرضـــى ولا هـــم معشرِى

وكـذلك الــدنيــا عهِدْنــا أهلهـــا ... يتعـــافــرون على الثـريـد الأعفـر

طـــافت على بحمـــــرةٍ من خمرة ... فــرأيت مــريخاً بــراحــةِ مُشترى

فكــان أُنملَهـــــا سيــــوف مُبشرٍ ... وقـــد اكتست علـق النجيع الأحمر

ملـكٌ أزِرَّةُ بُـــــــرده ضُمت على ... بأس الــوصى وعـزمـةِ الإسكنـدر

هذا ما اخترت له منه .

ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :

هــــلاَّ ثنـــاك علىَّ قلبٌ مُشفـق ... فترى فـــراشـــاً فى فـــراشٍ يُحرقُ

قـد صرتُ كـالـرمقِ الـذى لا يُـرتجى ... ورجعتُ كـــالنفسِ الــذى لا يُلحقُ

وغـــــرقتُ فى دمعـى عليك وغمنـى ... طــــرقى فهل سببٌ بـــــه أتعلق

هل خــــدعـــةٌ بتحيـــةٍ مخفيـــة ... فى جنب مــوعــدك الـذى لا يصـــدقُ

أنت المنيـــةُ والمُنى ، فيك استـــوى ... ظل الغمامـــــةِ والهجيرُ المُحــــرق

لك قَـدٌ ذابلـةِ الـــوشيج ولـــونُها ... لكـن سنــــــانُـك أكحـلٌ لا أزرق

ويقــــال إنـك أيكـــــةٌ حتـى إذا ... غنيـت قيل هـــــــو الحمامُ الأورق

يــا من رشقـتُ إلى السلـــو فـردنى ... سبقت جُفــونُك كـل سهم يُــرشقُ

لــو فى يــدى سحـرٌ وعنــدى أخـذةٌ ... لجعلـت قلبـك بعـض حينٍ يعشــقُ

لتـــذُوق مــا قــد ذقتُ من ألم الجوى ... وتـــرقَّ لى ممــــا تــراه وتُشفِق

جسـدى من الأعـداء فيك لأنـه ... لا يستبين لطـرف طيفٍ يـرمقُ

لم يدرِ طيفُك مـوضعى من مضجعى ... فعـذرتُـه فى أنـه لا يطـرقُ

جفت عليك منـابتى ومنـابعى ... فـالـدمع ينشـغُ والصبابـةُ تـورَقُ

وكـأن أعـلام الأمير مُبشرٍ ... نشرت على قلبـى فـأصبـح يخفـقُ

وفيها يقول ، يصف لعب الأسطول فى يوم المهرجان :

بُشرى بيـوم المهـرجـانِ فـإنـه ... يـومٌ عليـه من احتفـائك رونقُ

طـارت بنـاتُ الماءِ فيـه وريشُهـا ... ريشُ الغـراب وغيرُ ذلـك شـوذَق

وعلى الخليج كتيبـةٌ جـرارةٌ ... مثل الخليـجِ كـلاهما يتـدفق

وبنُـو الحروب على الجوارىً التى ... تجرِى كما تجرى الجيـاد السُّبقُ

مـلأ الكماةُ ظهـورهـا وبطـونها ... فأتت كما يـأتى السحـاب المُغـدقُ

خـاضت غـديـر الماء سـابحـةً بـه ... فكـأنما هـى فى سرابٍ أينـق

عجبـاً لها ! مـاخلـتُ قبل عيـانِها ... أن يحمل الأسـد الضـوارى زورقُ

هـزت مجاديفـاً إليك كـأنها ... أهـدابُ عينٍ للـرقيب تُحدِّقُ

وكأنها أقـلامُ كـاتبِ دولـةٍ ... فى عـرض قـرطـاسٍ تخُط وتمشق

وله فيها إحسان كثير ، وله من قصيدة يتغزل :

فـؤادى مُعنًّى بـالحسـان مُعنت ... وكل مـوقى فى التصـابى مُـوقتُ

ولى نفسٌ يخفى ويخفُـت رقـةً ... ولكن جسمـى منـه أخفـى وأخفتُ

وبى ميتُ الأعضــاء حــى دلالــه غـــرامى بـــه حــى وصبرى ميتُ

جعلت فـــؤادى جفن صــارم جفنـــه فيـاحــرَّ مـا يصلى بـــه حين يُصلتُ

أذل لــــه فى هجـــرهِ وهـــو ينتمى وأسكُنُ بـالشكـوى لـه وهـو يسكتُ

ومـا انبتَّ حبلٌ منـه إذ كـان فى يـدى لــريحانِ ريعـــان الشبيبــة منبت

ومن جيد ما لَهُ من قصيدة يمدح بها مبشرًا ناصر الدولة أولها :

راق الـــربيعُ ورق طبع هـــوائه فــانظــر نضــارة أرضـــه وسمائه

واجعل قــرين الــورد فيـه سـلافـةً يحكى مُشعشعُهــا مُصعـــد مـــائه

لــــولا ذبـــول الـــورد قلت بأنــــه خـــد الحبيب عليـــه صبغُ حيــائه

هيهــات أين الـورد مـن خـد الـــذى لا يستحيل عليك عهـــدُ وفـــائه

الـــورد ليس صفـــاتُـه كصفــاتِـه والطيرُ ليس غنـــاؤهـــا كغنـــائه

يتنفس الإصبـــاح والـــريحان من حـــركـــات معطفـــه وحسن روائه

ويجول فى الأرواح روح مـــــاسرت ريـــــاهُ من تلقـــائه بلقــــائه

صرف الهوى جسمى شبيـه خيـالِـه من فـــرط خفتـــه وفـــرط خفـــائه

ومن أحسن ما على خاطرى له بيتان يصف بها خالاً ، وهما :

بـــدا على خــده خـــالٌ يُــزينـــه فـــزادنى شغفـــاً فيــــه إلى شغفِ

كأن حبـــة قلبـى عنـــد رؤيتـــه طــارت فقـال لها : فى الخد منـه قفى !

ولابن اللبانة هذا إحسان كثير ، منعنى من استقصائه خوف الإطالة ، وأيضاً فلأن هذا الكتاب ليس موضوعًا لهذا الباب ، وإنما يأتى منه فيه ما تدعو إليه ضرورة سياق الحديث .

رجع الحديث إلى أخبار المعتمد

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المعتمد على الله .

وبلغنى أن رجلاً رأى فى منامه قبل الكائنة العظمى على بنى عباد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قرطبة ، كأن رجلاً أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه ينشدهم رافعًا صوته :

ربّ ركبٍ قد أناخوا عيسهُم — فى ذُرى مجدهم حين بسق

سكت الدهرُ زماناً عنهُم — ثم أبكاهم دماً حين نطق !

فما كان إلا أشهرٌ يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال .

وبلغ من حال المعتمد على الله بأغمات ، أن آثر حظياته وأكرم بناته أُلجئت إلى أن تستدعى غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها ، وتصلح به ما ظهر من اختلالها ، فأدخل عليها فيما أُدخل غزلٌ لبنت عريف شُرطة أبيها ، كان بين يديه يزعُ الناس يوم بروزه ، لم يكن يراه إلا ذلك اليوم ، واتفق أن السيدة الكبرى أم بنيه [1] ، وكان الوزير أبو العلاء زهر ابن عبد الملك بن زهر بمراكش ، قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه[2] ، فكتب إليه المعتمد

---

(١) هي السيدة اعتماد الرميكية ، مولاة رميك .

(٢) هو جد أبى بكر ابن زهر السابق ذكره ، وذكر أبيه ، وقد كان أبو العلاء هذا ــ كما يقول ابن دحية فى كتابه المطرب من أشعار أهل المغرب ـ وزير ذلك الدهر وعظيمه ، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه . وقد توفى بقرطبة سنة ٥٢٥ .

راغباً فى علاج السيدة ومطالعة أحوالها بنفسه ، فكتب إليه الوزير مؤديًا حقه ومجيبًا له عن رسالته ومُسعفًا له فى طلبه ، واتفق أن دعا له فى أثناء الرسالة بطول البقاء ، فقال المعتمد فى ذلك :

دعا لى بالبقاء وكيف يهوى	أسيرٌ أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياةٍ	يطول على الشقىِّ بها الشقاء
فمن يكُ من هواه لقاء حب	فإن هواى من حتفى اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى	عوارى قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى	مراتبه إذا أبدو النداء
وطرد الناس بين يدىْ ممرى	وكفهمو إذا غص الفناء
وركضٌ عن يمينٍ أو شمال	لنظم الجيش إن رُفع اللواء
يُعينه إمامٌ أو رواء	إذا اختلَّ الأمام أو الوراء
ولكن الدعاء إذا دعاه	ضمير خالص نفع الدعاء
جُزيت أبا العلاء جزاء بر	نوى برا وصاحبك العلاء
سيُسلى النفس عما فات علمى	بأن الكل يُدركه الفناء

وورد عليه أغمات أبو بكر ابن اللبانة المتقدم الذكر ، ملتزماً عهد الوفاء قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمى ، فسُر المعتمد بوروده ، فلما أزمع ابن اللبانة على السفر ، استنفد المعتمد وُسعه ووجه إليه بعشرين مثقالا وثوبين وكتب إليه معها :

إليك النزر من كفِّ الأسير	فإن تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياءً	وإن عذرته حالات الفقير !

ولا تعجب لخطبٍ غض منه … أليس الخسف مُلتزم البدور ؟
ورج لجبره عُقبى نداه … فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت عُلاه من حضيض … وكم حطت ظُباه من أمير
وكم من منبرٍ حنت إليه … أعالى مُرتقاه ومن سرير
زمان تزاحفت عن جانبيه … جياد الخيل بالموت المُبير
فقد نظرت إليه عيونُ نحسٍ … مضت منه بمعدوم النظير
نحوسٌ كن في عُقبى سُعودٍ … كذاك تدور أقدار القدير
وكم أحظى رضاه من حظيٍّ … وكم شهرت عُلاه من شهير
زمان تنافست في الحظ منه … مُلوك قد تجُور على الدهور !
بحيث يطير بالأبطالِ ذُعرٌ … ويلفى ثم أرجح من ثبير

فامتنع ابن اللبانة من قبول ذلك عليه ، وصرفه بجملته إليه ، وكتب مجيباً له عن شعره :

سقطت من الوفاءِ على خبير … فذرنى والذي لك في ضميرى
تركتُ هواكَ وهو شقيق دينى … لئن شُقَّت بُرودى عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزايا … لئن أصبحت أجحف بالأسير
أسيرٌ ولا أصيرُ إلى اغتنامٍ … معاذ الله من سوء المصير
إذا ما الشكرُ كان وإن تناهى … على نُعمى فما فضل الشكور ؟

جـذيمـةُ أنت والأيـامُ خـانت ... وما أنا من يقصر عن قصير(١)

أنا أدرَى بفضِلك منك إنى ... لبست الظل منه فى الحرور

غنىُّ النفسِ أنت وإن ألحَّت ... على كفيك حالاتُ الفقيرِ

تُصرف فى الندى حيل المعالى ... فتسمُح من قليلٍ بالكثير

أحدث منك عن نبعٍ غريبٍ ... تفتح عن جنى زهرٍ نضير

وأعجب منك أنك فى ظلامٍ ... وترفع للعُفاة منار نُور

رويدك سوف توسعنى سرورًا ... إذا عاد ارتقاؤك للسرير

وسوف تُحلنى رتب المعالى ... غداة تحل فى تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاء ... بها وأنيف ثم على جرير(٢)

تأهب أن تعود إلى طلوعٍ ... فليس الخسف مُلتزم البُدورِ

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات :

رد برى بغياً على وبِرًّا ... وجفا فاستحق لوماً وشكرا!

---

(١) وجذيمة : هو جذيمة بن الأبرش ملك العراق ، وهو لخمى موصول النسب بالمعتمد ، وقصير : هو قصير بن سعد اللخمى الذى يضرب به المثل فيقال : « لأمر ما جدع قصير أنفه ! » .
ولجذيمة وقصير قصة مفصلة فى كتب الأمثال ، خلاصتها أن الزباء ملكة الجزيرة قتلت جذيمة هذا ثأراً لأبيها ، فجدع قصير أنفه وذهب إليها فى دار ملكها يوهمها أن قومه جدعوا أنفه لأن إليها ولاء ه ، فصدقته الزباء ومنحته ثقتها ، فاحتال عليها حتى أمكن قومه منها فقتلوها ثأراً لجذيمة ، فكان عمله هذا مثلا من أمثلة الوفاء لمليكه المنكوب ، وإلى هذه الصورة من صور الوفاء يشير ابن اللبانة فى هذا البيت ، وابن اللبانة ينتسب إلى لخم كذلك !

(٢) يعنى عبد الملك بن مروان ، وجريراً الشاعر .

حاط نزرِى إذ خاف تأكيد ضُرى ... فاستحق الجفاء إذ حاط نزرا

فإذا ما طويت فى البعض حمدًا ... عاد لومى فى البعض سرا وجهرا

يا أبا بكرِ الغريبَ وفاءً ... لا عَدِمْناك فى المغارب ذُخراً

أىَّ نفعٍ يجدى احتياطُ شفيق ... مُت ضرا فكيف أرهبُ ضُراً ؟

فأجابه ابن اللبانة رحمه الله :

أيها الماجد السميدع عُذرًا ... صرفى البر إنما كان برا

حاش لله أن أجيح كريمًا ... يتشكى فقرًا وكم سد فقرا

لا أزيد الجفاء فيه شُقوقاً ... غدر الدهر بى لئن رمتُ غدرا

ليت لى قوةً أو آوى لركن ... فترى للوفاء منى سرا

أنت علمتنى السيادة حتى ... ناهضت همتى الكواكب قدراً

ربحت صفقة أزيل برودًا ... عن أديمى بها وألبس فخراً

وكفانى كلامُك الرطب نيلاً ... كيف ألفى دُرًّا وأطلب تبراً !

لم تمت إنما المكارمُ ماتت ... لا سقى الله بعدك الأرض قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يُكتب على قبره :

قَبر الغريب سقاكَ الرائح الغادى ... حقًّا ظفرت بأشلاء ابن عباد

بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت ... بالخصب إن أجدبوا بالرى للصادى

بالطاعن الضارب الرامى إذا اقتتلوا ... بالموت أحمر بالضرغامة العادى

بـالـدهــر فى نقمٍ بـالبحــر فى نِعَمٍ — بـالبـدر فى ظُلَمٍ بـالصـدر فى النـادى

نعم هــو الحق حــابـانى بـــه قـدرٌ — من السماء فـــوافـــانـى لميعـــاد

ولم أكن قبـل ذاك النعش أعلمُـــــه — أن الجبـــال تهادى فـوق أعـــواد

كفـاك فارْفُقْ بما استـودعت من كـرم — رواك كل قطـــــوب البرق رعَّـــــاد

يبكى أخـــاه الـــذى غيبت وابلـــه — تحت الصفيح بـدمـعٍ رائح غـــادى

حتى يجودك دمـع الطل منهمــــــرًا — من أعين الـــزهـر لم تبخل بإسعـــادِ

ولا تـــزل صلــــوات اللـــه دائمـــةً — على دفينـك لا تُحصى بتعـــــداد !

وكان للمعتمد على الله هذا ولد يلقب بفخر الدولة ، رشحه للملك من بعده ، وجعله ولى عهده ، ولقبه بـالمؤيد بنصر الله ، فعاقتـه الفتنة عن مراده ، وحالـت الأقدار بينه وبين إصداره وإيـراده ، فما برح بفخـر الدولة هـذا تغير الأيام بعد الفتنـة إلى أن أســلم نفسه فى السوق ، وتعلم من الصنائع صنعـة الصواغ ، فمر به محمـد بن اللبانة المتقدم الذكـر شاعرُ أبيه ، فقال فى ذلك :

أذكى القلوب أسى أبكى العيـون دماً — خطبٌ وجـدنـاك فيـه يُشبه العـدمـا

أفــراد عقـدِ المنى منـــا قـد انتثــرت — وعقـد عُـروتنـا الـوثقى قـد انفصما

شكـاتُنـا فيك يـا فخـر الهدى عظُمت — والـــرزء يعظم فيمـن قـــدرُه عظُما

طُـوقت من نـائبـات الـدهـر مخنقـةً — ضـاقت عليك ، وكـم طـوقتنـا نعما !

وعـــاد كــونـك فى دُكـــان قـــارعـــة — من بعـد مـــا كنت فى قصرٍ حكى إرمـا

صرفت فى آلـــة الصــــواع أنمُلَـــة — لم تــدرِ إلا النـــدى والسيف والقلما

يـــدٌ عهـــدتُـك للتقبيل تبسُطهـــا — فتستقل الثـــريـــا أن تكـــون فما

يـا صائغـاً كـانت العليـا تُصاغ لـه حليـاً وكـان عليـه الحلى مُنتظما

للنفخ فى الصور هولٌ مـا حكاه سوى هـول رأينـاك فيـه تنفُخ الفحما

وددت إذ نظـرت عينى إليك بـه لـو أن عينى تشكـو قبل ذاك عمى

مـا حطك الـدهـر لما حُطَّ من شرفٍ ولا تحيف مـن أخـلاقـك الكـرمـا

لُح فى العـلا كـوكبًـا إن لم تَلُح قمـراً وقُـم بها ربـوةً إن لم تقـم علما

واصبر فـربَّمَا أحمدت عـاقبـةً من يلـزم الصبر يحمـد غب ما لـزمـا

واللـه لـو أنصفتك الشهب لا نكسفت ولـو وفى لك دمـع المزن لانسجما

يحكى حـديثك حتـى الـدر حين غـدا يحكيك رهطـاً وألفـاظـاً ومبتسما

وروضة الحُسـن من أزهارها عـريت حُـزنـاً عليك لأن أشبهتهـا شيما

بعـد النعيم ذوى الـريحان حين رأى ريحانك الغض يـذوى بعـد مـا نعما

لم يـرحم الـدهر فضـلاً أنت حـاملُـه من ليس يـرحم ذاك الفضل لا رُحما

شقيقك الصبح إن أضحى بشـارقـةٍ وأنت فى ظلمـةٍ فـالصبحُ قـد ظلما

***

فصــل

رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على الله ، مع ما تعلق بها ، وإن كانت مُخرجة عن الغرض ، لندل بها على ما قدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك ، وأيضًا فليتصل نسق الأخبار عن المملكة ، أعنى مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين ، ولوجه ثالث : وهو أن ما آلت إليه حال المعتمد هذا من الخمول بعد النباهة ، والضعة بعد الرفعة ، والقبض بعد البسط ، من جملة العبر التى أرتناها الأيام ، والمواعظ التى تصغِّر الدنيا فى عيون أولى الأفهام .

ثم إن يوسف بن تاشفين استوثق له أمر الأندلس بعد القبض على المعتمد ، إذ كان هو كبش كتيبتها ، وعين أعيانها ، وواسطة نظمها ، فلم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها ، فأظهروا فى أول إمرتهم من النكاية فى العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ، فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشتد خوف ملوك الروم منهم ، ويوسف بن تاشفين فى ذلك كله يمدهم كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش ، والخيل إثر الخيل ، ويقول فى كل مجلس من مجالسه : « إنما كان غرضنا فى مِلك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم ، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تُسمعه ، ولهو يقطع به أيامه ، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التى ملكها الروم فى طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنَّها عليهم - يعنى الروم - خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، إنما هَمُّ أحدهم فرس يروضه ويستفرِهه ، أو سلاحٌ يستجيده ،

أو صريخ يلبى دعـوته . . . . » فى أمثـال لهذا القول ، فبلغ ذلك ملـوك النصارى ، فيـزداد فرقهم ، ويقوى ـ مما بأيدى المسلمين ، بل مما بأيديهم ـ بأسُهم .

وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شىء منهـا ، عُدَّ من يـومئـذ فى جملة الملوك ، واستحق اسم السلطنـة ، وتسمَّى هـو وأصحابـه بالمرابطين ، وصـار هو وابنـه معدودين فى أكابـر الملوك ، لأن جـزيرة الأنـدلس هى حاضرة المغـرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعـدن الفضـائل منـه ، فعامـة الفضـلاء من أهل كل شأن منسوبـون إليها ، ومعدودون منها ، فهى مطلع شمـوس العلوم وأقمارها ، ومركـز الفضائل وقطب مـدارها ، أعـدل الأقاليم هـواء ، وأصفاهـا جوا ، وأعـذبها ماء ، وأعطـرها نبتـا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بكراً مستعذبة وآصالاً .

أرضٌ يطير فـؤادى من قـرارتـه ... شـوقـاً لها ولمن فيهـا من النـاس

قـومٌ جنيت جنـى وردٍ بـذكـرهم ... فهل بلُقيـاهـم أجنى جنـى آسٍ ؟

فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيـرة من أهل كل علم فحولُـه ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم .

أعيان الكُتَّاب فى دولة المرابطين

واجتمع له ولابنـه من أعيان الكُتـاب وفرسان البـلاغة مـا لم يتفق اجتماعه فى عصر من الأعصار ، فممـن كتب لأمير المسلمين يوسف : كـاتب المعتمد على اللـه أبو بكـر المعروف بابن القصيرة ، أحـد رجال الفصاحة ، والحائز قصـب السبق فى البلاغة ، كان على طـريقة قدماء الكتـاب ، من إيثار جزل الألفاظ وصحيح المعـانى من غير التفات إلى الأسجاع التى

أحدثها متأخرو الكتاب ، اللهم إلا ما جاء فى رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء ، رأيت له عن المعتمد رسائل تدل على ماوصفته به ، ليس على خاطرى منها شيء .

[وزارة ابن عبدون]

ثم كتب لـه أو لابنه ، بعد أبى بكر هذا ـ الوزير الأجل أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، قد تقدم من نعته ما أغنانا عن تكراره هنا ، وكان يكتب قبل من كتب له منهما ، للأمير سير ابن أبى بكر بن تاشفين ، وهو الذى دخل على المعتمد على الله إشبيلية ، فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين ، باستدعاءٍ منه له .

فمن رسائله عنه إلى أمير المسلمين ، رسالة يخبر فيها بفتح مدينة شنترين[1] أعادها الله ، وكان سيرُ هذا هو الذى تولى فتحها ، فكتب عنه أبو محمد كتابًا « أدام الله أمر أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين ، خافقةً بنصرة الدين أعلامه ، نافذة فى السبعة الأقاليم أقلامه ، من داخل مدينة شنترين ،وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك ، ويُمن نقيبتك على المسلمين » .

« والحمد لله رب العالمين ، حمداً يستغرق الألفاظ الشارحة معناه ، ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه ، لايرد وجهه نكوص ، ولا يحد كنهه تخصيص ، ولا يحزره بقبضٍ ولا ببسطٍ مثالٌ ولا تخمين ، ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين ، ولا يسعه أمد يحويه ، ولا يقطعه أبد يستوفيه ، ولا يجمعه عدد يحصيه ، إذا سبقت هواديه ، ولحقت تواليه » .

« وعلى محمدٍ عبده وأمين وحيه ، الصادع بأمره ونهيه ، نظام الأمة ، وإمام الأئمة ، سر آدم من بنيه ، وفخر العالم ومن فيه ـــ صلاةٌ تامة نقضيها ، وتحية عامة نؤديها ، ترفض ارفضاض الزهر من كمامه ، وتنفض انفضاض المسك من ختامه ، فلقد صدع بتوحيده ،

---

(١) تقع هذه المدينة فى الشمال الشرقى من مدينة أشبونة .

وجمع على وعده ووعيده ، وأوضح الحق وجلاه ، ونصح الخلق وهداه ، إلا من حقت عليه كلمة العذاب ، وسبقت له الشقوة فى أم الكتاب » .

« وأظهر العزيز عزت أسماؤه ، وجلت كبرياؤه ـ دينه على جميع الأديان ، وعلى رغم من الصلبان ، ووقم من الأوثان ، وأنجز لنا تعالى وعده ، ونصرنا معه صلى الله عليه وسلم وبعده ، وجمع فى هذه الجزيرة شمل الإسلام بعد انصرامه وانبتاته ، وقطع غيل الإشراك بعد انتصابه وثباته ، وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بأيدينا من صياصيهم ، نأخذ بأقدامهم ونواصيهم » .

« وكانت قلعة شنترين ـ أدام الله أمر أمير المسلمين ـ من أحصن المعاقل للمشركين ، وأثبت المعاقل على المسلمين، فلم نزل بسعيك الذى اقتفيناه ، وهديك الذى اكتفيناه ، نخضد شوكتها ، وننحت أثلتها ، ونتناول عللاً بعد نهل ، ونطاولها عجلاً فى مهل ، نخْرُفُ الحين بعد الحين سراة رجالها ، ونتطرف المرة بعد المرة حُماة أبطالها ، ونخوض غمار كفاحهم ، وبحار صفاحهم ، إلى بسط أشباحهم ، وقبض أرواحهم ، ونهدى للقنا وصدورها رءوسهم ، وإلى لظى وسعيرها نفوسهم ، وننقلهم من الشفار اليمانية ، إلى النار الحامية ، ونرفع بالجد والتشمير حجاب كيدهم الغامض ، ونضعضع باستخارة القديم القدير هضاب أيديهم الهائض ، ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب فى القلاع ، المنيفة المناصب على البقاع ، قد استشرى داؤها ، وأعيا دواؤها ، استخرنا الله تعالى على صمدها ، وضرعنا إليه فى تسهيل قصدها ، وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا ، وإن كانت فى صيانة ديانته مبذولة ، وعلى المكروه والمحبوب فى ذاته محمولة ، فقصدنا إليها ، وهجمنا هجوم الردى عليها ، فى وقت انسدت فيه أبواب السبل ، وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل ، والدهر قد كشر عن أنيابه الغُصْل ، وقام من الوحول والسيول على أثبت رِجل ، فنزلنا بساحة القوم ، فساء صباحهم ذلك اليوم ، فلم نزل نصاولهم مصاولة المحتسب المؤتجر ، ونطاولهم مطاولة المرتقب لأمر الله المنتظر ، ونشن الغارات ، على جميع الجهات ، فترد جيوشنا عليهم خفافا وتصدر إلينا ثقالاً ، فتملأ صدور الأعداء أوجالاً ، وأيدى الأولياء أموالاً ، وأمرنا بإقامة

سوق سبيهم وأموالهم ، على مرأى ومسمع من نسائهم ورجالهم ، فازدادت ريحُهم بذلك ركوداً ، ونارهم خموداً .

« ولما ضمهم لضيق ولاجه الحصار ، وغشيهم بتفريق أمواجه البوار ، وأحاط بهم البلاء واستشاط عليهم بغضب الجبار القضاء ، ولم يكن لليل بأسائهم سحر يُتأمل ، ولا لِوَرْدِ ضرائهم صدر يؤمل ، اختاروا الدنية على المنية ، ورضوا بالاستسلام للعبودية ، وإسلام الأهل والذرية ، والسلامة من مدارج الكفن ، وموالج الجنن ، ولو بجريعة الذقن ، وكان القتل ـ كما قدمنا ـ قد أتى على صيد أعيانهم ، وصناديد فرسانهم ، فلم تبق إلا شرذمة قليلة ، وعُصبة ذليلة ، لا تضر حياتهم موحدًا ، ولا تسر نجاتهم مُلحدًا ، نقلناهم من يمين المنون ، إلى شمال الهون ، ومن أليم الحصار ، إلى لئيم الإسار ، وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم ، بعد أن قدموا من الخضوع صدقة بين يدى نجواهم ، ووهبنا أولاهم لأخراهم ، وجعلنا العفو عنهم تطريقاً لسواهم ، ممن يتقيل صنيعهم إذا نحن غداً بإذن الله حاصرناهم .

« وهذه القلعة التى انتهينا إلى قرارها ، واستولينا على أقطارها ، أرحب المدن أمداً للعيون ، وأخصبها بلداً فى السنين ، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها ، ولا يرُومها الجدب ولا يتعاطاها ، فروعها فوق الثريا شامخة ، عروقها تحت الثرى راسخة ، تُباهى بأزهارها نجوم السماء ، وتُناجى بأسرارها أذن الجوزاء ، مواقع القطار فى سواها مُغبرة مرُبدَّة ، وهى زاهرة ترف أنداؤها ، ومطالع الأنوار فى حشاها مقشعرة مسودة ، وهى ناضرة تشف أضواؤها ، وكانت فى الزمن الغابر ، أعيت على عظيم القياصر ، فنازلها بأكثر من القطر عددًا ، وحاولها بأوفر من البحر مددًا ، فأبت على طاعته كل الإبا ، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصا ، ومردت مرود ماردٍ على الزَّبا ، فأمكننا الله ـ تعالى ـ من ذروتها ، وأنزل رُكابها لنا عن صهوتها » .

ومن رسائله الإخوانيات رسالة كتب بها إلى أبى عبد الله محمد ابن أبى الخصال يخطب مودته ، ويستدعى من إخائه جدته :

« أنا مع عمادى الأعظم ـ أدام الله علوه ـ كعزيبٍ طواه الجهد ، وآواه من تهامة وهد ، وماله بريحها العقيم ولا بحرها المقعد المقيم عهد ، فرفضت به من سرابها المغرق وشرابها المحرق فى حمام ، فأشرف من ذلك الجحيم وضرمه ، لولا تنفيس الرحيم عنه بكرمه ، فوَألَ إلى ربوة من رُباها ، وسأل جبال فاران عن مهب صباها ، ليلتقط من أنفاسها بواسطة نجد ، برداً يهديه إلى حرِّ الوجد ، فحيته ببليل من نسيمها العليل ، فأحيته بعد التعليل » .

« وأنا ما قصدت فيما خطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتداء ، وإنما سلكتُ سبيل الاقتداء ، واتبعت دليل الاهتداء ، وأردت أن أستنير بأضوائك ، وأستثير من سمائك ، نجومًا تهدينى فى غسق الظلام ، أو رجومًا تعدينى على مُسترق سمع الكلام ، فإن سمح عمادى بالجواب ورجعه ، غالبت ـ بما حصل منه لدى ووصل إلىّ ـ الحمام فى سجعه ، والأنصار فى حسانها ، والإعصار فى نيسانها ، وطيئاً فى وليدها وحبيبها ، وسعداً فى خالدها وشبيبها ، وخرقت ـ بما أعار من مراح وأثار من ارتياح ـ جيب مخارق طربًا ، ولم أدع لأبى العتاهية فى المغرب وخفيفه المطرب أربًا ، وطويت كشحاً عن أغاريد عبيد ، وأضربت صفحًا عن أناشيد لبيد ، وطالبت بُلغاء العصر ، بالمثل المضروب فى جمل مصر ، وقلت هذه القارة فراموها وأَنصِفوا ، وهذه الغاية فروموها أو نصفوا ، وإن كانت تؤمه البواهر ما أُنْحِلت فى درجى ، ونجومه الزواهر ما حلت فى برجى ، وإن كفى من جنى ثماره لصفر ، وإن طرفى من سنا أقمارها لقفر ، وإنى بضنه علىّ بـدُرَّةٍ من بحره ، أو نفثة من سحره ، لبين ظنين ، لم أحصل من تحقيقهما على أثرٍ ولا عين : أحدهما قلت : إنه أجرى اسمى على خلده ، فلم يجدنى فى أنداده ولا بلده ، فقال : وما أنا وفلان ، وهل هو إلا من الغرب ، وإن كان بزعمه فى الصميم من العرْب ، وهل الغرب فى الأقطار ، إلا كاللحق بين الأسطار ، والآخر ربما يقول ، ما لا تقبله العقول : إنى لأنظر من فلان بأحد من نظر الزرقاء ، وإلى أجلّ من خطر العنقاء ، وينشد قول أبى العلاء ابن سليمان ، شاعر معرة النعمان :

*** أرى العنقاء تكبر أن تُصادا ***

« وأنا أقسم بالـربيع الممطر وائتلاف أوانه ، والبقيع المزهر واختلاف ألـوانه ، والشباب ودولته ، والمضراب وصولته ، والمثـانى إذا نسقت ، والقنانى وما وسقت ، وإن أقسمت من بعضها بيمين ، لا أتلقى رايتها بشمال ولا يمين ـ أن اسمى فى البلغاء والفُهَما ، كاسم العنقاء فى الأسما : اسم ما وقع على مسمى ، ولفظ ما دل على معنى فأين أقع مما تريد ، وكتابى بين يدى حمدى أو عتابى بريد ، ينفض تهائم ظنونى ، أو ينفض تمائم جنونى ، وله الرأى العالى فى الجواب ، على خطأ كنت من ظنٍّ أو صواب ، إن شاء الله عز وجل » .

« ومن سـلامى ، على عمادى الأعظم وإمـامى ، أحفله وأحفـده ، وأجـزله وأوفـده ، والسلام الأتم الأعم عليه ورحمة الله وبركاته » .

فراجعه الـوزير أبو عبد الله برسـالة لم يُكتب مثلها فى بابها ، أبدع فيها غـاية الإبداع ، وإن كـان فيها بعض تكلُّف ، تسمى هـذه الرسـالـة « الحولية » منعنى من إيـرادها فى هـذا المرسوم ما فيها من الطول .

ولأبى محمد عبد المجيـد المذكور إحسانٌ قد اشتهر عندنا بتلـك الأقطار شهرة الأمثال ، وسار ذكره فيها سير الجنوب والشمال .

واتصلت حـال أمير المسلمين يوسف ـ كما ذكرنـا ـ فى إيثـار الغزو ، وقمع ملك الـروم والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس ، إلى أن توفى فى شهور سنة ٤٩٣ (١) .

ولاية أبى الحسن على بن يوسف بن تاشفين

وقام بأمره من بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين ، وتلقب بلقب أبيه أمير المسلمين ، وسمى أصحابه « المرابطين » ، فجرى على سنن أبيه فى إيثار الجهاد ، وإخافة العدو ، وحماية البلاد ، وكـان حسن السيرة ، جيد الطويـة ، نزيه النفس ، بعيـداً عن الظلم ، كان إلى أن

(١) أجمع المؤرخون على أن موته سنة ٥٠٠ هـ .

يُعد فى الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعـدَّ فى الملوك والمتغلبين ، واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبتّ حكومة فى صغيرٍ من الأمور ولا كبيرٍ إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغًا عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس .

ولم يزل الفقهاء على ذلك ، وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم ، طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء ، كما ذكرنا ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم ، وفى ذلك يقول أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البنى ، من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس[1] .

أهل الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج فى الظلام العاتمِ

فملكتمو الدنيا بمذهب مالكٍ ... وقسمتمو الأموال بابن القاسمِ[2]

وركبتمو شُهب الدواب بأشهبٍ ... وبأصبغٍ صبغت لكم فى العالم

وإنما عرض أبو جعفر هذا فى هذه الأبيات بالقاضى أبى عبد الله محمد بن حمدين قاضى قرطبة ، وهو كان المقصود بهذه الأبيات ، ثم هجاه بعد هذا صريحًا بأبيات أولها :

أدَجَّالُ هذا أوان الخروج ... ويا شمس لوحى من المغرب

يُريد ابن حمدين أن يعتفى ... وجدواه أنأى من الكوكب

إذا سُئلَ العرف حك استه ... ليثبت دعواه فى تغلبِ

---

(١) ذكره الفتح ابن خاقان فى القلائد والمطمح .

(٢) من مشاهير علماء المالكية .

فى أمثـــال لهذه الأبيات ، وكان القـاضى أبو عبـــد الله ابن حمدين ينتسب إلى تغلب ابنه وائل .

ولم يكن يقـرب من أمير المسلمين ويحظى عنـده إلا من عَلم علم الفـروع ، أعنى فـروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كُتب المذهب وعُمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نُسى النظر فى كتاب الله وحديـث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحدٌ من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكـلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهـر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين وربما أدى أكثره إلى اختـلال فى العقائد ، فى أشبـاهٍ لهذه الأقوال ، حتى استحكم فى نفسـه بُغْضُ علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه فى كل وقت إلى البـلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه وتوعـد من وجد عنـده شىء من كتبـه ، ولما دخلت كتب أبى حامـد الغـزالى ـ رحمه اللـه ـ المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالـوعيد الشديد ، من سفك الدم واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شىء منها ، واشتدّ الأمر فى ذلك .

أعيان الكُتَّاب فى عهد أبى الحسن(١)

ولم يـزل أمير المسلمين من أول إمارتـه يستدعى أعيـان الكتاب من جـزيرة الأنـدلس ، وصرف عنـايته إلى ذلك ، حتى اجتمـع له منهم مـا لم يجتمع لملك ، كأبى القـاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، أحد رجال البلاغة ، وأبى بكـر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبى عبـد الله ابن أبى الخصـال ، وأخيـه أبى مروان ، وأبى محمـد عبـد المجيد بن عبـدون المذكور آنفا ، فى جماعة يكثُر ذكرهم .

(١) العنوان من عندنا .

وكان من أنبههم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه ، أبو عبد الله محمد ابن أبى الخصال ، وحُق له ذلك ، إذ هو آخر الكُتاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله - مع ذلك - فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباعُ الأرحب ، واليد الطولى .

فمما أختار له ، رحمه الله ، فصولاً من رسالة كتب بها مُراجعًا لبعض إخوانه ، عن رسالةٍ وردت عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ، وهذا الرجل صاحبُ الرسالة هو أبو الحسن على بن بسام صاحب كتاب الذخيرة :

« وصل من السيد المسترق ، والمالك المستحق ــ وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر الفضل عليه - كتابه البليغ ، واستدراجه المريغ ، فلولا أن يصلد زند اقتداحه ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتنقبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه - للزمت معه مركز قدرى ، وصُلتُ سريرة صدرى ، لكنه بنفثات سحره يُسمع الصم ، ويستنزل العُصم ، ويقتاد الصعب فيُصحَب ويستدر الصخور فتُحلَب .

« ولما فجأنى ابتداؤه ، وقرع سمعى نداؤه ، فرغت إلى الفكَر ، وخفق القلب بين الأمن والحذر ، فطاردت من الفِقَر أوابد قفر ، وشوارد عفر ، وتغبر فى وجه سائقها ، ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقِها ، فعلمت أنها الإهابة والمهابة ، والإصابة والاسترابة ، حتى أيأستنى الخواطر ، وأخلفتنى المواطر ، إلا زِبرْجاً يعقب جوادًا ، وبهرجاً لا يحتمل انتقادًا ، وأنى لمثلى والقريحة مرجاة ، والبضاعةمزجاة - ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب ، ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قدح ، ولا تحصل لى فى سوقه ربح ، ولكنه جو خال ، ومضمار جُهال ، وهى حكمة الله فى الخلق ، وقسمته للرزق ، وأنا - أعزك بالله - أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه النتف الأخيرة ، وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ، وأنا أخشى القدح فى اختيارك ، والإخلال بمختارك ، وعلى ذلك فوالله ما من عادتى أن أثبت ما أكتب فى رسم ينقل ، ولا فى وضع المراتب عندنا مخاطب يُتحفز له ويُحتفل ، وإنما هو عفو فكر ، ويسير ذكر » .

« وعذراً ــ أعزك اللـه ـ فإنى خططته مـا خطط والنوم مُغـازل ، والقُر منـازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليـه صولة الحجاج ، فطـورًا تسدده سنانًا ، وتارة تحركـه لسانًا ، وآونة تطـويه حُبابـة ، وأخرى تنشره ذؤابـة ، وتقيمه إبرة لهب ، وتعطفـه برة ذهـب ، أو حمة عقرب ، وتُقوسه حاجب فتاة ، ذات غمزات ، وتُسلطه على سليطة ، وتزيله عن خليطه ، وتخلعه نجماً ، وتمده رجماً ، وتسل روحه من ذبالهِ ، وتعيـده إلى حاله ، وربما نعبته أذن جواد ومسخته حـدق جراد ، ومشقتـه حروفاً بـرق ، بكف ودق ، ولثمت بسناه قنـديله ، وألقت على أعطافـه منديلـه ، فلا حظ منـه للعين ، ولا هدايـة فى الطرس لليـدين ، والليل زنجى الأديم ، تبرى النجوم ، قد جللنـا ساجه ، وأغرقتنا أمواجـه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت فيه الزرقـاء لاكتحلت ، أو خضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صـافح خيشومـه ذنبـه ، وأنكر البيت وطُنبه ، والتوى التـواء الحُباب ، واستدار استـدارة الحباب ، وجلـده الجليد ، وصعـد أنفاسـه الصعيد ، فحِماه مُبـاح ، ولا هريـر ولا نباح ، والنار كالرحيق ، أو كالصديق ، كلاهما عنقاء مُغرِب ، أو نجم مَغْرِب . استوى الفصل ، ولك فى الإغضاء الفضل والسلام » .

ولأبى عبد اللـه هذا ديوان رسـائل يدور بأيدى أدبـاء أهل الأندلس ، قد جعلـوه مثالاً يحتذونه ، ونصبوه إمـامًا يقتفونه ، منعنى من إيراد ما أختـار له من ذلك ، خوف الخروج إلى التطويل الممل ، والإكثار المخل .

فلم يزل أبو عبد الله هذا وأخـوه كاتبين لأمير المسلمين ، إلى أن أخـر أمـير المسـلمين أبا مروان عن الكتـابة ، لموجدةٍ كانت منه عليـه ، سببها أنه أمره وأخاه أبا عبـد الله أن يكتبا عنه إلى جنـد بلنســية ، حين تخاذلـوا وتواكلوا حتى هـزمهم ابن رذمير ـ لعنـه الله ـ هـزيمةً قبيحة ، وقتل منهم مقتلةً عظيمة ، فكتب أبوعبد الله رسالته المشهورة فى ذلك ، وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبـة أن يحفظوها ، أحسن فيها ما شاء ، منعنى من إيـرادها ما فيها من الطول ، وكتب أبـو مروان رسالة فى ذلك الغـرض ، أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة ، فمن فصولها قوله :

« أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلام يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواجد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نُوسعكم عقابًا ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نُعيدكم إلى صحرائكم ، ونُطهر الجزيرة من رحضائكم . . » .

فى أمثالٍ لهذا القول ، فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته ، وقال لأبى عبد الله أخيه : كنا فى شك من بغض أبى مروان المرابطين ، والآن قد صح عندنا : فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش ، وأقام هو بقرطبة إلى أن استشهد فى داره ـ رحمه الله ـ أول الفتنة الكائنة على المرابطين .

اختلال أحوال المرابطين

واختلت حال أمير المسلمين ـ رحمه الله ـ بعد الخمسمائة[1] اختلالا شديدا ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علىٍّ أمير المسلمين ، وأحق بلأمر منه ! .

واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزايد تغافله ، ويقوى ضعفه ، وقنع باسم إمرة المسلمين ، وبما يرفع إليه من الخراج ، وعكف على العبادة والتبتل ، فكان يقوم الليل ويصوم النهار ، مشتهرا عنه ذلك ، وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس ، وكادت تعود إلى حالها الأول ، لاسيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسوس .

---

(١) وردت فى الأصل عام ٤٩٠ هـ .

ذكر قيام محمد بن تومرت
المتسمى بالمهدى
وبدء أمر الموحدين بالمغرب والأندلس

ولما كانت سنة ٥١٥[١] قام بسوس محمد بن عبد الله بن تـومرت فى صورة آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر .

ومحمد هذا رجل من أهل سوس[٢] ، مولـده بها بضيعة منهـا تعرف بإيجلى أنْ وارْغن ، وهو من قبيلة تسمى هـرغة ، من قوم يعرفون بإيسر غينن ، وهم الشرفاء بلسـان المصامدة ، ولمحمـد بن تومـرت نسبة متصلـة بالحســن بن الحســن بن على بن أبى طالب وجـدت بخطه[٣] ، وكان قـد رحل إلى المشرق فى شهـور سنة ٥٠١[٤] فى طلب العلـم ، وانتهى إلى بغداد ، ولقى أبا بكـر الشاشى فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقـه وأصول الدين[٥] ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبـار ونظرائه من المحدثين ، وقيل : إنه لقى أبا حـامد الغزالى بالشام أيام تزهده ، فالله أعلم[٦] .

وحُكى أنـه ذكـر للغـزالى مـا فعـل أمير المسلمين بكتبـه التى وصلت إلى المغـرب ، من إحراقها وإفسادها ، وابن تومرت حاضر ذلك المجـلس ، فقال الغزالى حـين بلغه ذلك : « ليذهبن عن قليل ملكـه ، وليُقتلن ولده ، وما أحسب المتولى لـذلك إلا حاضراً مجلسنا ! »

---

(١) قيل : إن ظهور دعوته بدأت من عام ٥١٤ هـ .
(٢) ويقع فى أقصى المغرب (جبل السوس) .
(٣) ورد فى وفيات الأعيان .
(٤) كان يبلغ من العمر سبع عشرة سنة .
(٥) المقصود به علم الكلام .
(٦) تفقه على أبى بكر الطرطوشى والكيا الهراسى والغزالى .

وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم ، فقوى طمعه .

وكر راجعًا إلى الإسكندرية ، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبى بكر الطرطوشى الفقيه ، وجرت له بها وقائع فى معنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أفضت إلى أن نفاه متولى الإسكندرية عن البلاد ، فركب البحر ، فبلغنى أنه استمر على عادته فى السفينة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهل السفينة فى البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى فى ماء السفينة لم يصبه شىء ، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعَظُم فى صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية[1] فأظهر بها تدريس العلم والوعظ ، واجتمع عليه الناس ، ومالت إليه القلوب ، فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته ، فخرج منها متوجهاً إلى المغرب ، فنزل بضيعة يقال لها ملالة ، على فرسخ من بجاية ، وبها لقيه عبد المؤمن بن على ، وهو إذ ذاك متوجهٌ إلى المشرق فى طلب العلم ، فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التى كانت عنده ، وكان ابن تومرت هذا أوحد عصره فى علم خط الرمل ، مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجُفورٍ من بعض خزائن خلفاء بنى العباس ، أوصله إلى ذلك كله فرط اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدث به نفسه[2] .

---

(١) بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب . كان أول من اختطها الناصر ابن علناس بن حماد بن بلكين فى حدود سنة ٤٥٧ هـ ، بينها وبين جزيرة بنى مرغناى أربعة أيام .

(٢) روى ابن خلكان أن محمد بن تومرت كان قد اطلع على كتاب يسمى الجفر من علوم أهل البيت ، وأنه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى ، بمكان يسمى السوس ، وهو من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ، ويكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب ، هجاء اسمه ت ى ن م ل ل ورأى فيه أيضا أن استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكنه ، يكون على يد رجل من أصحابه هجاء اسمه ع ب د م و م ن ، ويجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة ، فأوقع الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى نفسه أنه القائم بأول الأمر ، وأن أوانه قد أزف ، فما كان ابن تومرت يمر بموضع إلا ويسأل عنه ، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقد حليته ـ وكانت حلية عبد المؤمن معه ـ فبينما هو فى الطريق رأى شابا قد بلغ أشده ، على الصفة التى معه ، فقال له وقد تجاوزه : ماسمك يا شاب ؟ فقال : عبد المؤمن ، فرجع إليه وقال له : الله أكبر ! أنت بغيتى . ونظر فى حليته فوافقت ما عنده . . . (=)

وبلغني من طرق صحاح أنه لما نزل ملالة ـ الضيعة التى تقدم ذكرها ـ سُمع وهو يقول : ملالة ! ملالة ! يكررها على لسانه يتأمل أحرفها ، وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع فى اسمه ميم ولامان ، فكان ـ كما ذكرنا ـ إذا كررها يقول : ليست هى !

وأقام بهذه الضيعة أشهرًا ، وبها مسجد يعرف به ، وهو باقٍ إلى اليوم ، لا أدرى أبُنى على عهده أو بعده .

. . . فاستدعى عبد المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فتسمى له وانتسب[1] ، وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل فى طلب العلم إلى المشرق ، فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ، تصحبنى وتُعيننى على ما أنا بصدده ، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراده .

وأقام ابن تومرت بملالة أشهرًا ، ثم رحل عنها ، وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد ، يعرفه المصامدة بعبد الواحد الشرقى[2] ، وهو أول من صحبه بعد عبد المؤمن ، وخرج متوجهاً إلى المغرب .

(=) و الجفر فى اللغة : جلد يتخذ من الماعز ، وكانوا يكتبون عليه ، فزعم الروافض أن الإمام جعفراً الصادق قد كتب لهم فى جفر من جلد الماعز كل ما يحتاجون إليه وكل ما هو كائن أو سيكون إلى يوم القيامة . . .

وحديث الجفور طويل فى بعض كتب الشيعة ومن يعارضهم من أهل الجماعة .

(١) رواية ابن الأثير أن ابن تومرت سأله عن اسمه وقبيلته ، فأخبره أنه من قيس عيلان ، ثم من بنى سليم ، فقال ابن تومرت : هذا الذى بشر به النبى صلى الله عليه وسلم حين قال : « إن الله ينصر هذا الدين فى آخر الزمان برجل من قيس ، فقيل : من أى قيس ؟ فقال : من بنى سليم » .

(٢) نظنه يعنى أبا عبد الله الونشريسى ، كما ذكر ابن الأثير ، أو أبا عبد الله التومرتى كما يسميه ابن كثير ، ويذكره ابن خلكان باسم عبد الله الونشريسى بلا كنية ، أولئك جميعًا ـ فيما نرى ـ شخص واحد ، اسمه عبد الواحد ، وكنيته أبو عبد الله ، وينتسب إلى « ونشريس » بليدة بإفريقية من أعمال بجاية بين باجة وقسطنطينية المغرب ، إلى الشرق من جبل المصامدة ، فهو الشرقى ، والونشريسى ، والتومرتى ، من أجل ذلك جميعًا .

وقيل : إنه[1] إنما لقى عبد المؤمن بموضع يعرف بفنـزارة من بلاد متيجة ، وعبد المؤمن يعلم صبيان القرية المذكورة ، فسأله ابن تومرت صُحبته والقراءة عليه وإعانته ، بعد أن عرفه بالعلامات ، كما قد تقدم .

وبهذه القرية له حكاية طريفة ، وذلك أنه[2] رأى ـ وهو بها فى المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين على بن يوسف فى صحفة واحدة ، قال : ثم زاد أكلى على أكله وأحسست من نفسى شرهاً إلى الطعام ، ولم يزل ذلك بى إلى أن اختطفت الصحفة من بين يديه وانفردت بها ! فلما انتبه قصَّ الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه ، اسمه عبد المنعم بن عشير ، يكنى أبا محمد ، كان يقرأ عليه ، فلما أتى على آخرها ، قال[3]: يا بنى ، يا عبد المؤمن ، هذه الرؤيا لا ينبغى أن تكون لك ، إنما هى لرجل ثائر ، يثور على أمير المسلمين فيشاركه فى بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها !

واتفق له فيها أيضاً من العجائب التى تثبتُ فى باب الكلم الموافقة للقدر ، أن رجلاً من وجوه أصحاب الملك العزيز ابن المنصور الصنهاجى صاحب بجاية والقلعة ، وجد عليه الملك العزير ، فاشتد خوفه ، فهرب منه إلى هذه الضيعة التى كان فيها عبد المؤمن ، فكان معه بها يعلم الصبيان ، وانتهت حال ذلك الرجل إلى غاية الإقلال ، ثم اتفق أن صاحبه رضى عنه ، فبلغه ذلك فسار إلى بجاية ، فدخل عليه فسأله : أين كنت فى هذه الأيام ؟ فأخبره بقصته وكيف كان الصبيان يحيونه بالكسر ! فضحك وقال : الضيعة لك وما والاها ! وأمر له بمال ومركب وثياب ، فخرج الرجل إلى الضيعة فى خيل ورجال معه ، وخرج إليه أهلها يتلقونه ، فأتى الصبيان عبد المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد ، فقالوا له : أتعرف من هذا الذى اهتزت له هذه الأرض ؟ قال : لا ! قالوا : هو فلان صاحبك الذى كان يعلمنا

---

(١) المقصود به ابن تومرت .
(٢) المقصود به عبد المؤمن .
(٣) المقصود به ابن عشير .

معك ! فقال : إن كانت حـال فلان انتهت إلى هذا ، فلابد أن أكـون أنا غداً أمير المؤمنين ! فكان الأمر كما قال ، ووافقت كلمته القدر .

وخرج ابن تومـرت ـ كما ذكرنا ـ متـوجهاً إلى المغرب ، حتى أتى مدينـة تلمسان ، فأقام بمسجد بظاهرها يعرف بالعباد ، جاريـاً على عادته ، وكان قد وضع له فى النفوس هيبة وفى الصدور عظمـة ، فلا يـراه أحـــــد إلا هابـه ، وعظم أمره ، وكـان شديـد الصمت كثير الانقباض ، إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة . . .

أخبرنى بعض أشيـاخ تلمســـان عن رجل من الصـالحين كان معتكفًـا معه بمسجـد العباد ، أنـه خرج عليهـم ذات ليلة بعد مـا صلى العتمة ، فنظـر إليهم وقال : أيـن فلان ؟ لرجـل كان يصحبهم ، فأخبروه أنـه مسجون ، فقام من وقتـه ودعا بـرجل منهم يمشى بين يديه ، حتى أتى بـاب المدينة ، فدق على البواب دقًّا عنيفاً ، واستفتح ، فأجـابه البواب إلى الفتح بسرعـة من غير تلكؤ ولا إبطـاء ، ولو استفتح أمير البلـد لتعذر ذلك عليـه ، ودخل حتى أتى السجن ، فابتدر إليه السجانون والحرس يتمسحـون به ، ونادى : يا فلان ! باسم صاحبهم ، فأجابه ، فقال : اخرج ! والسجـانون ينظرون إليه كأنما أفرغ عليهم الماء الحار ، وخرج بصاحبه حتى أتى المســـجد ، وكانت هذه عادته فى كل ما يريـد ، لا يتعـــذر عليه مراد ، ولا يمتنع عليه مطلوب ، وقد سُخرت له الرعية ، وذُلِّلت له الجبابرة .

ولم يزل مقيماً بتلمســان وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور ، إلى أن فصل عنهـا بعد أن استمال وجوه أهلها وملك قلوبها ، فخرج قاصداً مدينة فاس ، فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره ، وتحدث فيما كان يتحدث فيه من العلم ، وكان جـل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية ، وكان أهل المغـرب ـ على ما ذكرنا(١) ـ ينافرون هـذه العلوم ، ويعادون من ظهرت عليه ، شديداً أمرهُم فى ذلك ، فجمع والى المدينة الفقهاء وأحضره معهم ، فجرت له

---

(١) انظر : الحلة السيراء ١/ ١٥٠ ـ ١٥٤ .

مناظرة كان له الشفوف فيها والظهور ، لأنه وجد جوًّا خاليًا ، وألفى قوماً صياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علم الفروع ، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا إلى والى البلاد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام ، فأمره والى البلد بالخروج ، فخرج متوجهاً إلى مراكش .

ابن تومرت فى حضرة ابن تاشفين

وكُتب بخبره إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فلما دخلها أحضر بين يديه ، وجمع له الفقهاء للمناظرة[1] ، فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول ، حاشا رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب كان قد شارك فى جميع العلوم ، إلا أنه كان لا يظهر إلا ما ينفقُ فى ذلك الزمان ، وكانت لديه فنون من العلم ، رأيت له كتاباً سماه « قُراضة الذهب ، فى ذكر لئام العرب » ضمنه لئام العرب فى الجاهلية والإسلام ، وضم إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب ، فجاء الكتاب لا نظير له فى فنه ، رأيته فى خزانة بنى عبد المؤمن .

ولمالك بن وهيبٍ هذا تحقق بكثير من أجزاء الفلسفة ، رأيت بخطه كتاب « الثمرة » لبطليموس فى الأحكام ، وكتاب « المجسطى » فى علم الهيئة ، وعليه حواشٍ بتقييده أيام قراءته إياه على رجل من أهل قرطبة اسمه حمد الذهبى .

ولما سمع مالك هذا كلام محمد بن تومرت ، استشعر حدة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته ، فأشار على أمير المسلمين بقتله ، وقال : هذا رجل مُفسد لا تؤمَن غائلته ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه ، وإن وقع هذا فى بلاد المصامدة ثار علينا منه شر كثير ! فتوقف أمير المسلمين فى قتله ، وأبى ذلك عليه دينه ، وكان رجلاً صالحاً مجاب الدعوة ، يُعد فى قوَّام الليل وصُوَّام النهار ، إلا أنه كان ضعيفاً مستضعَفًا ، ظهرت فى آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة ، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمور ، وكان كل شرير من

---

(١) ذكر ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان رواية مختلفة .

لص أو قاطع طريق ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأ له ووزراً على ماتقدم . . .

. . . فلما يئس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت ، فقال أمير المسلمين : علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق ؟ وهل السجن إلا أخو القتل ؟ ولكن نأمره أن يخرج عنا من البلد وليتوجه حيث شاء !

فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سوس ، فنزل بموضع منها يعرف بتينمل .

بدء دعوة الموحدين

من هذا الموضع قامت دعوته ، وبه قبره ، ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة ، فشرع فى تدريس العلم والدعاء إلى الخير ، من غير أن يظهر إمرة ولا طلبة مُلك ، وألف لهم عقيدة بلسانهم ، وكان أفصح أهل زمانه فى ذلك اللسان ، فلما فهموا معانى تلك العقيدة زاد تعظيمهم له ، وأشربت قلوبهم محبته ، وأجسامهم طاعته ، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولا على صورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا غير ، ونهاهم عن سفك الدماء ولم يأذن لهم فيها ، وأقاموا على ذلك مدة ، وأمر رجالا منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل ، وجعل يذكر المهدى ويشوق إليه ، وجمع الأحاديث التى جاءت فيه من المصنفات ، فلما قرر فى نفوسهم فضيلة المهدى ونسبه ونعته ، ادعى ذلك لنفسه ، وقال أنا محمد بن عبد الله . . . ورفع نسبه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدى المعصوم ، وروى فى ذلك أحاديث كثيرة ، حتى استقرَّ عندهم أنه المهدى ، وبسط يده فبايعوه على ذلك ، وقال : أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رسولَ الله .

ثم صنف لهم تصانيف فى العلم ، منها كتاب سماه « أعَزُّ ما يُطْلَبُ » ، وعقائد فى

أصول الدين ، وكان على مذهب أبى الحسن الأشعرى(1) فى أكثر المسائل ، إلا فى إثبات الصفات ، فإنه وافق المعتزلة فى نفيها وفى مسائل قليلة غيرها ، وكان يبطن شيئاً من التشيع ، غير أنه لم يُظْهر منه إلى العامة شيئًا .

طبقات الموحدين

وصنف أصحابه طبقات ، فجعل منهم العشرة ، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته ، وهم المسمون بالجماعة ، وجعل منهم الخمسين ، وهم الطبقة الثانية ، وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة ، بل هم من قبائل شتى ، وكان يسميهم المؤمنين ، ويقول لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم ، وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام : «لاتزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتى أمر الله » . « وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ، ويقتل الدجال ، ومنكم الأمير الذى يصلى بعيسى ابن مريم ، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة ، هذا مع جزئيات كان يخبرهم بها وقع أكثرها ، وكان يقول : لو شئت أن أعد خلفاءكم خليفة خليفة . . .

فزادت فتنة القوم به ، وأظهروا له شدة الطاعة .

وقد نظم هذا الذى وصفناه من قول ابن تومرت فى تخليد هذا الأمر ، رجلٌ من أهل الجزائر ، مدينة من أعمال بجاية ، وفد على أمير المؤمنين أبى يعقوب(2) وهو بتينمل ، فقام على قبر ابن تومرت بمحضرٍ من الموحدين وأنشد قصيدة أولها :

سلامٌ على قبر الإمام المجدِ ... سلالة خير العالمين محمدِ

ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه ... وفى اسم أبيه والقضاء المسددِ

---

(1) انظر : الفهرست لابن النديم .

(2) وهو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

ومحيى علــوم الـدين بعــد مماتها ومظهــر أسرار الكتــاب المســدد

أتتنـا بـه البشرى بأن يمـلأ الـدنـا بقسطٍ وعــدلٍ فى الأنــام مخلــدِ

ويفتتح الأمصــار شرقـاً ومغــربًـا ويملك عــربـا من مغيرٍ ومنجـد

فمن وصفـــه : أقنـى وأَجلى وأنـــه عــلامـاتُــه خمس تبين لمهتـدى :

زمــانٌ ، واسمٌ ، والمكـــانُ ونسبــة وفعلٌ لـــه فى عصمــةٍ وتأيــدِ

ويلبثُ سبعــاً أو فتسعـا يعيشهــا كــذا جـاء فى نصٍّ من النقلِ مُسنـدِ

فقـد عــاش تسعــاً مثل قـول نبينـا فـذلكمُ المهــدى بـاللــه يهتـدى

وتتبعـــه للنصر طــائفـــة الهدى فأكـرم بهم إخـوان ذى الصـدق أحمد

هى الثُّلَّـة المذكـور فى الـذكـر أمـرهـا وطــائفـةُ المهـدى بـالحق تهتـدى

ويقـدمُهـا المنصـور والنـاصرُ الـذى لـه النصرُ حـزب إذ يـروح ويغتـدى

هــو المنتقى من قيـس عيـلان مفخـرًا ومن مُــرةٍ أهـل الجلال الموطـــد

خليفـــة مهــدى الإلـــه وسيفُــه ومن قـد غدا بـالعلم والحلم مُرتـدى

بهم يقمع اللـــه الجبـــابـرة الأولى يصـدون عن حُكم مـن الحق مُـرشـد

ويقطع أيــام الجبـــابـــرة التى أبـــادت من الإســـلام كل مشيــدِ

فيغــزون أعـراب الجزيـــرة عنــوةً ويعــرون منهـا فـارسـاً وكأنْ قـدِ

ويفتتحــون الـــروم فتح غنيمــةٍ ويقتسمــون المال بـالترس عن يــدِ

ويغـدون للـدجال يغـزونـه ضُحَى ويُـذيقـونـه حـد الحسـام المهنـدِ

ويقتلـــه فى بـــابِ لُـــد وتنجلى شكــوك أمـالت قلـب من لم يـوحِّـد

وينــــزل عيســى فيهم وأميرهـم إمــام فيـدعــوهم لمحـراب مسجــد

يصلى بهم ذاك الأمير صـــــــلاتهم بتقــديم عيسى المصطفى عن تعمـدِ

فيمسح بـــالكفين منـــه وجــوههم ويخبرهـم حقـــا بعــــزٍّ مجدد

ومـــا إن يـــزال الأمـــر فيـــه وفيهم إلى آخــر الــدهــر الطـويل المسرمـدِ

فـأبلـغ أمير المؤمنين تحيـــــــــةً على النأى منـى والـــودادِ المؤكـــد

عليـــه ســـلام الله مـــا ذر شـــارق ومـا صــدَر الـورَّاد عـن وِردِ مـورد

وقد قيل : إن منشىء هـذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهـد ولم ينشدها بنفسـه ، منعته عن ذلك الكبر وبعـد الشقة ، وإنما أرسل بها فأنشـدت على قبر الإمام ، وكـان عمله إيـاها وعبد المؤمن حى ، فاللـه أعلم ، وهى طويلة ، هذا ما اخترت له منهـا ، ولم أُوردها فى هذا الموضع لأنها من مختار الشعر ، ولكن لموافقتها الفصل الذى قبلها .

ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر ، وفتنتهم به تشتد ، وتعظيمهم له يتأكد ، إلى أن بلغوا فى ذلك إلى حـد لو أُمر أحـدهم بقتل أبيه أو أخيـه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غـير إبطاء ، وأعانهم على ذلك وهوَّنه عليهم ما فى طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ، وهذا أمر جبلت عليه فطرهم واقتضاه ميل إقليمهم .

حكى أبو عبيد البكـرى الأندلسى ثم القرطبى فى كتابه الموسـوم بـ « المسالك والممالك » عن رجال ، قال : أهديت إلى الإسكندر فـرسٌ ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها ، ولم يكن فيها عيبٌ إلا أنهـــا لم يسمع لها صهيل قط ، فلما حل الإسكنـدر فى تطوافـه بجبال درن ، وهى بلاد المصـامدة ، وشربت تلك الفـرس من مياههـا ، صهلت صهلةً اصطكت منها الجبال ، فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك ، فكتب إليه : إنها بلاد شر وقسوة ، فعجل الخروج منها !

فهذه حال بـلاد القوم ، وأما خفة سفك الدمـاء عليهم فقد شهدت أنا منـه أيام كونى بسوس ما قضيت منه العجب .

***

ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جلهم من أهل تينمل ، مع من انضاف إليهم من أهل سوس ، وقال لهم : اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين ، فادعوهم إلى إماتة المنكر ، وإحياء المعروف ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدى المعصوم ، فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم مالهم وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم .

وأمر على الجيش عبد المؤمن بن على ، وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين .

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش[1] ، فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة ، بجيش ضخم من سراة لمتونة ، أميرهم الزبير بن على بن يوسف بن تاشفين ، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت ، فردوا عليهم أسوأ رد ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين على بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت ، فرد عليه أمير المسلمين يحذره عاقبة مفارقة الجماعة ، ويذكره الله فى سفك الدماء وإثارة الفتنة ، فلم يردع ذلك عبد المؤمن ، بل زاده طمعاً فى المرابطين وحقق عنده ضعفهم ، فالتقت الفئتان ، فانهزم المصامدة وقُتل منهم خلق كثير ، ونجا عبد المؤمن فى نفرٍ من أصحابه ، فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا : نعم ، قال : لم يُفقد أحد !

ولما رجع القوم إلى ابن تومرت ، جعل يُهون عليهم أمر الهزيمة ، ويُقرر عندهم أن قتلاهم شهداء ؛ لأنهم ذابوُّن عن دين الله ، مُظهرون للسنة ، فزادهم ذلك بصيرة فى

---

(١) قامت هذه المعركة أواخر سنة ٥٢٤ هـ ، وقد قمت قبلها بأكثر من معركة .

أمرهم ، وحرصاً على لقاء عدوهم ، ومن حينئذ جعل المصامدة يشنون الغارات على نواحى مراكش ، ويقطعون عنها مواد المعايش وموصول المرافق ، ويقتلون ويسبون ، ولا يبقون على أحد ممن قدروا عليه ، وكثر الداخلون فى طاعتهم والمنحاشون إليهم ، وابن تومرت فى ذلك كله يكثر التزهد والتقلل ، ويظهر التشبه بالصالحين ، والتشدد فى إقامة الحدود ، جاريًا فى ذلك على السنة الأولى .

أخبرنى من رآه - ممن أثق إليه - يضرب الناس على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل ، متشبهًا فى ذلك بالصحابة .

ولقد أخبرنى بعض من شهده وقد أُتِيَ برجل سكران ، فأمر بحده ، فقال رجل من وجوه أصحابه يسمى يوسف بن سليمان : لو شددنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لنحسم هذه العلة من أصلها . . . ! فأعرض عنه ، ثم عاد عليه الحديث ، فأعرض عنه ، فلما كان فى الثالثة قال له : أرأيت لو قال لنا : شربنا فى دار يوسف بن سليمان ، مانحن صانعون ؟ فاستحيا الرجل وسكت ، ثم كشف على الأمر ، فإذا عبيد ذلك الرجل سقوه ، فكان هذا من جملة مازادهم به فتنة وتعظيما ، إلى أشياء كان يخبر بها فتقع كما يُخبر .

ولم يزل كذلك وأحواله صالحة ، وأصحابه ظاهرون ، وأحوال المرابطين المذكورين تختل ، وانتقاض دولتهم يتزايد ، إلى أن توفى ابن تومرت المذكور فى شهور سنة ٥٢٤ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورسم لهم ما هم فاعلوه .

ذكر ولاية عبد المؤمن

ثم قام بالأمر من بعده عبد المؤمن بن على ، وبايعه المصامدة ، واتفقت على تقديمه الجماعة ، وكان الذين سعوا فى تقديمه وهيَّأوا ذلك له ثلاثة ، وهم من أهل الجماعة : عمر ابن عبد الله الصنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج ، وعمر ابن ومزال ــ الذى كان اسمه قبل هذا فصكة فسماه ابن تومرت عمر ، يعرفونه بعمر إينْتى - وعبد الله بن سليمان من أهل

تينمل ، من قبيلة يقال لها مسكالة ، ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين وباقى الموحدين .

[وصية ابن تومرت]

وذلك أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة ، استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة ، وأهل خمسين ، وهم ـ كما ذكرنا ـ من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا المصامدة ، فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئًا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين ، رضوان الله عليهم ، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات فى دينهم ، والعزيمة فى أمرهم ، وأن أحدهم كان لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وذكر من حد عمر رضى الله عنه ابنه فى الخمر ، وتصميمه على الحق ، فى أشباه لهذه الفصول ، ثم قال : « . . . فانقرضت هذه العصابة ـ نضر الله وجوهها ، وشكر لها سعيها ، وجزاها خيراً عن أمة نبيها ـ وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران ، والعالم متجاهلاً مداهنًا ، فلم ينتفع العلماء بعلمهم ، بل قصدوا به الملوك ، واجتلبوا به الدنيا ، وأمالوا وجوه الناس إليهم . . . » فى أشباه لهذا القول ، إلى هلم جرا :

« ثم إن الله ـ سبحانه وله الحمد ـ مَنّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده ، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده ، وقيض لكم من ألفاكم ضُلالا لاتهتدون ، وعُمياً لا تبصرون ، لاتعرفون معروفاً ، ولا تُنكرون منكرًا ، قد فشت فيكم البدع ، واستهوتكم الأباطيل ، وزين لكم الشيطان أضاليل وتُرهات أنزه لسانى عن النطق بها ، وأربأ بلفظى عن ذكرها ، فهداكم الله به بعد الضلالة ، وبصركم بعد العمى ، وجمعكم بعد الفرقة ، وأعزكم بعد الذلة ، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين ، وسيورثكم أرضهم وديارهم ، ذلك مما كسبته أيديهم ، وأضمرته قلوبهم ، وما ربك بظلام للعبيد ، فجددوا لله ـ سبحانه ـ خالص نياتكم ، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزكى به سعيكم ، ويتقبل أعمالكم ، وينشر

أمركم ، واحذروا الفـرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء ، وكونوا يـداً واحدة على عدوكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك ، هــابكم الناس وأسرعوا إلى طـاعتكم ، وكثر أتباعكم ، وأظهر الله الحق على أيديكم ، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصَّغار واحتقرتكم العامة فتختفطكم الخاصة ، وعليكم فى جميع أمـوركم بمزج الرأفة بـالغلظة ، واللين بالعنف ، واعلموا ــ مـع هذا ـ أنه لا يصلـح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذى صلح عليه أمـر أولها ، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم ، وجعلناه أميراً عليكم ، هـذا بعد أن بلوناه فى جميع أحـواله ، من ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته وعلانيته ، فرأيناهُ فى ذلك كله ثبتاً فى دينه ، متبصراً فى أمره ، وإنى لأرجو ألا يُخلف الظن فيه ، وهـذا المشار إليه هو عبد المؤمن ، فاسمعـوا له وأطيعوا مادام سامعـاً مطيعاً لربه ، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتـاب فى أمره ، ففى الموحدين ـ أعزهم الله ـ بركة وخير كثير، والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده » .

فبايع القـوم عبد المؤمن ، ودعـا لهم ابن تومـرت ، ومسح وجوههم وصـدورهم واحداً واحـدا ، فهذا سبب إمـرة عبد المؤمن رحمه اللـه ، ثم تـوفى ابن تومـرت بعد عهـده بيسير ، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن .

***

فصـــل

حياة عبد المؤمن وأعماله وعماله

وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن على بن علوى الكومى(١) .

حُرة كومية أيضًا ، من قوم يقال لهم بنو مُجبر ، مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا ، وقيل : إنه يقول إذا ذكر كومية : لست منهم ، إنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم ، وهم الأخوال . وهكذا أدركت من أدركت من أولاده وأولاد أولاده ينتسبون لقيس عيلان بن مضر ، وبهذا استجاز الخطباء أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تومرت : « قسيمُه رضى الله عنه فى النسب الكريم » .

وكان مولده فى آخر سنة ٤٨٧ فى أيام يوسف بن تاسفين ، وكانت وفاته فى شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ ، ومدة ولايته من حين استوثق له الأمر بموت على بن يوسف أمير المسلمين - فى سنة ٣٧ على التحقيق - إحدى وعشرين سنة ، إلى أن توفى فى التاريخ المذكور .

وكان أبيض ذا جسم عممٍ تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، معتدل القامة ، وضىء الوجه ، جهورى الصوت ، فصيح الألفاظ ، جزل المنطق ، وكان محبباً إلى النفوس ، لا يراه أحد إلا أحبه بديهة ، وبلغنى أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه :

تكاملت فيك أخلاق خُصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومُغتبط

فالسنُّ ضاحكة ، والكفُّ مانحة ... والصدر منشرح ، والوجه مُنبسط

---

(١) نسبة إلى قبيلة تسمى كومة وأحيانًا يطلق عليها كومية تقع على ساحل البحر بالقرب من مدينة تلمسان .

أولاده

كان له من الولد ستة عشر ذكرًا ، وهم : محمد وهو أكبر ولده وولى عهده وهو الذى خُلع ، وعلى ، وعمر، ويوسف ، وعثمان ، وسليمان ، ويحيى ، وإسماعيل ، والحسن ، والحسين ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، وعيسى ، وموسى ، وإبراهيم ، ويعقوب .

وزراؤه

وزر له فى أول الأمر أبو حفص عمر أزناج ، إلى أن استقر الأمر واستقل عبد المؤمن ، فأجلى أبا حفص هذا عن الوزارة وربأ بقدره عنها ، إذ كان عندهم فوق ذلك ، واستوزر أبا جعفر أحمد بن عطية ، فجمع بين الوزارة والكتابة ، فهو معدود فى الكتاب والوزراء ، فلم يزل عبد المؤمن يجمعهما له إلى أن افتتحوا بجاية ، فاستكتب عبد المؤمن من أهلها رجلا من نبهاء الكتاب يقال له : أبو القاسم القالمى ـ وسيأتى ذكره فى كتابه ـ واستمرت وزارة أبى جعفر إلى أن قتله عبد المؤمن فى شهور سنة ٥٣ واستصفى أمواله ، ثم وزر له عبد السلام الكومى ، وكان يدعى المُقَرَّب ، لشدة تقريب عبد المؤمن إياه ، فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المؤمن مَن قتله خنقا فى شهور سنة ٥٥٧ ، ثم وزر له ابنه عمر إلى أن توفى عبد المؤمن .

كتابه

أبو جعفر أحمد بن عطية المذكور فى الوزراء ، كان قبل اتصاله بعبد المؤمن وفى الدولة اللمتونية ، يكتب لعلى بن يوسف فى آخر أيامه ، وكتب عن تاشفين بن على بن يوسف ، فلما انقرض أمرهم هرب وغيَّر هيئته وتشبه بالجند ، وكان محسنًا للرمى ، وكان فى الجند الذين خرجوا إلى سوس لقتال ثائر قام هناك ، كان الأمير على هذا الجند أبو حفص عمر إينتى المتقدم الذكر فى أهل الجماعة ، فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقُتل هو وانفضت تلك الجموع ، طلب أبو حفص من يكتب عنه صورة هذه الكائنة إلى الموحدين الذين بمراكش ،

فدُل على أبى جعفـر هذا ونُبه على مكـانه ، فاستدعـاه ، وكتب عنه إلى الموحدين رسـالة فى شرح الحـــال ، أجاد فى أكثرهـا ما شـاء ، منعنى من رسمهـا فى هذا الموضوع مـا فيها من الطول ، فلما بلغت الـرسالة عبـد المؤمن استحسنها واسـتدعى أبا جعفرٍ هـذا واستكتبه ، وزاده إلى الكتابة الوزارة ، لما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله ، فلم يزل وزيره ـ كما ذكرنا ـ إلى أن قتله فى التـاريخ الذى ذُكر ، وكان سبب قتلـه ـ فيما بلغنى ـ أنه كـانت عنده بنت أبى بكر ابن يوسف بن تـاشفين ، التى تعرف ببنت الصحراوية ، وأخـوها يحيى فارس المرابطين المشهـور عنـدهم ، يُعرف أيضـا بيحيى ابن الصحـراويـة[1] ، فحظى يحيى هـذا عنـــد الموحدين ، وقـوّدوه على من وَحَّدَ من لمتـونة ، ولم يزل وجيهًـا عندهم مُكـرمًا لديهم ــ وكان خليقًا بذلـك ـ إلى أن نقلت عنه إلى عبد المؤمن أشيـاء كان يفعلها وأقوالٌ كـان يقولها أحنقته عليـه ، فتحدث عبـد المؤمن ببعض ذلك فى مجالسـه ، وربما هَمَّ بالقبض على يحيى هـذا ، فرأى الـوزير أبـو جعفر أن يجمع بين المصلحتين ، مـن نصح أميره ، وتحذير صهـره ، فقال لامرأته أخت يحيى المذكور : قولى لأخيك يتحفظ ، وإذا دعوناه غداً فليعتل ويُظهر المرض ، وإن قدر على الهروب واللحاق بجزيرة ميرقـة فليفعل ! فأخبرته أخته بذلك ، فتمارض وأظهر أن ألماً به ، فزاره وجـوه أصحابه وسألوه عن علتـه ، فأسر إلى بعضهم ـ ممن كان يثق بـه ـ ما بلغه عن الوزير ، فخرج ذلك الرجل الذى أَسَرَّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبـد المؤمن ، فكان هـذا هو السبب الأكبر فى قتل أبى جعفـر المذكور ، وأمـر أمير المؤمنين عبد المؤمن بتقييد يحيى المذكور وسجنه ، فكان من سجنه إلى أن مات !

ثم كتـــب له بعد أبى جعفـر هذا : أبو القاسم عبـد الرحمن القالمى ، من أهل مـدينة بجاية ، من ضيعة من أعمالها تعرف بقالم ، وكتب لـه معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة .

---

(١) انظر : وفيات الأعيان .

قضـــاته

أبو محمد عبد الله بن جبل ، من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان ، ثم عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بـالمالقى ، لم يزل قاضيا له إلى أن توفى عبـد المؤمن ، وصدراً من خلافـة أبى يعقوب .

رجع الحديث إلى أخبار عبد المؤمن

وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم ، محبـا لهم ، محسنًا إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرتـه ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ويظهر التنـويه بهم والإعظام لهم ، وقسم الطلبة طائفتين : طلبة الموحدين ، وطلبة الحضر ، هذا بعد أن تسمى المصامدة بالموحدين ، لتسمية ابن تومرت لهم بذلك لأجل خوضهم فى علم الاعتقاد الذى لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان فى تلك الجهة يخوض فى شىء منه .

وكان عبد المؤمن فى نفسه سَرِىَّ الهمـة ، نزيه النفس ، شديد الملوكيـة ، كأنه كان ورثها كابراً عن كابر ، لا يرضى إلا بمعالى الأمور .

أخبرنى الفقيه المتفنن أبو القاسم عبد الرحمن بـن محمد ابن أبى جعفر الوزير ، عن أبيه عن جده الـوزير أبى جعفر ، قال : دخلت على عبـد المؤمن وهو فى بســتان لـه قد أينعت ثماره ، وتفتحت أزهـاره ، وتجاوبت على أغصانها أطيـاره ، وتكـامل من كل جهة حسنـه ، وهو قـاعد فى قبـة مشرفة على البستـان ، فسلمت وجلست ، وجعلت أنظر يمنـة وشأمة ، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستـان ، فقال لى : يا أبا جعفـر ، أراك كثير النظر إلى هذا البستان ! قلت : يُطيل الله بقـاء أمير المؤمنين ، والله إن هذا لمنظـر حســن ! فقـال : يا أبا جعفر ، المنظر الحسن هذا ؟ قلت : نعم ، فسكت عنى ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة ، أمر بعرض العسكر آخـذى أسلحتهم ، وجلس فى مكان مُطل ، وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة بعد كتيبة ، لا تمر كتيبـة إلا والتى بعدها أحسن منها ، جودة سلاح ،

وفراهـة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى ذلك التفت إليَّ وقال : يـا أبا جعفر ، هذا هـو المنظر الحسن ، لا ثمارك وأشجارك !

ولم يزل عبد المؤمن ـ بعد وفاة ابن تومرت ـ يطوى الممالك مملكة مملكة ، ويُدوخ البلاد ، إلى أن ذلت له البلاد ، وأطاعته العباد .

نهاية المرابطين وآخر من ولى الأمر منهم

وكان آخر ما استولى عليه من البـلاد التى يملكها المرابطون ، مدينة مراكش ، دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين على بن يوسف بن تاشفين ، وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حتف أنفه فى شهور سنة ٥٣٧ ، وكان قد عهد فى حيـاته إلى ابنه تاشفين ، فعاقته الفتنة عن تمام أمره ، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تاشفين المذكور بشىء من الأمور .

وخرج تاشفين بعد وفـاة أبيه قاصداً تلمسان ، فلم يتفق له من أهلها مـا يريد ، فقصد مدينة وهران ـ وهى على ثلاث مراحـل من تلمسان ـ فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء ، عليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال : إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ثم أحرقوه ، فالله أعلم بصحة ذلك .

فكانت ولاية تاشفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قتل ـ كما ذكرنا ـ بمدينة وهران ، ثلاثة أعـوام إلا شهرين ، وكـان قتله سنـة ٥٤٠ ، وكان طـول هذه الـولاية لا يستقـر به قـرار ولا تستقيم له حال ، تنبُو بـه البلاد ، وتتنكر له الرعية ، فلم تزل هذه حـاله إلى أن كان من أمره ما ذكر .

وبعد دخول عبـد المؤمن ـ رحمه الله ـ مـراكش ، طلب قبر أمير المسلمين ، وبحث عنه عبد المؤمن أشد البحث ، فأخفـاه الله وستره بعد وفاته كما ستره فى أيام حيـاته ، وتلك عادة الله الحسنى مع الصالحين المصلحين .

وانقطعت الدعوة بالمغرب لبنى العباس بموت أمير المسلمين وابنه ، فلم يذكروا على منبر من منابرها إلى الآن ، خلا أعوام يسيره بإفريقية ، كان قد ملكها يحيى ابن غانية الثائر من جزيرة ميرقة على ما سيأتى بيانه .

وكانت مدة المرابطين ـ من حين نزولهم رحبة مراكش إلى أن انقرض ملكهم جملةً واحدة بموت أمير المسلمين وابنه ـ نحوًا من ست وسبعين سنة .

انتصار عبد المؤمن على منطقتى بجاية وقلعة بنى حماد

ولما دان لعبد المؤمن جميع أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون ـ على ما قدمنا ـ وأطاعهُ أهلها ، جمع جموعًا عظيمة وخرج من مراكش يقصد مملكة يحيى بن العزيز ابن المنصور ابن المنتصر الصنهاجى وكان يملك بجاية وأعمالها إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وهذا الموضع هو الحد فيما بينه وبين لمتونة ، فقصده عبد المؤمن ـ كما ذكرنا ـ فى شهور سنة ٥٤٠ ، فحاصر عبد المؤمن بجاية وضيق عليها أشد التضييق ، فلما رأى يحيى بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يدان بمنعهم ، هرب فى البحر حتى أتى مدينة بونة ، وهى أول حد بلاد إفريقية ، ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينية المغرب ، فأرسل إليه عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ بالجيوش ، فاستُنزل وأتى به عبد المؤمن ، هذا بعد أن عاهد عبد المؤمن أن يؤمِّن يحيى فى نفسه وأهله .

ودخل عبد المؤمن بجاية وملكها ، وملك قلعة بنى حماد ، وهى معقل صنهاجة الأعظم وحِرزهم الأمنع ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعث أمرهم .

وكان يحيى هذا وأبوه العزيز وجداه المنصور والمنتصر ، وجدهم الأكبر حماد ـ من شيعة بنى عُبيدٍ وأتباعهم والقائمين بدعوتهم ، ومن بلادهم ـ أعنى صنهاجة ـ قامت دعوة بنى عبيد ، وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها ، فلم يزل مُلك بنى حماد هؤلاء مستمرا ،

ودولتهم قائمـة ، وأمرهم نافذًا، لا ينـازعهم أحدٌ شيئاً مما فى أيـديهم ، إلى أن أخرجهم من ذلك كله وملكـه بأسره وضمه إلى مملكـــته : أبـو محمد عبد المؤمن بن علــى ، فى التاريخ الذى تقدم ! .

ولما ملك عبد المؤمن بجـاية والقلعة وأعمالها ، رتب مع الموحدين من يقـوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها ، واستعمل عليها ابنه عبد الله ، وكر راجعًا إلى مراكش ومعه وفى جنده يحيى بن العـزيز ملك صنهـاجة وأعيـان دولته ، فحين وصلـوا إلى مراكش أمـر لهم بالمنـازل المتسعة والمراكب النبيلة والكسى الفاخرة والأمـوال الوافرة ، وخص يحيى من ذلك بأجزلِه ، وأسناه وأحفله ، ونال يحيى هـذا عنده رتبة عالية وجاهًا ضخمًا ، وأظهر عبـد المؤمن عناية به لا مزيد عليها .

بلغنى من طُرق عدة أن يحيى بن العـزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يومًا ، فـذكروا تعذر الصرف ، فقال يحيى : أما أنا فعلىّ من هذا كُلفة شديدة ، وعبيدى فى كل يوم يشكون إلىّ ما يلقون من ذلك ، ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف ـ وذلك أن عادتهم فى بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأربـاعها وأثمانها والخراريب ، فيستريح الناس فى هذا وتجرى هذه الصروف فى أيديهم فتتسع بياعاتُهم ـ فلما قام يحيى بن العزيز من ذلك المجلس ، أتبعه عبد المؤمن ثلاثة أكياس صُروف كلها ، وقـال لرسوله : قل له لا يتعذر عليك مطلوب مادمت بحضرتنا ـ إن شاء الله عز وجل !

وأقام عبد المؤمن رحمه اللـه بمراكش ، مرتبًا للأمور المختصة بـالمملكة ، من بناء دور ، واتخاذ قصور ، وإعـداد سلاح ، واستنـزال مستعصٍ ، وتأمين سُبل ، وإحسـان إلى رعية ، وما هذا سبيله .

***

فصــل

أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين

فأما أحوال جـزيرة الأندلس ، فإنه لما كـان آخر دولة أمير المسلمين أبى الحسن على بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالا مفـرطًا ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعـة ، وإيثارهـم الراحـة ، وطـاعتهم النسـاء ، فهانـوا على أهل الجزيـرة ، وقلوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير مـن الثغور المجاورة لبلادهم ، وكان ـ أيضًا ـ من أسباب ما ذكرناه من اختلالها ، قيام ابن تومرت بسوس ، واشتغال على بن يوسف به عن مراعاة أحوال الجزيرة .

ولما رأى أعيـان تلك الجزيرة مـاذكرنـاه من ضعف أحوال المرابطين ، أخـرجوا من كـان عندهم من الولاة ، واستبد كل منهم بضبط بلـده ، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بنى أميـة ، فأما بلاد أفراغة فاستـولى عليها ملك أرغن ، لعنه الله ، وملك مع ذلك سرقسطة ـ أعادها الله للمسلمين ـ وكثيراً من أعمال تلك الجهات .

واتفق أمر أهل بلنسيـة ومرسية وجميع شرق الأنـدلس على تقديم رجل من أعيـان الجند اسمه عبـد الرحمن بـن عياض ، وكان عبـد الرحمن هـذا من صلحاء أمـة محمد وخيـارهم ، بلغنى عن غير واحد من أصحـابه أنـه كان مجاب الدعـوة ، ومن عجائب أمره أنـه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعـة ، فإذا ركـب وأخذ سلـاحه لا يقوم لـه أحد ولا يستطيع لقاءه بطل ، كان النصارى يعدونـه ـ وحده ـ بمائة فارس ، إذا رأوا رايته قـالوا : هذا ابن عياض ! هذه مـائة فارس ! فحمى الله تلك الجهـات ودفع عنها العـدو ببركة هذا الـرجل الصالح ، وانتشر له من الهيبـة فى صدور النصارى مـا ردهم عن البلاد ، وأقام ابن عيـاض هذا بشرقى الأنـدلس يحفظ تلك البـلاد ويـذود عنها إلى أن تـوفى ، رحمه الله ، ونضر وجهـه وشكر لـه سعيه ، لا أتحقق تاريخ وفاته .

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه محمد بن سعد ، المعروف عندهم بابن مردنيش ، كان محمد هذا خادمًا لابن عياض ، يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه فى حوائجه ، فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له : إلى من تُسند أمورنا وبمن تشير علينا ؟ وكان له ولد ، فأشاروا به عليه ، فقال : إنه لايصلح ، لأنى سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة ، فإن كان ولابد فقدموا عليكم هذا ـ وأشار إلى محمد بن سعد ـ فإنه ظاهر النجدة كثير الغناء ، ولعل الله أن ينفع به المسلمين !

فاستمرت ولاية ابن سعد على البلاد إلى أن مات فى شهور سنة ٥٦٨ .

وأما أهل ألمرية فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين ، واختلفوا فيمن يقدمونه على أنفسهم ، فندب إليها القائد أبا عبد الله ابن ميمون ، ولم يكن منهم ، إنما هو من أهل مدينة دانية ، فأبى عليهم وقال : إنما أنا رجل منكم ، ووظيفتى البحر وبه عُرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى ! فقدموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه عبد الله بن محمد ، يعرف بابن الرميمى ، فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر ، فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم فى خبر يطول ذكره .

وملك جيان وأعمالها إلى حصن شقورة وما والى تلك الثغور ، رجل اسمه عبد الله ، لا أعرف اسم أبيه ، وهو معروف عندهم بابن همشك ، وربما ملك عبد الله هذا قرطبة أيامًا يسيرة .

وأقامت على طاعة المرابطين أغرناطة وإشبيلية .

فهذه جملة أحوال الأندلس فى آخر دعوة المرابطين ، وفى ضمن هذه الجملة جزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار أضربت عن ذكرها خوفاً من الإطالة ، لأنها نكرةٌ والتعريف بها مخرج إلى الطول .

وقام بمغرب الأندلس دعاة فتن ورءوس ضلالات ، فاستفزوا عقول الجهال ، واستمالوا

قلوب العامة ، من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قسى ، كان فى أول أمره يدعى الولاية ، وكان صاحب حيلٍ ورب شعبذة ، وكان ـ مع هذا ـ يتعـاطى صنعة البيان وينتحل طريق البلاغة ، ثـم ادعى الهدايـة ، بلغنى ذلك عنـه من طـرق صحاح ، ثم لم يستقم لـه شىء مما أراد ، واختلف عليه أصحابه ، وكـان قيامه بحصن مارتلة ـ وقـد تقدم اسم هذا الحصن فى أخبار الدولة العبادية ـ فأسلمه ـ كما ذكرنا ــ أصحابه ، واختلفوا عليه ، ودسوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلة حتى أخذه الموحـدون قبضاً باليد ، فعبروا به إلى العدوة ، فأتـوا به عبد المؤمن رحمه الله ، فقـال له : بلغنى أنك ادعيت الهداية ! فكـان من جوابه أن قـال : أليس الفجر فجرين : كـاذبًا وصادقًا ؟ فأنـا كنت الفجر الكاذب ! فضحك عبد المؤمن وعفـا عنه ، ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعض أصحـابه الذين كانوا معه بـالأندلس ، ولابن قسى هذا أخبار قبيحة ، مضمونها الجراءة على الله سبحانه ، والتهاون بأمر الولاية ، منعنى من ذكرها صرف العناية إلى ماهو أهم منها .

عبور الموحدين إلى الأندلس

ولما انتشرت دعوة المصامدة ــ كما ذكرنا ـ بالمغرب الأقصى ، تشـوَّف إليهم أعيان مغرب الأندلس ، فجعلوا يفدون فى كل يوم عليهم ، ويتنافسوا فى الهجرة إليهم ، فدخل فى ملكهم كثير من جزيرة الأندلس ، كالجزيرة الخضراء ، ورنـدة ، ثم إشبيلية ، وقرطبة ، وأغرناطة ، وكان الـذى فتح هذه البـلاد الشيخ أبو حفص عمر إينتى المتقـدم الذكـر فى أهل الجماعة ، واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس .

فلما رأى عبد المؤمن ذلك ، جمع جموعًا عظيمة ، وخرج يقصـد جزيرة الأندلس ، فسار حتى نزل مـدينة سبتـة ، فعبر البحر ، ونـزل الجبل المعروف بجبل طـارق ، وسماه هو جبل الفتح ، فأقام به أشهـراً ، وابتنى به قصوراً عظيمة ، وبنى هناك مدينـة هى باقية إلى اليوم ، ووفد عليـه فى هذا الموضع وجوه الأنـدلس للبيعة ، كأهل مالقـة ، وأغرناطــة ، وقـرطبة ،

وإشبيلية ، وما والى هذه البلاد وانضم إليها ، وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ، اجتمع له وفى مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدوة والأندلس مالم يجتمع لملك قبله ، واستدعى الشعراء فى هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يستأذنون فيؤذن لهم .

محمد بن حبوس الفاسى الشاعر

وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون ، فدخلوا ، فكان أول من أنشد : أبو عبد الله محمد بن حبوس من أهل مدينة فاس ، وكانت طريقته فى الشعر على نحو طريقة محمد بن هانىء الأندلسى ، فى قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير ، إلا أن محمد بن هانىء كان أجود منه طبعًا وأحلى مهيعاً ، فأنشد فى ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ماأراد . [أولها] :

بلغ الزمان بهديكم ما أقلا — وتعلمت أيامه أن تعدلا

وبحسبه إن كان شيئا قابلا — وجد الهداية صورةً فتشكلا

لم يبق على خاطرى منها أكثر من هذين البيتين .

ولابن حبوس هذا قصائد كثيرة ، وكان حظيا عنده[1] ، نال فى أيامه ثروة ، وكذلك فى أيام ابنه أبى يعقوب ، وكان فى دولة لمتونة[2] مقدماً فى الشعراء حتى نقلت إليهم عنه حماقات ، فهرب إلى الأندلس ، ولم يزل بها مستخفيًا ينتقل من بلد إلى بلد ، حتى انتقلت الدولة المرابطية .

---

(١) المقصود به عبد المؤمن .
(٢) المقصود بها دولة المرابطين .

قرأ عليّ ابنه عبد الله من خط أبيه هذه الحكاية ، قال :

دخلت مدينة شَلْب من بلاد الأندلس ، ولى يوم دخلتها ثلاثة أيام لم أطعم فيها شيئًا ، فسألت عمن يقصده إليه فيها ، فدلنى بعض أهلها على رجل يعرف بابن الملح ، فعمدت إلى بعض الوراقين فسألته سحاءةً ودواة ، فأعطانيهما ، فكتبت أبياتاً أمتدحه بها ، وقصدت داره ، فإذا هو فى الدهليز ، فسلمت عليه ، فرحب بى ورد علىّ أحسن رد ، وتلقانى أحسن لقاء ، وقال : أحسبك غريبًا ! قلت : نعم ، فقال لى : من أى طبقات الناس أنت ؟ فأخبرته أنى من أهل الأدب ، من الشعراء ، ثم أنشدته الأبيات التى قلت ، فوقعت منه أحسن موقع ، فأدخلنى إلى منزله ، وقدم إلىّ الطعام ، وجعل يحدثنى ، فما رأيت أحسن محاضرة منه ، فلما آن الانصراف ، خرج ثم عاد ومعه عبدان يحملان صندوقًا حتى وضعه بين يدى ، ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مرابطية ، فدفعها إلىّ وقال : هذه لك ! ثم دفع إلىّ صرة فيها أربعون مثقالاً ، وقال : هذه من عندى ! فتعجبت من كلامه وأشكل علىّ جدًّا ، وسألته : من أين كانت هذه لى ؟ فقال لى : سأحدثك : إنى أوقفت أرضًا من جملة مالى للشعراء ، غلتها فى كل سنة مائة دينار ، ومنذ سبع سنين لم يأتنى أحد لتوالى الفتن التى دهمت البلاد ، فاجتمع هذا المال حتى سيق إليك ، وأما هذه فمن حُر مالى ! يعنى الأربعين دينار ا، فدخلتُ عليه جائعًا فقيرًا ، وخرجت عنه شبعان غنيًّا .

الأصم المروانى الشاعر ، ابن الطليق

وأنشده فى ذلك اليوم رجل من ولد الشريف الطليق المروانى ، كان شريفًا من جهة أمه :

ما للعَدا جُنَّة أوقى من الهرب ... ...

فقال عبد المؤمن رافعًا صوته : إلى أين ؟ فقال الشاعر :

... ... أين المفـــر وخيلُ اللـــه فى الطلب

وأين يــذهب من فى رأس شــاهقــةٍ وقــد رمتــه سماء اللـــه بــالشُّهُب

حَـدث عن الـروم فى أقطــارِ أنـدلس والبحـر قـد مـلأ العبرين بـالعـرب

فلما أتم القصيدة قـال عبد المؤمن : بمثل هـذا تُمدح الخلفاء ! فسمى نفسه خليفةً كما ترى . . .

وجدٌّ هـذا الشاعر هو الشريف الطليق ، طليـق النعامة ، وإنما سُمى بذلك لأنـه كان محبوسًا فى مُطبق أبى عامـر محمد ابن أبى عامر الملقب بالمنصور القائم بـدعوة هشام المؤيد ، وأقام فى ذلك المحبس سنين ، فكتب يوماً قصة يذكر فيها ماآلت إليه حاله من ضيق الحبس وضنك العيش ، فرُفعت إلى ابن أبى عامر ، فأخذها فى جملة رِقاع ودخل إلى داره ، فجاءت نعامة كـانت هناك ، فجعل يُلقى إليها الرقاع ، فتبتلع شيئًا وتُلقى شيئـاً ، فألقى إليها رقعة هذا الشريف فى جملة الـرقاع وهو لم يقرأها ، فأخذتها ثم دارت وألقتهـا فى حجره ، فرمى بها إليها ثـانية ، فـدارت القصر كله ثـم جاءت وألقتها فى حجـره ، فرمـى بها إليها ثـالثة . . . وفعلت ذلك مرارا ، فتعجـــب من ذلـــك ، وقرأ الرقعـة ، وأمر بإطلاقـه ، فسُمى بذلك طليق النعامة !

وأنشد فى ذلك اليوم رجلٌ من أهل إشبيلية يعرف بابن سيد ، ويلقب باللص :

غمض عن الشمس واستقصر مـدى زُحل وانظـــر إلى الجبل الـراسى على جبل

أنى استقـــر بـــه ، أنى استقـل بـــه أنى أرى شخصــه العـالى فلم يــزلِ

فقال له عبد المؤمن : لقد ثقَّلتنا يارجل ! فـأمر به فجلس ! وهذه القصيدة من خيار ما مدح به ، لولا أنه كدر صفوها بهذه الفاتحة .

الرصافى الرفاء الشاعر

وأنشده فى ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى المعروف بالرصافى ، كان مستوطناً مدينة مالقة :

لو جئت نار الهدى من جانبِ الطُّور ... قبست ما شئت من علم ومن نورِ

من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلاً لسارٍ ولم تُشبب لمقرُور

فيضية القدح من نور النبوة أو ... نورِ الهدايةِ تجلو ظُلمة الزور

مازال يقضُمها التقوى بموقدها ... صوامُ هاجرة قوام ديجُور

حتى أضاءت من الإيمان عن قبسٍ ... قد كان تحت رماد الكفر مكفورِ

نورٌ طوى اللهُ زند الكون منه على ... سقطٍ إلى زمن المهدى مذخورِ

وآيةٌ كآيات الشمس بين يدى ... غزوٍ على الملك القيسى منذور

يادار دار أمير المؤمنين بسفح الطْـ ... ـطَود طودِ الهُدى ، بُوركتِ فى الدوُر

ذات العمادين من عز ومملكة ... على الأساسين من قُدس وتطهير

ما كان بانيك بالوانى الكرامةِ عن ... قصرٍ على مجمع البحرين مقصورِ

مواطىءٌ من نبى طالما وُصلت ... فيها الخُطا بين تسبيحٍ وتكبير

حيث استقلت به نعلاه بُوركتا ... فطيبت كل موطوء ومعبور

حيث قامت قناةُ الدين ترفُل فى ... لواءِ نصر على البرين منشور

فى كف منشمـــــــر البُردين ذى ورعٍ　　على التُّقى وصفــاء النفـس مفطــور

لقــاك فى حــالٍ غيبٍ مـن سريـرتــه　　بعــالم القـدس مشهــودٍ ومحضـور

تسنَّم الفُلك فى سخط المرار وقـــــد　　تـؤدين يــاخير أفـلاك العــلا سيرى

فسرن يحملن أمـــر اللــــه مـن ملك　　بــالله مستنصرٍ فى اللـــه منصـــور

يـــومى لـــه بسُجــود كل محركـــةٍ　　منهـا ، ويــوليـه حمداً كـل تصريـر

لما تســابقن فى بحـر الــزقــاق بــه　　تـــركن شطيــــهِ فى شك وتحيير

أهــزَّ من مــوجِـه أثنــاء مسرور ؟　　أم خــاض من لُجه أحشــاء مذعـور ؟

كأنـــــه ســـالكٌ منـــه على وجل　　فى الأرض من مُهج الأسيــاف مقطـور

من السيـوف التى ذابـت لسطـوتِـه　　وقــد رَمى نـــار هيجـاهــا بتسعير

ذو المنشـــآت الجوارى فى أجــرَّتها　　شكل الغـــدائر فى ســـدلٍ وتضفير

أعـدى المياه وأنفــاس الـريـاح لها　　مــا فى سجــايــاه من لينٍ وتعطير

من كل عـــذراء حُبلى فى تـــرائبهـــا　　ردعـــان من عنبر وردٍ وكـــافـــور

تجالها بين أيـــدٍ مـن مجاذفهـــا　　يغـرقن فى مثل مــاء الـوردِ من جُـورِ

وربما خــــاضت التيــــار طـــائرةً　　بمثل أجنحـــــة الفُتخِ الكــــواسير

كأنما عبرت تختــــالُ عـــائمــــةً　　فى زاخــرٍ من يـدى ويُمنـاه معصـور

حتـى رمـت جبل الفتحين مـن كثـبٍ　　بســـاطــعٍ من سنــاه غير مبهـــور

للـــــه مــــا جَبلُ الفتحين مـن جبلٍ　　معظَّمِ القـدرِ فى الأجيــال مـذكـور

من شـامخ الأنـف فى سحنـائه طلس　　لــــه من الغيـم جيبٌ غيرُ مـــزرور

معبراً بــــــــذراه عـن ذُرى ملـك　　مستمطـر الكف والأكنـاف ممطـــور

تمسى النجـــوم على إكليل مَفْــرِقِــه ... فى الجو حـــائمـــةً مثـل الـــدنـــانير

وربما مسحتـــــــه من ذوائبهـــــا ... بكل فضـلٍ على فـــوديـــهِ مجرور

وأدردٍ من ثنـــــايــــاهُ بما أَخَــــذَتْ ... منـــه مقـاحم أعـــواد الـــدهـــاريـــرِ

مُحنكٍ حلـب الأيــــام أشطُــــرهــــا ... وسـاقهـا ســـوق حـادى العير للعير

مُقيـــد الحطــوِ جــوالِ الخـواطــرِ فى ... عجيب أمـريـه مـن مـاضٍ ومنظـور

قـد واصل الصمت والإطـراق مُفتكـرًا ... بـــادى السكينـةِ مُغبر الأســـاريـــر

كأنــــــه مُكمـــــدٌ مِمـــــا تعبَّـــــده ... خـــوف الـــوعيـــدين من دك وتسييرِ

أخلقْ بـــه وجبـــال الأرض راجفـــةٌ ... أن يطمئـن غــــــداً من كـل محذور

كفـاه فضـــلاً أن انتـابت مـــواطئـه ... نعـــلا مليكٍ كـريمِ السعى مشكـــور

مُستنشيـاً بهما ريح الشفـــاعـةِ من ... ثـرى إمـــامٍ بأقصى الغـــرب مقبُـور

مــــا انفك آمل أمــرٍ منـــه بين يــدى ... يـــوم القيـــامـــة محتـــومٍ ومقـــدور

حتى تصـــدى من الـــدنيـــا على رمقٍ ... يستنجز الـوعد قبل النفـخ فى الصُّور

مُستقبل الجانب الغـــربى مـرتقبًـــا ... كأنــــــه بـــــاهت فى جـــــو أسمير

لبــــارقٍ من حُســـــامٍ سلـــهُ قــدرٌ ... بـــالغـرب من أفُقِ البيضِ المشـــاهير

إذا تألــق قيسيًّــــــا أهــــاب بـــــه ... إلى شفى من مُضـاعِ الـدين مـوتـورِ

ملك أتى عظماً فـــوق الـــزمـــان فما ... يمـــر فيـــه بشـىءٍ غير محقـــور

مـا عَنَّ فى الــدين والـدنيــا لـه أرب ... إلا تأتـى لـــــه من غيرِ تعــذيـــرِ

ولا رمى من أمـــانيـــه إلى غـــرضٍ ... إلا هـــدى سهمـــهُ نجح المقـــاديـــر

حتـى كأن لـــــــه فى كل آونــــــةٍ ... سُلطـــان رقٍّ على الـــدنيـــا وتسخير

مميـز الجيش ، مُلتفـا مـواكبـه ... من كل مثلـول عـرش الملك مقهـور

من الأولى خضعُـوا قسراً لـه وعنـوْا ... لأمـره بين منهيٌ ومـأمـور

من بعـد ما عـاندوا أمـراً فما تركـوا ... إذ أمكن العفـو ميسـوراً لمعسـور

بقيـة الحرب ، فـاتـوهـا ومـابهم ... فى الضرب والطعـن سيماءٌ لتقصير

لا ينكـر القـوم ممـا فى أكفهم ... بيض مفـاليـل أو سُمـر مكـاسير

إذا صـدعت بأمـر اللـه مجتهـدًا ... ضربت ـ وحدك ـ أعناق الجماهير

لا يـذهبن لتقليلٍ أخـو سببٍ ... من الأمـور ، ولا يـركن لتكثير

فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبساً ... والأرض قـد غـرِقت من فـورِ تنُّـور

وإنما هـو سيف اللـه قلـده ... أقـوى الهُداة يـداً فى دفع محذور

فإن يكن بيـد المهـدى قـائمـه ... فمـوضع الحد منـه حـد مشهـور

والشمس إن ذكرت مُوسى فما نسيت ... فتـاهُ يـوشـع قماع الجبـابير

وكان الرصافى يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة ، وهو من مجيدى شعراء عصره ، لاسيما فى المقاطيع ، كالخمسة الأبيات فما دونها ، وقد رويت شعره عن جماعةٍ ممن لقيه ، وقد رأيتُ أن أورد منه هاهنا نبذة يسيرة تدل على ما وصفناه به فمن ذلك قوله يصف نهر إشبيلية الأعظم ، وهو نهر لا نظير له فى الدنيا :

ومُهـدَّل الشطينِ تحسبُ أنـه ... مُتسـايلٌ من دُرةٍ لصفـائه

فـاءت عليـه مع الهجيرة سرحـة ... صـدئت لفيئتهـا صفيحـةُ مـائه

فتراه أزرق فى غُـلالـةِ سُمـرةٍ ... كـالـدارع استلقى بظل لـوائه

وله ، وقد اجتمع مع إخوان له فى بعض العشايا فى بستان رجلٍ يقال له موسى بن رزق :

ما مثلُ موضعك ابن رزقٍ موضع ... روضٌ يرِق وجدولٌ يتدفع
فكأنما هو من محاجر غادةٍ ... فالحسُن ينبتُ فى ثراه وينبُعُ
وعيشةٍ لبست رداء شحُوبها ... والجو بالغيم الدقيق مُقنعُ
بلغت بنا أمد السرورِ تألُّفا ... والليلُ نحو فراقنا يتطلعُ
فابلُل بها رمق الغبُوقِ فقد أتى ... من دُون قُرصِ الشمسِ ما يتوقعُ
سقطت فلم يملك نديمك ردها ... فوددت ياموسى لو انك يُوشعُ

وله يصف عشية أيضاً فى موضع هذا الرجل المتقدم الذكر :

محل ابن رزقٍ جر فيه ذُيوله ... من المُزنِ ساقٍ يُحسن الجر والسقيا
ذكرتُ عشيًّا فيك لا ذُمَّ عهدُه ... وإن نحن لا نهتع ببهجته لُقيا
ولم يتعلق بى منك عند افتراقنا ... سوى عبقٍ من مسك قينتك اللميا
وكنت أرانى فى الكرى وكأننى ... أناول كالدينار من ذهب الدنيا
فلما انطوى ذاك الأصيل وحُسنُه ... على ساعةٍ من أُنسنا صحتِ الرؤيا

وله يصف دولابا :

وذى حنينٍ يكاد شوقاً ... يختلسُ الأنفُس اختلاسا
لما غدا للرياض جارًا ... قال له المحلُّ لا مِسَاسا
يبتسم الروض حين يبكى ... بأدمُعٍ ما رأين باسا
من كل جفن يَسُلُّ سيفاً ... صار له غمده رئاسا

وله ، وقد رأى صبيًّا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه ، يحكى بذلك الدموع :

عـذيـرى من جـذلان يُبـدى كـآبـة ... وأضلعُـه ممـا يُحاوله صفـرُ

أميلـد ميـاس إذا قـاده الصبـا ... إلى مُلح الإدلال أيـدهُ السحـرُ

يبُل مـآقى زهـرتيـه بـريقـه ... ويحكى البُكـا عمداً كما ابتسم الـزهرُ

ويـوهـمُ أن الـدمع بَلَّ جُفـونـه ... وهل عُصرت يومًا من النرجس الخمرُ ؟

وقال يصف نائمًا قد تحبب العرق على خده :

ومُهفهفٍ كـالغصن إلا أنـه ... سلب التثنى النـوم عـن أثنـائه

أضحى ينـام وقـد تحبب خـدُّه ... عـرقـاً فقلت : الـوردُ رُش بمائه

وللرصافى هذا افتنان فى الآداب ، وكان ــ رحمه الله ـ عفيف الطعمة نـزيه النفس ، لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته فى كثير منه .

وصل الحديث عن عبد المؤمن بن على

وأقام عبـد المؤمن بجبل فتح ، مرتبـاً للأمور ، ممهـداً للمملكة ، وأعيانُ البـلاد يفدون عليه فى كل يوم ، إلى أن تم له ماأراد من إصلاح ما استولى عليه من جزيرة الأندلس .

فولى مدينـة إشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ، وهـو الذى ولى الأمور بعده على مـا سـيأتى بيـانه ، وتـرك معه بها من أشيـاخ الموحدين وذوى الـرأى والتحصيل منهـم من يرجع إليـه فى أموره ، ويعول عليه فيما ينويه .

وولَّى قرطبة وأعمالها أبا حفص عمر إينْتى .

وولى أغرناطة وأعمالها ابنه عثمان بن عبد المؤمن ، يكنى أبا سعيد ، وكان من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الصرامة منهم ، وكان محبًّا فى الآداب ، مؤثرًا لأهلها ، يهتز للشعر ويُثيب عليه ، واجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابة ماعلمتها اجتمعت لملك منهم بعده .

ثم كر عبد المؤمن راجعًا إلى مراكش ، بعد ماملأ ماملكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلاً ورجالاً من المصامدة والعرب وغيرهم من أصناف الجند .

منازل العرب الهلالية فى المغرب والأندلس

وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس ، استنفر أهل المغرب عامة ، فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحيى بن العزيز[١] ، وهم قبائل من هلال بن عامر ، خرجوا إلى البلاد حين خلَّى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب ، فعاثوا فى القيروان عيثاً شديداً أوجب خرابها إلى اليوم ، ودوخوا مملكة بنى زيرى بن مناد[٢] ، وهذا بعد موت المعز ابن باديس ، فانتقل تميم إلى المهدية[٣] ، وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور ابن المنتصر فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد ، من تمرها وبُرها وغير ذلك ، فأقاموا على ذلك باقى أيامه ، وأيام ابنه الملقب بالعزيز ، وأيام يحيى ، إلى أن ملك البلاد أبو محمد عبد المؤمن ، رحمه الله ، فأزال ذلك من أيديهم ، وصيرهم جنداً له ، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد .

فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس ، وأمر أن تُكتب فى آخرها أبيات قالها ـ رحمه الله ـ فى ذلك المعنى وهى :

---

(١) المقصود بهم مملكة حماد بإفريقية .
(٢) انظر : أخبار حماد .
(٣) وهو تميم ابن المعز بن بادمين الذى هرب إلى القيروان بسبب ثورات العرب .

أقيموا إلى العلياء هُوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جُرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشُدوا على الأعداء شدة صائل
فما الغِزُّ إلا ظهر أجرد سابحٍ ... يفوتُ الصبا في شدهِ المتواصل
وأبيض مأثورٍ كأن فرنده ... على الماء منسوج وليس بسائلِ
بني العم من عُليا هلالِ بن عامرٍ ... وما جمعت من باسلٍ وابن باسلِ
تعالوا فقد شُدت إلى الغزوِ نِيَّة ... عواقبها منصورة بالأوائل
هي الغزوةُ الغراء والموعدُ الذي ... تنجز من بعدِ المدى المتطاوِل
بها تُفتح الدنيا ، بها تُبلغُ المُنى ... بها يُنصف التحقيقُ من كل باطل
أهبنا بكم للخير والله حسبنا ... وحسبكمو والله أعدل عادل
فما همنا إلا صلاحُ جميعكم ... وتسريحُكم في ظل أخضرَ هاطل
وتسويغكم نُعمى ترِفُّ ظلالُها ... عليكُم بخيرٍ عاجلٍ غيرِ آجل
فلا تتوانوا فالبدار غنيمةٌ ... وللمدلج الساري صفاء المناهل

فاستجاب له منهم جمع ضخم ، فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتَّبهم فيها ، فجعل بعضهم من نواحي قرطبة ، وبعضهم من نواحي إشبيلية مما يلي مدينة شريش وأعمالها ، فهم بها باقون إلى وقتنا هذا ــ وهو سنة ٦٢١ ــ وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلقٌ كثير ، وزاد فيهم أبو يعقوب وأبو يوسف حتى كثروا هنالك ، فبالجزيرة اليوم من العرب من زُغبة ورياح وجُشم بن بكر وغيرهم نحوٌ من خمسة آلاف فارس سوى الرَّجَّالة .

***

وكان عبور عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح فى سنة ٥٣٨ ، ثم كر ـ كما ذكرنا ـ راجعاً إلى مراكش ، فأخبرنى غير واحد ممن أرضى نقله ، أنه لما نزل مدينة سلاً ـ وهى مدينة على البحر الأعظم المحيط ، ينصب إليها نهر عظيم يصب فى البحر المذكور ـ عبَر النهر ، وُضربت له خيمة على الشاطىء ، وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة ، فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم ، خر ساجداً ، ثم رفع رأسه وقد بلَّ الدمع لحيته ، والتفت إلى من عنده وقال : « أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شىء لهم إلا رغيف واحد ، فراموا عُبور هذا النهر ، فأتوا صاحب القارب وبذلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال : لا آخذه إلا على اثنين خاصة ، فقال لهم أحدهم ـ وكان شابًّا جلداً ـ : خذا ثيابى معكما وأعبر أنا سباحةً ! فأخذا ثيابه معهما ، وصعدا فى القارب ، فجعل الشاب يسبح ، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح ، فضربه صاحبه بالمجذاف الذى معه حتى يؤلمه ، فما بلغ البر إلا بعد جهد شديد ! .

فما شك السامعون للحكاية أنه العابر سباحة ، وأن الاثنين المذكورين هما ابن تومرت وعبد الواحد الشرقى .

ثم سار حتى أتى مراكش ، فنزلها ، وأخذ فى البناء والغراسة وترتيب القصور ، غير مُخل بشىء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتحبب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافته .

وأخبرنى السيد حقيقة والماجد خلقًا وخليقة ، أبو زكريا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن الإمام أمير المؤمنين أبى محمد عبد المؤمن بن على : أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المؤمن هذين البيتين ، وقال لى ـ رحمه الله : لا أدرى أهما له أو لغيره :

وحكم السيف لا تعبأ بعاقبةٍ ... وخلها سيرة تبقى على الحِقَبِ

فما تنال بغير السيف منزلة ... ولا ترد صُدور الخيل بالكتبِ

وقد كان عبد المؤمن حين فصل عن بجاية وولّى عليها ابنه عبد الله ـ حسبما تقدم ـ عهد إليـه أن يشنَّ الغارات على نـواحى إفريقيـة ، أن يضيق على تونس ويمنع عنهـا المرافق التى تصل إليها على طريقه ، ففعل ذلك .

[غزو الموحدين لإفريقية]

ثم إن عبد الله تجهَّز فى جيش عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم ، وسار حتى نزل على مدينة تونس ، وهى حاضرة إفريقية بعد القيروان ، وكرسى مملكتها ، ومقر تدبيرها ، وإياها يستوطن والى إفريقية ، لم يزل هذا معروفًا من أمرها إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ فحاصرها عبد الله المذكور وأخذ فى قطع أشجارها وتغوير مياهها ، وكان الذى يملكها فى ذلك الوقت لوجـار بن لوجار المعـروف بابن الدوقـة الرومى صاحب صقليـة ، لعنه الله ! وكـان العامل عليها رجلاً من المسلمين اسمـه عبد الله ، يعرف بـابن خراسان(١) ، ولم يزل عامـلا عليها حتى أخرجه الموحدون فى التاريخ الذى سيذكر ، فلما طال على ابن خراسان الحصار ، أجمع رأيه ورأى أهل البلـد من الجند على الخروج لقتال المصـامدة ، ففعلوا ذلك ، وخـرجوا بخيلٍ ضخمة ، فالتقـوا هم وأصحابُ عبد الله(٢) فـانهزم أصـحاب عبـد الله ، وقُتل منهم خلق كثير ، ورجع عبد الله ببقية أصحابه إلى بجاية ، فكتب إلى أبيه يخبره بذلك .

فتح المهدية واسترجاعها من يد الصقليين

فلما كان آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المؤمن فى الحركة إلى إفريقية ، فجمع جموعًا عظيمة من المصامـدة وغيرهـم من جُند المغرب ، وسـار حتى نزل على مدينـة تونس ، فافتتحهـا عنوة ،

---

(١) يطلق عليه ابن الأثير فى كتابه الكامل فى التاريخ : أحمد بن خراسان .
(٢) وهو عبد الله بن عبد المؤمن .

وفصل عنها إلى مهـدية بنى عبيد ، وفيها الـروم أصحاب ابن الدوقـة ، وفيها معهم يحيى بن حسن بن تميم ابن المعـز بن باديس ابن المنصـور بن بلجين بن زيرى بن منـاد الصنهاجى ، ملوك القيروان ، فنـزل عبد المؤمن عليها فحاصرهـا أشد الحصار ، وهى من معـاقل المغرب المنيعة ؛ لأن بنيـانها غايـة فى الإحكام والوثـاقة ، بلغنى أن عرض حـائط سورهـا ممشى ستة أفراس فى صف واحـد ، ولا طريق لها من البر إلا على باب واحد ، والبحـر فى قبضة من فى البلد : يُدخل الشينى كما هو بمقاتلته إلى داخل دار الصناعة ، لا يقدر أحد ممن فى البر على منعه ، فبهـذا قدر الروم على الصبر على الحصـار ، لأن النجدة كانـت تأتيهم من صقلية فى كل وقت ، وأقام عبـد المؤمن وأصحابه عليها سبعـة أشهر إلا أيامًا ، وأصابتهـم عليها شدةٌ شـديدة من غـلاء السعـر ، بلغنى من غير واحـد أنهم اشتروا الباقـلاء فى العسكـر ، سبع باقلات بدرهم مُؤمنى ، وهو نصف درهم النصاب ، ثم افتتحها عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ بعد أن أمَّن النصـارى الـذين بها على أنفسهم ، على أن يخرجـوا له عـن البلد ويلحقـوا بصقليـة بلـدهم حيث مملكة صـاحبهم : ففعلـوا ذلك ، ودخل عبـد المؤمن وأصحابـه المهديـة فملكوها .

وبعث إلى قابس من افتتحها ، وفيها الروم أيضًا .

امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق

ثم افتتح طرابلـس المغرب ، وأرسل إلى بلاد الجريـد ، وهى توزر ، وقفصـة ، ونفطة ، والحامة ، وما والى هـذه البلاد ، فافتتحت كلها ، وأخرج الإفـرنج منها وألحقهم ببلادهم ، كما تقدم ، فمحـا الله به الكفر من إفـريقية وقطع عنها طمع العـدو ، فانتبه بها الـدين بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله .

وتم لعبـد المؤمن ـ رحمه الله ـ مُلك إفـريقية كلهـا منتظماً إلى مملكة المغـرب ، فملك فى

حياته من طرابلس المغرب إلى سوس الأقصى من بلاد المصامدة ، وأكثر جزيرة الأندلس ، وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحد قبله منذ أن اختلت دولة بنى أمية فى وقته .

ألوان من شكر النعمة

ثم كر عبد المؤمن راجعاً من إفريقية ، بعدما استولى على بلادها ودان له أهلها ، فأخبرنى بعض أشياخ الموحدين من ذوى التحصيل منهم والثقة ، أن عبد المؤمن مر فى طريقه راجعاً من إفريقية ببجاية ، فدخل البلد متنزهًا فيه ، فمر بسويقة بناحية باب من أبوابها يدعى باب تاطُنت ، فوقف ووقفت معه وجوه دولته ، فسأل عن بياع بها سماه باسمه فأخبره أهل السويقة بوفاته ، فقال : هل خلف عقبًا ؟ قالوا : نعم ، فأمر بشراء جميع الدكاكين التى بتلك السويقة وأوقفها عليهم ، وأمر لهم بمال كثير ، ثم التفت إلى بعض خواصه وقال له : أتيت إلى هذا البياع ولى وللإمام ـ يعنى ابن تومرت ـ ولجماعةٍ من أصحابنا من الطلبة أيامٌ لم نطعم فيها ، وما معى إلا سكين الدواة ، فأخذتُ منه خبزاً وإداما ، ثم وضعت عنده السكين رهنا على ذلك ، فأبى قبولها وقال لى : إنى توسمت فيك الخير ، فمتى أعوزك شىء فهُلم الدكان فهو بين يديك وبحكمك ! فحقه علىَّ أكثر من هذا .

ونظر فى هذا اليوم الذى ركب فيه مخترقًا بجاية إلى يحيى بن العزيز[1] يمشى بين يديه راجلاً وقد علاه الغبار ، فدمعت عيناه ، واستدعاه ، فقال له : أتذكر يومًا خرجت إلى بعض منتزهاتك ، فأذكر أنى جمعنى وإياك هذا الباب ، فوطئت دابتك عقبى ، فلما نظرت إليك أمرت أحد عبيدك فوكزنى وكزةً كدت أقع منها لِفِيَّ ! فاستحيا يحيى وتغير لونه وأطرق ، وجعل يقول : الله الله يامولاى ! وظن أنه الشر ، فلما رأى ذلك منه قال له : إنما ذكرتُ لك ذلك على طريق الاعتبار ، ولتذكر وتنظر كيف تقلب الأيام بأهلها ! وأمر له بما زال به روعه .

---

(١) كان صاحب عرش منطقة بجاية قبل عبد المؤمن .

ومر فى طريقه هذا ما بين البطحاء وتلمسان بموضع قد التف فيه الدوح ، فجاءت منه دوحة عظيمة فى وسطها رحبة نقية ، فأمر أن يضرب خباؤه هنالك ، وهو غير منزلٍ معروف ، فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول ، قال لبعض خواصه : أتدرون لم آثرت النزول بهذا المكان ؟ قالوا : لا ؛ قال : ذلك لأنى بت بهذا الموضع فى بعض الليالى جائعًا مقرورًا ، وكانت ليلةً ممطورة ، فما زال هذا الدوح وقائى حتى أصبحت ، فأردت النزول هنا على هذه الحالة لأشكر الله سبحانه على الفرقِ ما بين المنزلتين والفصلِ ما بين المبيتين !ثم قام فتوضأ وصلى ركعتين شكراً لله عز وجل . وجدتُ هذه الحكاية بخط رجل من ولدِ ولدِ عبد المؤمن اسمه موسى بن يوسف بن عبد المؤمن .

وبدا له فى هذا الوجه أن يمر على القرية التى تسمى تاجرا ـ وبها كان مولده كما تقدم ـ لزيارة قبر أمه وصلةِ من هناك من ذوى رحِمِه ، فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية مابين بنود وألوية ، وهُزت أكثر من مائتى طبل ـ وطبولهم فى نهاية الكبر وغاية الضخامة ، يخيل لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتز ويُحس قلبه يكاد يتصدع من شدة دويها ـ فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ، فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه : هكذا يعود الغريب إلى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها . . .

ونازع عبد المؤمن الأمر قومٌ من قرابة ابن تومرت يُعرفون بأيت ومَغار ـ معناه بالعربية : بنو ابن الشيخ ـ وانتهوا فى ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صنيعهم على أن يدخلوا على عبد المؤمن خباءه ليلاً فيقتلوه ، وظنوا أن ذلك يخفى من أمرهم ، وأن عبد المؤمن إذا فُقد ولم يُعلم من قتله صار الأمر إليهم ، لأنهم أحق به ، إذ كانوا أهل الإمام وقرابته وأولى الناس به ، فأَعلم بما أرادوه من ذلك رجلٌ من أصحاب ابن تومرت ، من خيارهم ، اسمه إسماعيل بن يحيى الهزرجى ، فأتى عبد المؤمن فقال له : يا أمير المؤمنين ، لى إليك حاجة ! قال : وما هى يا أبا إبراهيم ؟ فجميع حوائجك عندنا مقضية ! قال : أن تخرج عن هذا الخباء وتدعنى أبيتُ فيه ! ولم يُعلمه بمراد القوم ، فظن عبد المؤمن أنه إنما يستوهبه الخباء

لأنه أعجبه ، فخرج عنه وتركه لـه ، فبات فيه إسماعيل المذكور ، فـدخل عليه أولئك القوم فتولوه بالحديد حتى بـرد ، فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يُصيبوا عبد المؤمن ، فروا بأنفسهم حتى أتوا مراكش وراموا القيام بها ، فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبـوا منهم المفاتيح ، فأبوا عليهم ، فضربوا عنق أحدهم وفر باقيهم ، وكادوا يغلبون على تلك القصور ، ثم إن الناس اجتمعوا عليهم ، من الجند وخاصة العبيد ، فقاتلوهم قتالاً شديدًا من لدن طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم إن العبيـد غلبوهم على أمـرهم ، ولم يزل الناس يتكـاثرون عليهم إلى أن أخذوا قبضاً باليد ، فقُيدوا وجُعلـوا فى السجن إلى أن وصل أبو محمد عبد المؤمن ـ رحمه الله ـ إلى مراكش ، فقتلهم صبراً ، وقتل معهم جماعة من أعيان هرغة ، بلغه أنهم قادحون فى مُلكه متربصون به .

ولما أصبح أبو إبـراهيم إسماعيل المتقدم الذكـر فى الخباء مقتولاً على الحال التى ذكـرنا ، أعظم ذلك عبد المؤمن ووجـد عليه وجداً مفـرطا أخرجه عن حـد التمسك إلى حيز الجزع ، فأمر بغسله وتكفينه ، وصلى عليه بنفسه ، ودُفن .

ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحـدٍ ذكر اسمه يحيى ، نال يحيى هذا فى أيام أبى [يوسف] يعقـوب جاهًا متسعًـا ورتبة عاليـة ، وكذلك فى أيام أبى عبـدالله [محمد] ، كانـت أكثر أمورهـم ترجع إليـه ، لم يزل كـذلك إلى أن مات فى شهـور سنة ٦٠٢ وتـرك بنتا واحدة تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يـوسف بن عبد المؤمن ، اسمها فاطمة ، لا عقب له منها ، طال عمرها ، وتركتها بالحياة حين فصلت عن مراكش فى شهور سنة ٦١١ .

ولإسماعيل هذا مع ابن تومـرت خبر يقربُ مما قدمنا فى النصح والتحـذير ، وتلطف فيه إسماعيل غـايـة التلطف ، وذلك أن ابـن تـومـرت حين خـرج من مـراكش على الحال التى تقدمت من إخراج أمير المسلمين إياه عنها ، سار حتـى نزل الضيعة التى فيها أبو إبراهيم ، فـدخل المسجد ، فـاجتمع أهل الضيعة على بـاب المسجـد ينظرون إلى ابن تـومرت ويقـول بعضهم لبعض همسًـا : هذا الـذى نفـاه أمير المسلمين عن بلاده لإفسـاده عقول النـاس ،

ونحو هذا القول ، وهموا بقتله تقرُّبًا بذلك إلى أمير المسلمين ، فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم ، تقدم إلى ابن تومرت فسأله عن إعراب هذه الآية : ﴿ **إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين** ﴾ (١) ففهم ابن تومرت ما أراد ، وخرج عن تلك الضيعة ، وعرف لأبي إبراهيم نصحه ، ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بتينمل ، فهو معدود في أهل الجماعة .

ولما قتل عبد المؤمن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً ، هابه المصامدة وسائر أهل دولته ، وعظم أمره في صدورهم .

وأقام عبد المؤمن بمراكش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفي أول سنة ٥٨ خرج أمره إلى الناس كافة بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس ، وكُتب عنه الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه ، فاجتمعت له جموع عظيمة ، وخرج يقصد جزيرة الأندلس مُظهرا للغزو والاحتساب ، ويتمم أيضًا مع ذلك ما بقي عليه من مملكتها مما بيد محمد بن سعد المتقدم الذكر(٢) ، فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سَلاَ ، فأقام بها ينتظر تكامل العساكر ، فاعتل علته التي مات منها ـ رحمه الله .

[وفاة عبد المؤمن وعهده لولده]

وكانت وفاته ، كما تقدم ، في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعني سنة ٥٨ .

وكان قد عهد في حياته إلى أكبر أولاده محمد ، وبايعه الناس ، وكتب ببيعته إلى البلاد ، فأبى تمام هذا الأمر لمحمدٍ هذا ما كان عليه من أمور لا تصلح معها الخلافة ، من إدمان شرب الخمر ، واختلال الرأي ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ، ويقال إنه مع هذا كان به ضربٌ من الجُذام ، فالله أعلم .

---

(١) سورة القصص : الآية : ٢٠ : مكية .

(٢) هو ملك منطقة شرق الأندلس محمدبن سعد بن مردنيش .

ولما مات عبد المؤمن ، اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه اختلافا كثيراً ، فكانت ولايته إلى أن خلع خمسة وأربعين يومًا ، واتفقوا على خلعه فى شعبان من هذه السنة ، وكان الذى سعى فى خلعه ـ مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك ـ أخواه يوسف وعمر .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وما يتعلق بها

ولما تم خلع محمد فى التاريخ المذكور ، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف ، وعمر ، وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغَناء منهم ، فأباها عمر منهما وتأخر عنها مختارًا ، وبايع لأخيه أبى يعقوب ، وسلم له الأمر ، حمله على ذلك فرط عقله وإيثار دينه وحُب المصلحة للمسلمين ، لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ، فبايع الناس أبا يعقوب ، واتفقت عليه الكلمة ، فلم يختلف عليه أحد من الناس من إخوته ولا غيرهم ، وذلك كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، وشدة تلطفه ، وجودة رأيه ، فاستوثق لأبى يعقوب أمره ، وتمت بيعته فى التاريخ المذكور ،

وكان الساعى فيها والقائم بها ومديرها إلى أن تمت ــ كما ذكرنا ـ أخوه لأبيه وأمه ، أبو حفص المتقدم الذكر .

وأبو يعقوب هذا هو يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه وأم أخيه أبى حفص ، امرأة حرة اسمها زينب ابنة موسى الضرير ، كان [موسى هذا] من [شيوخ] أهل تينمل وأعيانهم ، [من ضيعة يقال لها : أنسا] ، وكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها ، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المؤمن بتينمل ، برأى ابن تومرت ، وخلف موسى هذا من الولد الذكور ثلاثة ، إبراهيم ، وعليا ، ومحمدا ، وبنات .

صفة أبى يعقوب

كان أبيض تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، مستدير الوجه ، أَفْوَهَ ، أَعْيَنَ ، إلى الطول ما هو ، فى صوته جهارة، رقيق حواشى اللسان ، حلو الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها فى الجاهلية والإسلام ، صرف عنايته إلى ذلك أيام كان بإشبيلية والياً عليها فى حياة أبيه ، ولقى بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون ، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع فى كثير منه .

أخبرنى من لقيته من ولده ، كأبى زكريا ، وأبى عبد الله ، وأبى إبراهيم إسحاق ، وغيرهم ممن لقيته وشافهته منهم ، أنه كان أحسن الناس ألفاظًا بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكية ، بعيد الهمة سخيًا جوادًا ، استغنى الناس فى أيامه وكثرت فى أيديهم الأموال : هذا مع إيثار للعلم شديد ، تعطشٍ إليه مفرط ، صح عندى أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ـ الشك منى ، إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أنه البخارى ـ حفظه فى حياة أبيه بعد تعلم القرآن ، هذا مع ذكر جمل من الفقه ، وكان له مشاركة فى علم الأدب ، واتساعٌ فى حفظ اللغة ، وتبحرٌ فى علم النحو حسبما تقدم ، ثم طمح به شرفُ نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيراً من أجزائها ، وبدأ مع ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالمالكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريبٌ مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى .

أخبرنى أبـو محمد عبد الملك الشـذونى[1] ، أحـد المتحقـــقين بعلم الطب وأحكـام النجوم ، قـال : كنت فى شبيبتى أستعير كتب هذه الصنـاعة ــ يعنى صنعة الأحكـام ـ من رجل كان عندنا بمدينـة إشـــبيلية ، اسمـه يوســف ، يُكنى أبا الحجاج ، يعرف بالمـرانى (بتخفيف الراء) ، كـانت عنده منهـا جملة كبيرة وقعت إلى أبيه فى أيـام الفتنة بـالأندلس ، فكـان يعيرنى إياهـا فى غرائر : أحمل غـرارة وأجىء بغـرارة ، من كثرتها عنـده ، فأخبرنى فى بعض الأيام أنه عدِم تلك الكتب بجملتها ، فسألته عن السبب الموجب لذلك ، فأسر إلى : إن خبرهـا انتهى إلى أمير المؤمنين ، فأرسل إلى دارى وأنا فى الـديـوان لا علم عندى بـذلك ، وكان الذى أرسل كافـور الخِصّى من جماعـــة من العبيد الخاصـة ، وأَمره ألا يروع أحدًا من أهل الدار ، وألا يأخذ سوى الكتب ، وتوعده والذين معه أشد الوعيد إن نقص أهل البيت إبرة فما فوقهـا ، فأخبرت بذلك وأنا فى الديـوان ، فظننته يريد استصفاء أمـوالى ، فركبتُ وما معى عقلى ، حتى أتيـــت منزلى ، فإذا الخصـى كافور الحاجب واقـف على الباب والكتب تخرج إليـه ، فلما رآنى وتبين ذُعرى قـال لى : لا بأس عليك ! وأخبرنى أن أمير المؤمنين يسلم علىّ ، وأنـه ذكـرنى بخير ! ولم يـزل يبسطنى حتى زال مـا فى نفسى ، ثم قـال لى : سل أهل بيتك هل راعهـم أحدٌ أو نقصهم شىء من متاعهـم ؟ فســـألهم ، فقالوا : لم يَـرعنا أحدٌ ولم ينقصنـا شىء ، جاء أبـو المسك حتى استأذن علينـا ثلاث مـرات ، فأخلينـا له الطـريق ، ودخل هو بنفســه إلى خزانة الكتب فأمـر بإخراجهـــا . فلما سمعت هذا القـول منهم زال ما كان فى نفسى من روع .

وولَّوه بعد أخذهم لهذه الكتب منه ولاية ضخمة ما كان يحدث بها نفسه ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأنـدلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصـة أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب .

---

(١) نسبة إلى منطقة شذونة وهى تابع لاشبيلية .

[أبو بكر ابن طفيل]

وكان ممن صحبه من العلماء المتفننين ، أبو بكر محمد بن طفيل ، أحد فلاسفة المسلمين ، كان متحققا بجميع أجزاء الفلسفة ، قرأ على جماعة من المتحققين بعلم الفلسفة ، منهم أبوبكر بن الصائغ المعروف عندنا بابن باجة وغيره ، ورأيت لأبى بكر(١) هذا تصانيف فى أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك ، فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة « حى بن يقظان » غرضُه فيها بيانُ مبدأ النوع الإنسانى على مذهبه ، وهى رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة فى ذلك الفن ، ومن تصانيفه الإلهيات رسالةٌ فى النفس رأيتها بخطه رحمه الله ، وكان قد صرف عنايته فى آخر عمره إلى العلم الإلهى ونبذ ما سواه ، وكان حريصًا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، معظما لأمر النبوات ظاهرا وباطنا ، هذا مع اتساع فى العلوم الإسلامية ، وبلغنى أنه كان يأخذ الجامكية مع عِدة أصناف من الخدمة ، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد ، إلى غير هؤلاء من الطوائف ، وكان يقول : لو نفق عليهم علمُ الموسيقا لأنفقتهُ عندهم ! وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له ، بلغنى أنه كان يقيم فى القصر عنده أيامًا ليلاً ونهارًا لا يظهر ، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر فى ذاته وأدواته ، أنشدنى ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه الله :

ألمت وقد نام المُشيح وهوَّ ما ... وأسرت إلى وادى العقيق من الحمى

وجرت على تُربِ المحصب ذيلها ... فما زال ذاك الترب نهبًا مقسما

تناولُهُ أيدى التجار لطيمةً ... ويحملُه الدارى أيان تمَّما

ولما رأت أن لا ظلام يجنها ... وأن سُراها فيه لن يُتكتما

نضت عذباتِ الَّريط عن حُر وجهها ... فأبدت مُحيا يُدهش المتوسما

---

(١) وهو الفيلسوف المسلم ابن طفيل .

فكـــان تجليهـــا حجـــاب جمالها ... كشمس الضحى يعشى بها الطـرف كلما

ولما التقينـــا بعـــد طـــول تهاجـــر ... وقـــد كـــاد حبل الـــوُد أن يتصرمـــا

جلت عن ثنـايـــاهـــا وأومض بـــارق ... فلم أدر مـن شق الــــدجنَّـــة منهما

وســاعـدنـى جفنُ الغمام على البُكـا ... فلم أدر دمعـــاً أيُّنـــا كـــان أسجما

فقـــالت وقـــد رق الحديث وأبصرت ... قـــرائن أحـــوالٍ أذعـن المُكتما :

نشـدتك لا يذهب بك الشـوقُ مذهبـا ... يُهون صعبًـــا أو يُـــرخـص مأثما

فأمسكتُ لامستغنيـــا عن نـــوالها ... ولكن رأيـت الصبر أوفى وأكـــرمـــا

ومن شعره فى الزهد ـ رحمه الله ـ ما قرأه علىَّ ابنه من خطه فى التاريخ المذكور :

يـاباكيـا فُـرقة الأحبـاب عن شحطٍ ... هـــلا بكيت فـــراق الـــروح للبـــدن

نـــورٌ تـــردد فى طينٍ إلى أجـلٍ ... فـــانحـــاز عُلـــوًا وخلى الطين للكفن

يـاشد مـــا افترقـــا من بعـــد ما اعتلقـــا ... أظُنهـــا هُـــدنـــةً كـــانت على دخنِ

إن لم يكن فى رضى اللــــه اجتماعُهما ... فيـــــالها صفقـــــةً تمت على غبنِ

وأنشدنى بعض أصحابنا من الكُتاب له رحمه الله :

مـــا كل من شـم نـــال رائحـــةً ... للنـــــاس فى ذا تبـــايُن عجـبُ

قـــومٌ لهم فكـــرةٌ تجول بهم ... بين المعـــــانـــى ، أولئـك النُجـبُ

وفـــرقـــةٌ فى القشـــور قـــد وقفـــوا ... وليس يـــدرون لُب مـــا طلبـــوا

لا غـــايـــةٌ تنجلى لنـــاظـــرهم ... منـــــه ولا ينقضـى لهم أَربُ

لا يتعـــــدى امـــرؤ جِبِلَّتـــهُ ... قـــد قُسمت فى الطبيعـــة الـــرُّتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليـه العلماء من جميع الأقطار ، وينبهه عليهم ، ويحضه على إكرامهم والتنـويه بهم ، وهو الـذى نبَّهه على أبى الـوليد محمد بن أحمد بن محمـد بن رشد ، فمن حينئذ عرفوه ونبُه قدره عندهم .

أبو الوليد بن رشد

أخبرنى تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بكر بُنـدود بن يحيى القرطبى قال : سـمعت الحكيم أبا الـوليد يقـول غير مرة : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقـوب وجدتـه هو وأبـا بكر بن طفيل ليس معهما غيرهما ، فأخذ أبو بكر يُثنـى علىَّ ويذكر بيتى وسلفى ، ويضم بفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغُها قدرى ، فكان أول مـا فاتحنى به أمير المؤمنين بغد أن سألنى عن اسمى واسم أبى ونسبى أن قال لى : ما رأيهم فى السماء ــ يعنى الفلاسفة ـ أقديمـةٌ هى أم حادثة ؟ فأدركنى الحيـاء والخوف ، فأخذت أتعلل وأنكـر اشتغالى بعلم الفلسفة ، ولم أكـن أدرى ما قـرر معه ابنُ طفيل ، ففهم أمير المؤمنين منى الـروع والحياء ، فـالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ، ويذكر ما قاله أرسطاطاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة ويورد مع ذلك احتجـاج أهل الإسلام عليهم ، فـرأيتُ منه غزارة حفظ لم أظنهـا فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفـرغين له ، ولم يـزل يبسطُنىُ حتى تكلمت ، فعـرف ما عنـدى من ذلك ، فلما انصرفتُ أمر لى بمال وخلعة ، سنية ومركب .

وأخبرنى تلميذه المتقدم الذكر عنه قال : « استـدعانى أبو بكر بن طُفيل يوما فقال لى : سمعت اليـوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطـاطاليس ، أو عبـارة المترجمين عنه ، ويذكر غموض أغـراضه ، ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقـرّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقـرُب مأخذُها على الناس ، فإن كان فيك فضل قـوةٍ لذلك فافعل ، وإنى لأرجـو أن تفى بـه ، لما أعلمه من جـودة ذهنك وصـــفاء قريحتك وقـوة نـزوعك إلى الصناعة ، وما يمنعنى من ذلك إلا ماتعلمه من كُبرةِ سنى واشتغالى بالخدمة وصرف عنايتى

إلى ما هو أهم عندى منـه ، قال أبو الوليد : فكان هـذا الذى حملنى على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطاطاليس » .

وقد رأيت أنا لأبى الوليد هـذا تلخيص كُتب الحكيم فى جزء واحد فى نحو مائة وخمسين ورقة ، ترجمهُ بـ « كتاب الجوامع » لخص فيـه كتاب الحكيم المعروف بسمع الكيان ، وكتاب السماء والعالم ، ورسالة الكون والفساد ، وكتـاب الآثار العلوية وكتاب الحس والمحسوس ، ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها فى كتاب مبسوط فى أربعة أجزاء .

رجع الحديث عن الأمير أبى يعقوب

وفى الجملة ، لم يكن فى بنى عبـد المؤمـن فيمن تقـدم منهم وتأخر ملك بـالحقيقة غير أبى يعقوب هذا .

وزراؤه

وزر له أخوه عمر أياما يسيرة ، ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه .

ثـم وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع ، إلى أن قبض عليه واستصفى أمواله فى شهور سنة ٥٧٧ .

ووزر له بعده ابنه أبو يوسف ولىُّ عهده إلى أن مات سنة ٥٨٠ . فكانت ولايته من حين بويع له إلى أن استشهد ـ رحمة الله عليه ـ ببلاد الروم ، اثنتين وعشرين سنة إلا أشهرا .

كتَّـابـه

أبو محمد عياش بن عبـد الملك بن عياش كاتب أبيه ، وأبو القـاسم المعروف بالقالمى ، وأبو الفضل جعفر بن أحمد المعروف بـابن محشوة ، من أهل مدينة بجايـة ، كـان يخـدم أبا القاسم القالمى إلى أن مات ، فكتب مكانه .

هؤلاء كتبـة الإنشـاء خاصـة ، وكتاب الجيش : أبو الحسين الهوزنى الأشـبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى .

حاجبه

كافور مولاه الخصِيّ ، كان يدعى كافور بغُرة .

أولاده

كان له من الولد ثمانية عشر ذكرًا ، وهم : عمر ، ويعقوب - وهو ولى عهده - وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى - كان يحيى هذا رحمه الله ، لى صديقاً ، ومن جهته تلقيت أكثر أخبارهم ، لم أرَ فى الملوك ولا فى السوقة مثله رحمة الله عليه ، وما استجزت لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظُ الخدمة ، إلا لما كان ، رحمه الله ، يكتب إلىّ : أخى ، وصديقى فى بعض الأوقات ، ووليىّ فى بعضها ، اجتمعت عندى بخطه رقاع كثيرة ، خلع علىّ فيها فضله ، وحلانى بما لم أكن استحقه - وموسى ، وإبراهيم ، وإدريس ، وعبد العزيز ، وطلحة ، وإسحاق ، ومحمد ، وعبد الواحد ، وعثمان ، وعبد الحق ، وعبد الرحمن ، وإسماعيل ، وبنات .

قضاته

أبو محمد المالقى المتقدم الذكر ، ثم عزله وولى بعده عيسى بن عمران التازى ، من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس ، من قبيلة يقال لها تسول من البربر يرجعون إلى زناتة .

كان عيسى هذا من فضلاء أهل المغرب ونبهائهم ، وكان خطيباً مصقعاً وبليغاً لَسِناً وشاعراً مُفلِقاً مشاركا فى كثير من العلوم ، ونال فى أيام أبى يعقوب حُظوةً ومكانة ؛ كان يتكلم عن الوفود ويخطب فى النوازل فيأتى بكل عجيبة ، وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصب لمن ينقطع إليه مُفرط . أخبرنى ابنه أبو عمران - قاضى الجماعة فى وقتنا هذا - قال : سمعت أبى يقول وقد لامه بعض من يلوذ به فى التنويه بأقوام ليست لهم سوابق ولا أقدار ، رفعهم من الحضيض جاهه ، ونبههم بعد الخمول اعتناؤه : « ليس العجب ممن يأتى إليه رجل نبيه القدر يرفعه ، إنما العجب ممن يُحيى الميت ويُنبه الخامل ويرفع الوضيع ، فأما النبيه القدرِ فنباهته تكفيه » .

وبلغ من إفراطه فى التعصب أن قال يوما : « ليس بحمايةٍ أن تحمى صاحبك وهو مُحق ، فإن الحق أظهر وأقوى من أن يُحمى ، إنما الحماية أن تحميه وهومُبطل ! » فى أشباه لهذه الأخبار .

وكان له أولاد ما منهم إلا ولى القضاء ؛ وهم ، علىٌّ ، وكان علىٌّ هذا رجلا صالحًا ، ولى فى حياة أبيه قضاء مدينة بجاية ، ثم عُزل عنها وولى مدينة تلمسان ، وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتل فى دينه ، وممن لا تأخذه هوادة فى الحق ؛ ومن أولاده طلحة ، ولى قضاء تلمسان ؛ ويوسف ، تركته قاضيًا بمدينة فاس ، بلغتنى وفاته وأنا بمكة فى سنة ٦٢٠ ، وأبو عمران موسى ، قاضى الجماعة فى وقتنا هذا ، وسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله عز وجل .

ثم ولى بعد أبى موسى هذا رجل اسمه حجاج ابن إبراهيم التجيبى ، من أهل مدينة أغمات من أعمال مدينة مراكش ، وكان حجاج هذا رجلا صالحا يُعد فى الزهاد المتبتلين ، وكان له تبحر فى الفقه ومعرفة بأصوله وبصر بعلم الحديث ، هذا مع نزاهة نفس وطهارة عرض وتصميم فى الحق ، أفرط فى ذلك حتى ثقلت على كثير من وجوه الدولة وطأته ، ونالوا منه عند أبى يعقوب فما زاده ذلك إلا حبًّا وتقريبًا إلى أن مات ـ رحمه الله ـ فى حياة أبى يعقوب بلغ من رقة قلبه وسرعة دمعته أنه دخل يوما على أمير المؤمنين أبى يعقوب وقد بل لحيته ورداءه بدموعه ؛ فلما مَثَل بين يديه زاد فى البكاء ، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، سألتك بالله ، ألا أعفيتنى ؟ قال : عزمت عليك لتخبرنى أولاً بسبب بكائك ! قال : بينْا أنا قاعد فى مجلس الحكم إذ أُتِيتُ بشيخ سكران كنت قد حددته مرارا ، فكان من كلامى أن قلت له : ياشيخ ، كيف تحشر ؟ ففتح يديه وقال : هكذا . . [1] فوالله ما ملكتُ دمعتى حين عرفت ماعنى بقوله ، إنما عرض لى بقول النبى ﷺ : « إن القاضى يحشر مُطوّقةً يداه إلى عنقه ، فإما أن يحله عدله أو يهوى به جوره ! » هذا معنى الحديث ؛ فأسألك

---

(١) بياض فى الأصل .

بالله ، ألا أعفيتنى ؟ فوعده بذلك ، فقال : عسى أن يكون فى مقامى هذا ! فقال له : لا أفعل حتى أجد عوضا منك ! فخرج من عنده ، فما لبث إلا أياما يسيرة حتى مات ، رحمة الله عليه !

ثم ولى بعده القضاء أبو جعفر أحمد بن مضاء ، من أهل مدينة قرطبة ؛ فلم يزل أبو جعفر هذا قاضيًا إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وصدراً من خلافة أبى يوسف المنصور رحمه الله .

***

فصـــل

دخول بنى مردنيش فى طاعة الموحدين

ولما استوسق لأبى يعقـوب هذا الأمر ، لم يـزل مقيماً بمراكش إلى أن كـانت سنة ٥٦٧ ، فبدا لـه أن يعبر إلى جزيـرة الأندلس ، مُظهـراً قصد غـزو الروم ، ومبطنـا إتمام تملُّك الجزيرة والتغلب علي ما فى يـد محمد بن سعـد المعروف بابن مـردنيش منها ؛ وكـان يملك منها ابن سعد المذكور من أول أعمال مـرسية إلى آخر ما يملكـه اليوم المسلمون من شرقيها ــ وقد تقدم تلخيص التعـريف بمملكته إياهـا ومن أين اتصلت إليـه ـ فجمع أمير المؤمنين أبـو يعقوب جموعًا عظيمة من قبائل الموحدين وغيرهم من أصناف الجنـد ، وسار حتى نزل مدينة سبتة ، فبُنى له بها منزل هو باق هناك إلى اليـوم ؛ فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه ، ولحق به من كان تأخر عنه من العسـاكر ؛ ثم عبر البحر وقصد مـدينة أشبيلية ، فنزلها ، وجهـز العساكر إلى محمد بن سعد .

وكان أخو أبى يعقـوب ، عثمان بن عبد المؤمن ، والياً على مدينة أغرنـاطة ، فكتب إليه يقصد بالعساكر إلى مدينة مرسيـة ، دارِ مملكة محمد بن سعد ، فخرج عثمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يدعى الجلاب ، وخرج إليه محمد بن سعد فى جموع عظيمة أكثرها من الإفرنج ؛ لأن ابن سعد كان مستعينًا بهم فى حروبه ، وقد اتخذهـم أجناداً له وأنصارا ، وذلك حين أحس باختلاف وجوه القواد عليه ، وتنكرِ أكثر الرعية له ، فقتل من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعـة بأنواع من القتـل ، بلغنى أن منهم من بنى عليه فى حـائط وتـركه حتى مـات جوعًـا وعطشًا ، إلى غير هذا من ضروب القتل ؛ واستـدعى النصارى كما ذكـرنا ، فجعلهم أجناداً لـه ، وأقطعهم ما كان أولئك القواد يملكـونه ، وأخرج كثيراً من أهل مـرسية وأسكن النصارى دُورهم . . .

فزحف ـ كما ذكـرنا ـ بجيشه ، ومعظمهم من الإفرنج ، فالتقى هـو والموحدون بالموضع

المعروف بالجلاب ، على أربعة أميال من مرسية ، فانهزم أصحاب محمد بن سعد انهزامًا قبيحاً ، وقُتل من أعيان الروم جملة ، ودخل محمد بن سعد مدينة مرسية مستعدا للحصار ، فضايقه الموحدون ، ومازالوا محاصرين له إلى أن مات وهو فى الحصار حتف أنفه ، وسُترت وفاته إلى أن ورد أخوه يوسف بن سعد ، الملقب بالرئيس ، من بلنسية ؛ وكان والياً عليها من جهة أخيه محمد ؛ فاجتمع رأيه ورأى أكابر ولد محمد بن سعد ـ بعد أن أتهمُوا وأنجدوا وأخذوا فى كل وجه من وجوه الحيل ـ على أن يُلقوا أيديهم فى يد أمير المؤمنين أبى يعقوب ، ويُسلموا إليه البلاد ، ففعلوا ذلك ، وقيل : إن أبا عبد الله محمد بن سعد حين حضرته الوفاة ، جمع بنيه ـ وكان له من الولد على علمى ثمانية ذكور ، وهم : هلال ـ يكنى أبا القمر ، وهو أكبر ولده وإليه أوصى ـ وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وأصاغر لا علم لى بأسمائهم ؛ وبناتٌ تزوج إحداهن أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وتزوج الأخرى أمير المؤمنين أبو يوسف يعقوب بن يوسف ـ فكان فيما أوصاهم به أن قال : « يابنى ، إنى أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد فى طاعتهم ، وإنى أظن أنه لاطاقة لكم بمقاومتهم ، فسلموا إليهم الأمر اختياراً منكم ، تحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بكم مانزل بغيركم ، وقد سمعتم مافعلوا بالبلاد التى دخلوها عنوة ! » ففعلوا ما أمرهم به ؛ فالله أعلم أى الأمرين كان .

وخرج أمير المؤمنين أبو يعقوب من أشبيلية قاصداً بلاد الأدفنش ـ لعنه الله ـ فنزل على مدينة له عظيمة تسمى وَبْذَة ، وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأدفنش ووجوه أجناده فى تلك المدينة ، فأقام محاصراً له أشهراً ، إلى أن اشتد عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد . أخبرنى جماعة يكثر عددهم ممن أدركت من شيوخ أهل الأمر ، أن أهل هذه المدينة لما برح بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم ، على أن يخرجوا له عن المدينة ، فأبى ذلك عليهم ، وأطمعه فيهم ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم ؛ فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم فى بعض الليالى لغطٌ عظيم وجلبة أصوات ؛ وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم ، واجتمع قسيسوهم ورهبانهم يدعون ويؤمِّن باقيهم ، فجاء مطر عظيم كأفواه

القرب ، ملأ ما كان عندهم من الصهاريج ، وشربوا وارتووا وتقووا على المسلمين ؛ فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعًا إلى أشبيلية ، بعد أن هادن الأدفنش ـ لعنه الله ـ مدة سبع سنين .

ولم يزل أمير المؤمنين مقيما بالأندلس بقية سنة سبع ، وثمان ، وتسع ، إلى أن رجع إلى مراكش فى آخر سنة ٥٦٩ وقد ملك الجزيرة بأسرها ، ودانت له بجملتها ، ولم يخرج عن طاعته شىء منها .

الخارجون على طاعة الموحدين بالمغرب

وفى سنة ٧١ خرج إلى سوس لحسم خلافٍ وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بدرن فتم له ما أراد من إخماد الفتنة وجمْع الكلمة و إطفاء النائرة وحسم الخلاف .

وفى صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بغُمارة مفارقة الجماعة ونزع اليد من الطاعة ، وكان رأسهم فى ذلك الذى إليه يرجعون ، وعميدهم الذى عليه يعولون ، رجل اسمه سَبُع ابن حيان ، ووافقه على ذلك أخ له يسمى مرزدغ ، فدعوا إلى الفتنة ، واجتمع عليهما خلق كثير ، والقبيلة المذكورة لا يكاد يحصرها عددٌ ولا يحدها حَزْر لكثرتها ؛ مسافة بلادها طولا وعرضًا نحو من اثنتى عشرة مرحلة ، فخرج إليهم أمير المؤمنين أبو يعقوب نفسه ، فأسلمتهما جموعهما ، وتفرق عنهما من كان اجتمع عليهما ، وأُخذا قبضَ اليد ؛ فقُتلا صبراً وصلبًا ، ثم رجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش .

وفى أول سنة ٧٥ خرج أبو يعقوب من مراكش قاصداً بلاد أفريقية ؛ فقصد منها مدينة قفصة ؛ وكان قد قام بها رجل اسمه على ، يُعرف بابن الرند ، وتلقب بالناصر لدين النبى ، فحاصره أبو يعقوب والموحدون إلى أن استنزلوه ، وقطعوا دابر الخلاف وحسموا مواده ، ورجعوا إلى مراكش .

صُلح ملك صقلية

وفى هذه السفرة صالحه ملك صقلية وأرسل إليه بالإتاوة ، بعد أن خافه خوفًا شديدًا ، فقبل منه ما وجه به إليه ، وهادنه على أن يحمل إليه فى كل سنة مالاً اتفقا عليه ، وبلغنى أنه اتصلت إليه منه ذخائر لم يكن عند ملك مثلها ، مما اشتهر منها حجر ياقوتٍ يسمى الحافر - جعلوه فيما كللوا به المصحف ، لا قيمة له ، على قدر استدارة حافر الفرس ، وهو فى المصحف إلى اليوم - مع أحجارٍ نفيسة .

المصحف العثمانى فى المغرب

وهذا المصحف الذى ذكرناه ، وقع إليهم من نسخ عثمان - رضي الله عنه - من خزائن بنى أمية ، يحملونه بين أيديهم أنَّى توجهوا ، على ناقة حمراء عليها من الحلى النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالاً طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها ، وعن يمينه ويساره عصَيّان عليهما لواءان أخضران ، وموضع الأسنّة منهما ذهب شبهُ تُفاحتين ، وخلف الناقة بغل محلًّى أيضًا ، عليه مصحف آخر يقال إنه بخط ابن تومرت ، دون مصحف عثمان فى الجِرم ، محلى بفضة مموهة بالذهب ، هذا كله بين يدى الخليفة منهم .

ورجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مراكش من أفريقية ، بعد أن لم يبق بجميع المغرب مختلف عليهم ولا معاند لهم ، ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها - كما ذكرنا - وكثرت فى أيامه الأموال واتسع الخراج .

حسن معاملة الموحدين لمن يغلبونهم من الملوك

وكان - كما ذكرنا - سخيًّا جواداً ، بلغنى أنه أعطى هلال بن محمد بن سعد المتقدم الذكر ، صاحب شرقى الأندلس ، اثنى عشر ألف دينار فى يوم واحد ، ولهلال هذا معه أخبار عجيبة ، من تقريبه إياه وإحسانه إليه وحبه له .

أخبرنى بعض ولد هلال هذا ، أنه سمع أباه يقول : رأيت فى المنام فى بعض الليالى كأن أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولنى مفتاحاً ، فلما أصبحت إذا رسوله يستحثنى ، فركبت وأتيت القصر ، فدخلت عليه وسلمت ، فاستدنانى حتى مست ثيابى ثيابه ، ثم أخرج إلىّ من تحت برنسه مفتاحاً على النحو الذى رأيت فى المنام ، وقال : خذ إليك هذا المفتاح ، فتهيبت أن أسأل عن شأن المفتاح ، فقال لى ابتداءً : يا أبا القمر ، إن عامل مُرسية أرسل إلينا فى جملة ما أرسل صُندوقًا وجده ـ زعم ـ فى بعض خزائنكم ، لا يدرى مافيه ، وهذا مفتاحه ، ونحن لا ندرى ما فيه ! فقلت : هلاَّ أمر أمير المؤمنين أن يُفتح بين يديه ! فقال : لو أردنا أن يُفتح بين أيدينا لم نسلم إليك المفتاح ! وأمر فحمل الصندوق إلىّ ففتحته ، فإذا فيه حلىٌّ وذخائر من ذخائر أبى ما يساوى أكثر من أربعين ألف دينار .

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم ، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث فى الجهاد تُملى على الموحدين ليدرسوها ـ وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم ـ فجمع العلماء ذلك وجاءوا به يمليه على الناس بنفسه ، فكان كل واحد من الموحدين والسادة يجىء بلوح يكتب فيه الإملاء ، فجاء هلال هذا المذكور يومًا ولا لوح معه ، فأخرج القوم ألواحهم ، فقال له الوزير : أين لوحك يا أبا قمر ؟ فخجل وافتتح يعتذر ، فأخرج له أمير المؤمنين من تحت برنسه لوحاً وناوله إياه ، وقال : هذا لوحك ! فلما كان من الغد جاء ومعه لوحٌ غير الذى دفعه له أمير المؤمنين ، فلما نظر إليه قال له : أين لوحك بالأمس يا أبا القمر ؟ فقال : خبأته وأوصيت إذا مت أن يُجعل بين جلـــــدى وكفنى ! وأتبع ذلك بكـــاء حتى أبكى بعض من كان فى المجلس ، فقال أمير المؤمنين : هذا المُحب الصادق ! وأمر له بخيل وأموال وخِلع ، ولبنيه بمثل ذلك .

اتساع الدولة وزيادة الخراج

وكان الذى يُسهل عليه بذل الأموال ـ مع ما جُبل عليه من ذلك ـ سعة الخراج وكثرة الوجوه التى يتحصل منها الأموال .

كان يـرتفع إليه خـراج إفريقية ، وجملتـه فى كل سنة وفْـر مائة وخمسين بغـلاً ، هذا من إفريقيـة وحدها ، خـلا بجاية وأعمالها ، وتلمسـان وأعمالها ، والمغرب ـ وحـدُّ عمل المغرب عندهم الذى يطلقون عليه هذا الاسم ، من مدينة تـدعى رباط تازا إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون ، طول هذه المسافة وعرضها نحو من سبعة مراحل ، وهى أخصب رقعة على الأرض فيها علمت ، وأكثرها أنهاراً مطردة ، وأشجاراً ملتفة ، وزروعًا وأعنابًا ـ ومدينة سَلاَ وأعمالها ، وسبتة وأعمالها ـ وأعمال سبتة هذه فى غـاية السعة والضخـامة ؛ لأن بـلاد غمُارة كلهـا ترجع إليها ، وهى ـ كما ذكرنا ـ طولاً وعرضًا نحو من اثنتى عشرة مرحلة ـ وجزيرة الأندلس قاطبة ، أول ذلك آخر بـلاد المسلمين مما يتـاخـم أرض الروم ، وآخره أيضـاً مما يتـاخـم أرض الروم من أعمال شلب ، ومسافة ذلك طولاً وعرضًا نحو من أربع وعشرين مرحلة .

هذا كلـه لا ينازعه إيـاه أحد ولا يمتنع عليـه منه درهم ، مضافـاً إلى مراكش وأعمالها ، وأعمال مراكش أيضاً فى نهاية من السعة ، لأن بالقرب منها قبائل ضخمة وبلاداً كثيرة ، فلم يرتفع لملك من الملوك ـ أعنى ملوك المغرب ـ قبل أبى يعقوب هذا وبعـده ، ما ارتفع إليه من الأموال .

وقد بلغنـى من جهة رجل من أصحـابنا كـان يتولى بيـوت الأموال ، قـال لى : وجدت خرائط كثيرة مما كـان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبى يعقوب بختمها . . قال لى هـذا القول فى غرة سنة ٦١١ .

وفى أيام أبى يعقوب ورد علينا المغـــرب أول من وردها من الغُزّ[١] ، وذلـــك فى آخر سنة ٧٤ ، ومازالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبى يوسف .

---

(١) نسبة إلى المماليك الترك الذين سكنوا مصر .

ولم تزل أيـام أبى يعقوب هذا أعياداً وأعـراساً ومواسم ، كثـرة خِصب ، وانتشار أمنٍ ، ودرور أرزاقٍ ، واتساع معايش ، لم يـر أهل المغرب أيامًا قط مثلها ، واستمـر هذا صدراً من إمارة أبى يوسف .

محاولة أبى يعقوب فتح شنترين ووفاته

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يعقوب للغزو ، واستنفر أهل السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرهم ، وخرج بجيوشه قاصداً جزيـرة الأندلس ، فعبر البحر بعساكره كما ذكرنا ، وقصـد مدينة أشبيليـة على عادته ، إذ هى منزله ومنزل الأمراء من بنيه بـالأندلس أيام كونهم بها ، فأقام بها ريثما أصلح الناس شئونهم وأخذوا أهبتهم ، ثم خرج يقصد مدينة شنترين[1] أعادهـا الله للمسلمين ، وهذه المدينة ــ أعنى شنترين ـ بمغـرب الأندلس ، وهى من أمنع المدائن ـ وقد تقدم ذكرها فى أخبار الدولـة اللمتونية ـ يملك وجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك ، ملكٌ من ملوك النصارى يعـرف بابن الريق ـ لعنـه الله ـ فخرج أمير المؤمنين ـ كما ذكـرنا ـ فى جيوشه حتى نـزل عليها ، فضايقها وأخذ فى قطع ثمارها وإفسـاد زروعها وشن الغارات على نـواحيها ، وكـان ابن الـريق ــ لعنه الله ــ حين سمع بحـركـة أبى يعقوب وصـح عنده أنـه يقصـــده ، نظر فى أمره ، فلم ير له طاقة بدفاعه ولا نهضة لمقاومته ، فلم يكن له هم إلا أن جمع وجـوه دولته وأعيـان جنده وذوى الغنـاء من قـواده وسائر أتبـاعـه ، ودخل بهم مدينـة شنترين ، واثقاً بحصانتها وشـدة منعتها ، هذا بعد أن ملأها أقواتاً وسـلاحًا وجميع ما يحتاج إليه ، وجلل أسوارها مُقاتلةً معهم الدَرق والقِسِيُّ والحراب ، إلى غير ذلك مما يحتاج إليه .

فنزل عليهم أبو يعقـوب ، فألفاها ـ كما ذكرنا ــ ، قد استعد أهلها بكل مايظنونـه نافعاً

---

(١) شنترين : مدينة كبيرة بـالأندلس ، على الشاطىء الأيمن من نهر تاجو ، وهى مفتاح واديـه ، موقعها إلى الشمال الشرقى من أشبونة ، وبينهما ثمانون ميلاً ، وقـد ظلت شنترين فى يد العرب منذ الفتح إلى أن ملكها ألفونس السـادس ملك قشتالة سنة ٥٤٣ ثم كـانت هذه المحاولة لاستردادهـا ، وقد قام بعبء الدفاع عنها فى هذه المحاولة ، الدون شانجو(Don Sangho) .

لهم ودافعاً عنهم ، وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأنـدلس المشهورة ، يسمى تاجو ، فبالغ أبو يعقوب ـ كما ذكرنا ـ فى التضييق عليها وانتساف معيشتها وقطع المواد والمدد عنها ، فما زاد أهلها إلا صرامـة وشدة وجلـدًا ، فخاف المسلمون هجـوم البرد ـ وكـان فى آخر فصل الخريف ـ وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عبوره وينقطع عنهم المدد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بـالرجـوع إلى أشبيلية ، فإذا كـان وجوهُ الـزمان عـادوا إليها أو بعث من يتسلمهـا ، وصوروا له أنها فى يده ، لا يمنعه منها مانع ، فقَبِلَ ذلك منهم ووافقهم عليه ، وقال : نحن راحلون غـداً إن شاء الله . ولم ينتشر هـذا القول كل الانتشـار ، لأنه كـــان قـاله فى مجلس الخاصة ، فكـان أول من قوض خبـاءه وأظهر الأخذ فى أهبـة الرحيل ، أبـو الحسن عـلى بن عبد الله بن عبد الـرحمن المعروف عندهم بالمالقى ـ وقد تقدم ذكـر أبيه فى قضاة عبد المؤمن ـ وكان أبو الحسن هذا خطيبهم ومعتبراً عندهم ، يُـدعى خطيب الخلافة ، وكان له حظ جيد مع الفقه ومعـرفة الحديث ، وقسمٌ وافـر من قرض الشعر وصنـاعة الكتابـة ، فلما رآه الناس قوض خبـاءه قوضوا أخبيتهم ثقـة به ، لمكانـه من الدولـة ومغرفته بأخبـارها ، فعبر فى تلك العشية أكثر العسكر النهر يريدون التقدم خشية الزحام وحرصاً على أخذ جيدِ المواقع واختيار المنازل ، ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين .

وبـات الناس يعبرون الليل كلـه وأمير المؤمنين لا علم له بـذلك ، فلما رأى الروم عبـور العساكـر وبلغهم من جهة عيونهم الـذين بالعسكر ماعـزم عليه أبو يعقـوب والمسلمون من الـرحيل ، ورأوا انفضاض الأجنـاد وافتراق أكثـر الجموع ، خـرجـوا منتهـزين الفرصـة التى أمكنتهم ، فى خيلٍ كثيفة ، فحملوا على من يليهم من الناس ، فانهزموا أمامهم ، حتى بلغوا الخباء الذى فيه أمير المؤمنين أبو يعقوب ، فقُتِلَ على باب الخباء من أعيان الجند خلق كثير ، أكثرهم من أعيان الأندلس ، وخُلص إلى أبى يعقوب فطُعن تحت سرتـه طعنة مات منها بعد أيام يسيرة .

وتـدارك النـاس فانهزم الـروم راجعين إلى بلـدهم بعـد أن قضوا مـا قضـوا ، وعُبر بأمير المؤمنين النهر جريحًا ، فجُعل فى محفة وسِير به .

عاقبة أبى الحسن المالقى الخطيب

وسأل أمير المؤمنين : من كـان السبب فى حركـة الناس على هـذا الوجـه المؤدى إلى هذا الاختلال ؟ فأُخبر بما فعله أبو الحسن المالقى ، فقال : عنده : سيجنى ثمرتها إن شاء الله ! فلما بلغـه ذلك هـرب حتى دخل مـدينة شنتريـن فارًّا بنفسـه على ملك الـروم ابن الـريق ، فأحسن نُزُله وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقًا واسعًـا ، ولم يزل عنده مكرمًا إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتـب كتاباً إلى الموحـدين يستعطفهم ويسأل من عـرفه من أعيـانهم الشفاعـة له ، وأدرج فى ضمن ذلك فصلاً يذكـر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كـانوا أقاموا عليهـا ليلة أخرى أخذوهـا ، ويدلهم على بعض عوراتهم مما كان خفى عنهم ، وقال لملك الـروم ابن الريق : إنى أحب أن أكتب كتـاباً إلى عيالى وأولادى وأخبرهـم بسلامتى وأعلمهم إكـرام الملك إياى وإحسانه إلىّ وما أنا فيه من العافية ، حتى تطمئن نفوسهم ، وأريد أن توجه مع الذى يحمله من يخفره إلى أول بلاد المسلمين ، فأذن له فى ذلك وأجابه إليه ، فكتب الكتاب . .

وكان العِلج الموكل به الذى يقوم عليه ويأتيه بكل مـا يحتاج إليه ، يعرف لسان العـرب ـ إلا أنه لم يكن يتكلم به ـ ويقرأ الخط العربى ، فقام أبو الحسن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشورًا ، ولم يخطر له أن العلج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربى ، فلمح العلج الكتاب لمحة ، ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده ، فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر . .

وختم أبو الحسن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده ، فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بنحـوٍ من مرحلـة ، أُمر بالقبض عليـه هناك وأُخذ الكتـاب منه ، فلما أُتى بـالكتاب فتحه وجمع المسلمين الـذين بالمدينـة وألقى إليهم الكتـاب وأمرهـم بقراءة ذلـك الفصل المذكـور ، واستحضر أبا الحسن ، وقـال لترجمانـه : قل له : مـا حملك على مـا صنعت مع إكرامى لك وبرى بك ؟ فكان من جوابه أن قال : إن برك بى وإكرامك إياى لا يمنعانى من

النصح لأهل دينى والدلالة لهم على مافيه مصلحتهم ! فشاور ابن الريق ـ لعنه الله ـ قسيسه فى أمره ، فأشاروا عليه بإحراقه ، فأحرقوه .

وفاة الأمير أبى يعقوب

وأما ما كان فى أمر أمير المؤمنين أبى يعقوب ، فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا ، أثقله الجرح واشتد عليه ، فما ساروا به إلا ليلتين أو ثلاثا حتى مات رحمه الله ، فأخبرنى من كان معهم فى تلك السفرة أنه سُمع النداء فيما بين العشاءين فى العسكر كله : الصلاة على الجنازة ، جنازة رجل ! فصلى الناس قاطبة على الجنازة لايعرفون على من صلوا ، ولم يعلم بذلك إلا خواصُّ أهلِ الدولة ، وساروا به حتى بلغوا أشبيلية فنزلوها ، فصبَّروه وبعثوا به فى تابوت مع كافور الحاجب مولاه المتقدم الذكر إلى تينمل ، فدفن هناك مع أبيه عبد المؤمن وابن تومرت .

وكانت وفاته يوم السبت قُبيل غروب الشمس لسبع خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠

أخبرنى ابنه أبو زكريا يحيى ـ رحمة الله عليه ـ أنه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً ما يردد هذا البيت :

طوى الجديدان ما قد كنت أنشره وأنكرتْنى ذوات الأعينِ النجُلِ !

ذكر ولاية أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن

وهو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على كما ذكرنا ، يكنى أبا يوسف ، أمه أم ولد رومية اسمها ساحر ، بويع له فى حياة أبيه بأمره بذلك ، وكان سنه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة ، فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلى أن توفى فى شهر صفر الكائن فى

سنة ٥٩٥ ، ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأيامًا ، وتوفى وله من العمر ثمان وأربعون سنة وقد وخطه الشيب .

صفاتـــه

كـان صافى السمـرة جدًّا إلى الطـول ما هـو ، جميل الـوجه ، أَعْيَنَ أَفْـوَه أفنى ، شديـد الكحل ، مستدير اللحيـة ، ضخم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جـزل الألفاظ ، أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثًـا وأكثرهم إصـــابة بالظن ، كـان لايكاد يظن شيئاً إلا وقع كما ظن ، مجرِّبًا لـلأمور ، عارفًا بأصـول الشر والخير وفروعهما ، ولى الوزارة أيـام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضـاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور ، فدبرها بحسب ذلك ، فجرت أموره على قريب من الاستقامة والسداد حسبما يقتضيه الزمان والإقليم .

أولاده

كان له من الولد : محمد ـ ولى عهده ، وسيأتى ذكر مولده ووفاته ـ وإبراهيم ، وعبد الله وعبد العـزيز ، وأبو بكـر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، ومـوسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين ، هؤلاء أولاده المخلفون بعده ، ومات له فى حياته عدةٌ من الولد ، وله بنات فيهن كثرة .

وزراؤ ه

أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى إلى أن مات .

ثم وزر لـه بعده [أبـو يحيى] أبو بكـر بن عبـد ا لله بن أبى حفص عمر إينتى المتقـدم الذِّكر ، واستمـرت وزارة أبى يحيى هذا إلى أن استشهد ـ رحمه الله ـ ببـلاد الروم على ماسيأتى بيانه إن شاء الله ، فاضطرب أمر الوزارة قليلا .

ثم وقع اختيارهم على أبى عبد الله محمد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص المتقدم الذكر ، وأبو عبد الله هذا هو الملقب عندهم بالفيل ، وهو ابن عم الوزير الشهيد [أبى يحيى] المذكور آنفا ، فوزر أبو عبد الله هذا أيامًا يسيرة ، ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحى أشبيلية ، فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد ، فأرسلوا إليه من رده ، وأعفوه من الوزارة .

ثم وزر له أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاتى ، فلم يزل عبد الرحمن هذا وزيراً إلى أن مات أبو يوسف ، وصدراً من إمارة ابنه أبى عبد الله ، ثم عزل عن الوزارة .

حجابه

عنبر الخصى مولاه ، ثم ريحان الخصى مولاه أيضًا ، إلى أن مات وحجب ابنه أبا عبد الله ، فلم يزل حاجبا له إلى أن مات ريحان المذكور .

كُتابه

أبو الفضل جعفر المعروف بابن محشوة ، كان من كتاب أبيه - حسبما تقدم - جمع أبو [الفضل] جعفر هذا إلى براعة الكتابة سعة الرواية وغزارة الحفظ وذكاء النفس ، لم يزل كاتبًا له إلى أن توفى ، أعنى أبا الفضل .

فكتب له بعده أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش من أهل برشانة من أعمال ألمرية من بلاد الأندلس ، لم يزل أبو عبد الله هذا كاتباً له ولابنه محمد ولابن ابنه يوسف ، تركته حيا حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤ ، ثم اتصلت بى وفاته فى شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذ بالبلاد المصرية .

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما ، كاتبا الإنشاء الخاصة .

وكُتَّاب الجيش : رجل يعرف بالكُباشى ، ذهب عنى اسمه ، وقد كان يكتب قبله

أبو الحسن بن مُغنٍ ، استمرت كتابة الكباشى هذا ديوان الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يوسف .

ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم ــ أعنى من كتبة الإنشاء ـ من عرف طريقتهم وصب فى قالبهم وجرى على مهيعهم وأصاب مافى أنفسهم كأبى عبد الله بن عياش هذا ، فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب ، ثم جرى الكُتاب بعده على أسلوبه وسلكوا مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة .

قضاتــه

أبو جعفر أحمد بن مضاء المتقدم الذكر إلى أن مات ، وولى بعده أبو عبد الله محمد ابن مروان من أهل مدينة وهران ، ثم عزله وولى بعده أبا القاسم أحمد بن محمد ، رجلاً من ولد بَقِيِّ بن مخلد الفقيه المحدث الذى يروى عن أحمد بن حنبل ، وقد تقدم ذكر بَقى هذا وطرفٌ من أخباره فى صدر الدولة الأموية فى أخبار الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن بن معاوية الداخل بالأندلس ، ولم يزل أبو القاسم هذا قاضيًا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو يوسف ، وشيئاً من أيام ابنه محمد .

تلخيص التعريف بخبر بيعته

ولما مات أبو يعقوب ـ كما ذكرنا ــ على مراحل من مدينة شنترين ، سُترت وفاته إلى أن بلغوا أشبيلية ، وهم فى كل يوم يصبحون يمشون بين يدى الدابة التى عليها المحفة مشاةً على أرجلهم كما جرت العادة ، ثم يركبون والمحفة مسدول عليها سترٌ أخضر إلى أن بلغوا أشبيلية كما ذكرنا ، فخرج الإذن من أمير المؤمنين أبى يعقوب ـ زعموا ــ بتجديد البيعة لابنه أبى يوسف ، فبايعه المصامدة والناس عامة من جميع الأصناف .

وكان الذى سعى فى بيعتـه وقام بها ورغب فيها وتولى كِبَر أمـرها ، ابن عمه أبو زيـــد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، فتم له الأمـر وبايعه الناس ، يحسبون ذلك بإذن أبيه ، فلما فرغ ممـا أراده من ذلك وتهيأ لـه ، أعلن وفاة أبيـه عند خـواص الدولـة ، ولم تجر عادتهم بإعلان موت خلفائهم عند العامة إلى هلم .

وكان له من إخـوته وعمومته منـافسون لايرونه أهلا لـلإمارة ؛ لما كانوا يعـرفون من سوء صباه ، فلقى منهم شدة ـ على ماسيأتى بيانه ـ وكانـــــت هذه البيعة العامة ـ كما ذكرنا ـ فى سنة ٥٨٠ .

ولما استوسق أمره ـ على ما تقدم ـ عبر البحر بعسـاكره وسار حتى نزل مدينة سَلاَ ، وبها تمت بيعتـه واستجاب لـه من كان تلكأ عليـه من أعمامه من ولـد عبد المؤمن ، بعـد ما مـلأ أيديهم أموالا وأقطعهـم الأقطاع الواسعة .

بنيان مدينة الرباط

ثم شرع فى بنيـان المدينـة العظمى التى على ساحـل البحر والنهـر من العُـدْوة التى تلى مراكش ، وكان أبو يعقـوب ـ رحمه الله ـ هو الذى اختطها ورسم حـدودها وابتدأ فى بنيانها ، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها ، فشرع أبو يوسف ـــ كما ذكرنا ـ فى بنيانها إلى أن أتم سورها ، وبنى فيها مسجـداً عظيماً كبير المساحة واسع الفنـاء جدًّا ، لا أعلم فى مساجـد المغرب أكبر منه ، وعمل له مأذنـة فى نهاية العُلو ، على هيئة منار الأسكندريـة ، يُصعد فيه بغير دَرَج ، تصعد الدواب بالطين والآجُرّ وجميع ما يُحتاج إليه إلى أعلاها ، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم ، لأن العمل ارتفع عنه بموت أبى يـوسف ، ولم يعمل فيه محمد ولا يوسف شيئـاً ، وأما المدينة فتمت فى حياة أبى يوســـف وكملت أســوارها وأبوابها وعمر كثير منهـا ، وهى مدينة كبيرة جدًّا ، تجىء فى طولها نحواً من فرسخ ، وهى قليلة العرض

ثم خرج بعـد أن رتب أشغال هذه المدينة وجعـل عليها من أمناء المصامـدة من ينظر فى

أمر نفقاتها وما يصلحها ، فلم يزل العمل فيها وفى مسجدها المذكور طول مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤ ، وسار هو حتى نزل مراكش .

طمع بنى غانية فى التغلب على إفريقية

وفى هذه السنة ـ أعنى سنة ٥٨٠ ـ خرج الميرقيون بنو ابن غانية من جزيرة ميرقة قاصدين مدينة بجاية ، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحدين ، وذلك لست خلوان من شعبان من السنة المذكورة ، وهذا أول اختلال وقع فى دولة المصامدة ، لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١ .

التعريف ببنى غانية ودار ملكهم

وتلخيص خبر هؤلاء القوم ـ أعنى بنى غانية ـ أن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، وجه إلى الأندلس برجلين ، اسم أحدهما يحيى ، والآخر محمد ، ابنى على ، من قبيلة مسوفة ، يعرفان بابنى غانية ، وهى أمهما ، فأما يحيى وهو الأكبر ، فكان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له من المناقب ما افترق فى كثير من الناس ، فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف لله ـ عز وجل ـ والتعظيم له والاحترام للصالحين ، هذا مع علو قدم فى الفقه واتساع رواية للحديث ، وكان ـ مع هذا ـ شجاعًا فارسًا ، إذا ركب عُد وحده بخمسمائة فارس ، وكان على بن يوسف يُعده للعظائم ويستدفع به المهمات ، وأصلح الله على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس ودفع به للمسلمين غير مرة مكاره قد كانت نزلت بهم ، كان أمير المسلمين ولاه مدينة بلنسية ، ثم عزله عنها وولاه قرطبة ، فلم يزل بها والياً إلى أن مات ـ رحمة الله عليه ـ أول الفتنة الكائنة على المرابطين ، لا أعلم له عقبا .

محمد بن غانية

وكان أخوه محمد والياً من قِبَله على بعض أعمال قرطبة ، فلما مات اضطرب أمر محمد هذا وبقى يجول فى بلاد الأندلس والفتنة تتزايد ودعوة المصامدةتنتشر ، فلما اشتد خوف محمدٍ هذا أتى مدينة دانية فعبر منها إلى جزيرة ميرقة فى حشمه وأهل بيته ، فملكها والجزيرتين اللتين حولها ، منرقة ويابسة ، ويقال إن أمير المسلمين على بن يوسف نفاه إليها على طريق السجن بها ، فالله أعلم .

وهذه الجزيرة - أعنى ميرقة - أخصب الجزر أرضاً ، وأعدلها هواء ، وأصفاها جوًّا ، طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخًا ، اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت ، من ذئب أو سبع أو حية أو عقرب ، إلى غير ذلك مما يُخْشى ضرره ، ويجاورها بالقرب منها جزيرتان تقتربان منها فى الخصب ، تسمى إحداهما منُرقة ، والأخرى يابسة ، وقد تقدم ذكرهما .

فاستقل محمد بمملكة هذه الجزر ، وضبطها لنفسه ، وأقام فيها جاريًا على أمر لمتونة الأول ، يدعو لبنى العباس ، وكان له من الولد : عبد الله ، وإسحاق ، والزبير ، وطلحة ، وبنات .

فعهد فى حياته إلى أكبر ولده ، عبد الله ، فنفس ذلك عليه أخوه إسحاق ، ودخل عليه فى جماعة من الجند وعبيدٍ له فقتله - قيل فى حياة أبيه ، وقيل بعد وفاته - وتوفى عبد الله المذكور .

إسحاق بن محمد

واستقل أبو إبراهيم بالملك استقلالاً حسنًا ، وحسنت حالته ، وكثر الداخلون عليه بجزيرة ميرقة من فل لمتونة وبقاياهم ، فكان يحسن إليهم ويصلهم حسب طاقته .

وأقبل على الغزو ، وصرف عنايته إليه ، فلم يكن له هم غيره ، فكان له فى كل سنة سفرتان إلى بلاد الروم ، يغنم ويسبى وينكى فى العدو أشد نكاية ، إلى أن امتلأت أيدى أصحابه أموالاً ، فقوى بذلك أمره ، وتشبه بالملوك ، ولم يزل هذه حالـــه إلى أن توفى فى سنة ٧٩ ، وفى أولها وفى آخر أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن .

وكان يراسل الموحدين ويهاديهم ويهاندهم ويختصهم من كل مايسبى ويغنم بنفيسه وجيده ، يشغلهم بذلك عنه ، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة وقلة التفاتهم إليها ، فلما كان فى شهور سنة ٥٧٨ والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول فى طاعتهم والدعاء لهم على المنابر ، ويتوعدونه على ترك ذلك ، فوعدهم ذلك واستشار وجوه أصحابه ، فاختلفوا عليه ، فمن مشير عليه بالامتناع بمكانه وحاضٍ له على الدخول فيما دعوه إليه ، فلما رأى ختلافهم أرجأ الأمر إلى أن ينظر

وخرج إلى بلاد الروم غازيًا ، فاستشهد - رحمه الله - هناك ، وقيل إنه طعن طعنة فى حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جيء به حيًّا حتى أُدخل قصره فمات فيه ، فالله أعلم .

وكان له من الولد : علّ - وهو أكبر ولده والقائم بأمره من بعده - [وعبد الله] ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، وتاشفين ، ومحمد ، والمنصور ، وإبراهيم ، توفى إبراهيم هذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل .

على بن إسحاق

ولما توفى أبو إبراهيم إسحاق بن محمد المذكور ، قام بالأمر من بعده ابنه على بعهد أبيه إليه ، وخرج بأسطول ميرقة إلى العدوة ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها - على ما يقال - يدعونه إلى أن يملكوه ، ولولا ذلك لم يجسر على الخروج ، ومما جرأه أيضا كون الموحدين بالأندلس ، وسماعه خبر موت أبى يعقوب واشتغالهم ببيعة أبى يوسف ، وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ ، فكان هذا أيضـًا مما أعانه على الخروج ؛ ولولا هذه الأسباب التى ذكرنا لم يجسر على الخروج .

فقصد ساحل بجاية فنزل به ، فقاتلـه أهلها قتالاً غير كثير ، ثم دخلها ، وكان دخوله إياها ـ كما ذكرنا ـ يوم الاثنين لست خلون من شعبان من السنة المذكورة .

استطراد عن انتقاض العرب بإفريقية على الموحدين

وكان فيها إذ دخلها ، أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، لم يكن واليا عليها ، وإنما كان الوالى عليها أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان أبو موسى مارًّا بها حين رجع من أفريقيـة ، وكان واليـًا عليهـا هو وأخوه الحسن من قِبَل أخيهما أبى يعقـوب ، فظهر من العـرب إفساد ببعض نـواحى إفريقيـة ، فخرج أبـو موسى هـذا وأخوه أبـو على بجيش من المصامدة ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند ، فالتقوا هم وأولئك العرب المفسدون ، فانهزم جند إفـريقية عنهما وأخذتهما العرب أسيرين ، فأقـاما عندهم ، وانتهـــى الخبـــر إلى أبى يعقوب ، فـأرسل إلى أولئك العرب ، فطلبوا مـالا اشتطوا فيـه غايـة الاشتطاط ، ثم إن الأمر تقرر بينهم وبين الموحـدين على ستة وثلاثين ألف مثقال ، فلما أُخبر بـذلك أبو يعقوب استكثر المال وقـال : هذه أيضًا مضرة أخرى ، إن أعطينـاهـم مثل هذا المال تقووا بـه على ما يريدونه من الفساد ! ثم اتفق رأيهم على أن يضربوا لهم دنانير من الصفر مموهة ، ففعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم ، فأطلقوا أبا علىٍّ وأبا موسى ومن كان معهما من خدمهما وحاشيتهما ، فهذا ما أوجب كون أبى موسى ببجاية ، فخرج من أسر العرب إلى أسر الميرقيين ! .

رجع الحديث عن بنى غانية فى بجاية

فدخل على بن إسحـاق ـ كما ذكرنـا ـ بجايـة فى اليوم المؤرخ ، وأقام بها سبعـة أيام صلى فيها الجمعة فخطب ودعا لبنى العباس ، ثم لـلإمام أبي العباس أحمد الناصر منهم ، وكان خطيبه الفقيه الإمام المحدث المتقن أبو محمد عبـد الحق بن عبـد الرحمـن الأزدى الأشـبيلى ـ مؤلف كتـاب الأحكام وغيره من التآليف ـ فأحنـق ذلـك عليـه أبا يوسـف يعقـوب

أمير المؤمنين ، ورام سفك دمه ، فعصمه الله منه وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه !

وخرج على بن إسحاق من بجاية بعد أن أسس أموره فيها ، وسار حتى نزل على قلعة بنى حماد ، فملكها وملك جميع تلك النواحى ، فانتهى ذلك إلى أمير المؤمنين يعقوب ، فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بجاية ، فلما سمع على بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد .

استرجاع بجاية من يد الميورقيين

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بجاية ، فتلقاه أهلها ، فلقيهم منشرح الصدر ظاهر البشر ، وقال لهم من القول مابسط به نفوسهم ورد إليهم نافر أنسهم ، وقد كانوا يظنون غير ذلك ، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا .

واستعمل على بجاية من أعيان الموحدين رجلاً اسمه محمد بن أبى سعد الجنفيسى ، ثم سار حتى نزل مدينة تونس ، فجهز جيشًا عظيماً أمَّر عليهم رجلاً من ولد عمر بن عبد المؤمن اسمه يعقوب ، وذلك لما كانوا يرونه فى ملحمة كانت عندهم من أنهم سيهزمون مع رجل اسمه يعقوب ، بموضع يعرف بوطا عمره ، فسار يعقوب هذا بالجيش المذكور ، وأقام هو فى تونس ؛ فكانت الهزيمة على يعقوب بن عمر كما ذكر ، وذلك أن الموحدين التقوا هم وأصحاب على بن غانية ، فانهزم الموحدون انهزامًا قبيحًا ، واتبعتهم العرب والبربر يقتلونهم فى كل وجه ، وهلك أكثرهم عطشا ، ورجع بقيتهم إلى تونس حيث أمير المؤمنين ، فلَمَّ شعثهم ، وجبر ما وهى من أحوالهم ، وخرج هو بنفسه حتى لقى على ابن غانية بموضع يعرف بالحامة ، حامة دقيوس ، فما وقف أصحاب على إلا يسيرا حتى انكشفوا عنه ، وأبلى هو عذرا فأُثخن جراحًا ، وخرج فارًّا بنفسه فمات فى خيمة لعجوز أعرابية .

وكان حين خرج من ميرقة خرج معه من إخوته : عبد الله ، ويحيى ، وأبو بكر ، وسير ، فبقى هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم ، ثم رأوا أن يقدموا

عليهم يحيى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه ، فقدموه ، ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى رجع أن أمير المؤمنين من هذا الوجه .

استرجاع قفصة

وفى هذه السفرة انتقضت عليهم أيضًا مدينة قفصة ، ونزع أهلها أيديهم من طاعتهم ودعوا للميرقيين ، فنزل عليها أمير المؤمنين أبو يوسف فحاصرها أشد الحصار ، ثم دخلها عنوة فقتل أهلها قتلاً ذريعًا ، بلغنى أنه قتل أكثرهم ذبحًا ، وأمر بأسوارها فهدت .

إبراهيم الزويلى الكاتب

وفى ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتّاب ، اسمه إبراهيم ، يُعرف عندنا بالزويلى ، فى قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا يوسف ويذكر شأن قفصة ورميهم إياها بحجارة المنجنقين :

سائل بقفصة هل كان الشقى لها ... بعلاً وكانت له حمالة الحطبِ

تبت يدا كافرٍ بالله ألهبها ... فكان كالكافر الأشقى أبى لهب

وفيها يقول :

لما زنت وهى تحت الأمر مُحصنة ... حصبتموها اتباع الشرع بالحصبِ

أنشدنى ـ رحمه الله ـ هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها ، فلما انتهى إلى هذا البيت « لما زنت . . » غلبنى الضحك لِما سبق إلى خاطرى من سوء معناه ، فسترت وجهى ، فقال لى : مالك ؟ فلم أملك أن قهقهت ! فتغير لى ، فلما خفت غضبه أخبرته بما سبق إلى

خاطرى ، فسبنى وقال لى : أنت والله شيطان سيئُ القريحة ، غالبٌ على طباعك اللهو ! . .

واستمر فى إنشاده حتى أتم القصيدة .

وأبو إسحاق الزويلى هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء ، جمعتنى وإياه مجالس عند السيد الأجل أبى زكريا يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ، شاهدت فيها من ظرفه وغزارة بديهته ما قضيت منه العجب .

رجع الحديث عن بنى غانية

ولما فرغ أبو يوسف من أمر إفريقية ، كر راجعًا إلى المغرب .

ولم يزل يحيى بن غانية قائماً بما كان يقوم به أخوه من تدبير الأمور ، ورجع منهم عبد الله خاصة إلى جزيرة ميرقة ، فألفاها قد انتقضت عليهم ودُعى فيها للموحدين ، فعل ذلك أخوهم أبو عبد الله محمد بن إسحاق ، فلما قدم عبد الله قام معه عِلْجٌ من علوج أبيه يسمى نجاحا ، كان نجاحٌ هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة ، وكان متحصناً فى قلعة ومعه جماعة على رأيه من الموالى والجند ، فلما قدم عبد الله ـ كما ذكرنا ـ تلقوه ، وانضاف إليهم خلق من بَوادى الجزيرة من الفلاحين ورعاة الغنم ، فنهد بهم عبد الله إلى المدينة ، فلم يدفعه عنها أحد ولا أمتنع عليه من أهلها ممتنع ، ففتحوا له الأبواب ، ودخلها بمن معه ، وأخرج أخاه محمداً ونفاه إلى الأندلس ، فحظى محمد هذا عند المصامدة حظوة عظيمة ، وولوه مدينة دانة ، فلم يزل واليًا عليها حتى مات .

واستقر عبد الله بميرقة ، فضبط أمرها وجرى فى الغزو وإخافة العدو على سنن أبيه ، فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه الموحدون فى سنة ٥٩٩ على ماسيأتى بيانه إن شاء الله .

ولم يزل أمر يحيى بأفـريقية ينبه تارة ويخمل أخرى ، وله أخبـارٌ يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها .

اختلاف بني عبد المؤمن

وحين كان أمير المؤمنين أبو يوسف غائباً فى هذا الوجه الذى ذكرنا ، طمع فى الأمر أخوه أبـو حفص عمر المتلقب بـالـرشيد ، وعمـه سليمان بن عبـد المؤمن ، وكان أحـدهما بشرقى الأندلس بمدينة مرسية ، والآخر بتادلا من بلاد صنهاجة .

فأما أبـو الربيع سليمان فسـولت له نفسـه وزين له سـوء رأيه أن يجمع على نفسـه قبائل صنهاجة ليقوموا بدعوته ، وصرح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ماأراد ، فلم يتفق له من ذلك أكثر من أن تشعثت عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأشنوعة القبيحة ، وبلغ الخبر أمير المؤمنين .

وأما عمر فكان قـد بدأ من ذلك بتنقص أمير المؤمنين أبى يوسف على رءوس الأشـهاد ، تعريضـاً مرة وتصريحًا تارة ، وإلقاء ذلك إلى خـواصه ليلقوه إلى وجـوه الأندلس ، وانتهى أن قتل قاضى مرسية وخطيبها المعروف بابن أبى جمرة ، وقيل : إنه وكزة برأس السيف فى صدره وكزة مات منها بعد أيام .

فاستحثت هـذه الأخبار أمير المؤمنين وأزعجته ، فعجل من بجايـة إلى فاس سبع عشرة مرحلـة ، وهذا نهايـة ما يكون من سرعـة السير لمثله ، فلما سمع بقـدومه أبـو الربيع سليمان وعمر المذكوران ، خرجا يلتقيانه ، فعبر عمر البحر ، وجاء سليمان بمن معه من تادلا للقائه أيضًا ، فأما عمر فلقيه بالقرب من مـدينة مكناسة ، فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه ، فلما قرب منه لم تدُرْ بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده ، وحُمل بعد التقييد إلى مدينـة سلا ، ولقيـه سليمان عمه ، ففعل بـه مثل ذلك ، وسار حتى نـزل مدينـة سلا ، وفصل عنها بعد أن وكل بهما من يقوم عليهما ، وأثقلهما بالحديد ، وسار حتى بلغ مراكش ،

فكتب إلى القائم عليهما بقتلهما وتكفينهما والصلاة عليهما ودفنهما ، فقتلهما صبراً ، ودفنهما ، وكتب يعلمه بذلك ، فبلغنى أنه قال له : بنيت قبريهما بالكدان والرخام ، وجعل يذكر حسنهما ، فكتب إليه : مالنا ولدفن الجبابرة ، إنما هما رجلان من المسلمين ، فادفنهما كيف يدفن عامة المسلمين .

وبعد قتله هذين الرجلين هابه بقية القرابة وأُشربت قلوبهم خوفه ، بعد أن كانوا متهاونين بأمره محتقرين له ، لأشياء كانت تظهر منه فى صباه توجب ذلك ، وكان قتله هذين الرجلين فى سنة ٥٨٣ ، وأظهر بعد ذلك زُهداً وتقشفاً وخشونة ملبس ومأكل .

وانتشر فى أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيتٌ ، وقامت لهم سوق ، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ، ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ، ويصل من يقبل صِلته منهم بالصلات الجزيلة .

دعوة أبى يوسف إلى الأخذ بالكتاب والسنة

وفى أيامه انقطع علم الفروع ، وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله ﷺ والقرآن ، ففعل ذلك ، فأحرق منها جملة فى سائر البلاد ، كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبراذعى ، وواضحة ابن حبيب ، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها ، ولقد شهدت منها وأنا يومئذ بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار ، وتقدم إلى الناس فى ترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فى شىء منه ، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة ، وأمر جماعة ممن كان عنده من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة (الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسند ابن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى) فى الصلاة وما يتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها محمد بن تومرت فى الطهارة ، فأجابوه إلى ذلك ،

وجمعوا ما أمرهم بجمعه ، فكان يُمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه ، وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب ، وحفظه الناس من العوام والخاصة ، فكان يجعل لمن حفظه الجُعلَ السَّنِى من الكسا والأموال ، وكان قصده فى الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث ، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده ، إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا ، يشهد لذلك عندى ما أخبرنى غير واحد ممن لقى الحافظ أبا بكر بن الجد ، أنه أخبرهم قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى : يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أُحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فافتتحت أبين له ما أَشكل عليه من ذلك ، فقال لى وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أوهذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبى داود ، وكان عن يمينه ، أو السيف ! فظهر فى أيام يعقوب هذا ما خفى فى أيام أبيه وجده ، ونال عنده طلبة العلم ـ أعنى علم الحديث ـ ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجده ، وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم ـ وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم ـ يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء ـ يعنى الطلبة ـ لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمرٌ فأنا ملجؤهم وإلىَّ فزعهم وإلىَّ ينتسبون ! فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم ، وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم .

استرجاع مدينة شلب

ولما كان فى سنة ٥٨٥ ، قصد بطرو بن الريق ـ لعنه الله ـ مدينة شلب ، من جزيرة الأندلس ، فنزل عليها بعساكره ، وأعانه من البحر الإفرنج بالبُطس والشوانى ، وكان قد وجه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه ، على أن يجعل لهم سبى البلد ، وله هو المدينة

خاصة ، ففعلوا ذلك ، ونزلوا عليها من البر والبحر ، فملكوها وسبوا أهلها ، وملك ابن الريق - لعنه الله - البلد .

وتجهز أمير المؤمنين فى جيوش عظيمة ، وسار حتى عبر البحر ، ولم يكن له همٌّ إلا مدينة شلب المذكورة ، فنزل عليها ، فلم تُطق الروم دفاعه ، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها ، ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصنًا من حصونهم عظيمًا يقال له طُرُّش ، ورجع إلى مراكش .

طامعٌ آخر من بنى عبد المؤمن !

وبعد رجوعه مرض مرضًا شديداً خيف عليه منه ، وكان قد ولى أخاه أبا يحيى ، الأندلس ، فجعل يتلكأ فى خروجه ويبطىء تربصاً به وطمعًا فى وفاته ، وكلما أفاق هو سأل : هل عبر أبو يحيى أم لا ؟ فلما بلغ أبو يحيى استحثاثه إياه ، أسرع إلى العبور وهو لا يشك أن أول ما يرد عليه خبر وفاته ، فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه ، وقال : ماتركت أمير المؤمنين إلا هامة اليوم أو غد ، وليس لها غيرى ! فجعل أشياخ الجزيرة يُحيل بعضهم على بعض ، وأهل بلدٍ على أهل بلد ، حتى بلغ مرسية ، وكتبوا بذلك مساطير خوفاً على أنفسهم .

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالسفر ، فخرج قاصداً مدينة فاس ، يُحمل فى محفةٍ على بغلين ، وبلغه أمر أبى يحيى المذكور ، وجاءته كتب أهل الأندلس والمساطير التى كتبوها .

ولما سمع أبو يحيى بحركته ، جاء معتذراً إليه حتى عبر البحر ، فلقيه بمدينة سَلاَ ، فلما وقعت عينه عليه قال لمن عنده : هذا الشقى قد جاء ! وأمر به فقُيد ، ووجّه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدوا شهادتهم ، وأمر به فأحضر وقال : إنما أقتلك بقوله ﷺ : « إذا بويع خليفتان بأرضٍ فاقتلوا الآخر منهما » ! وأمر به فضربت عنقه ، وتولى قتله أخوه لأبيه عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحضر من الناس ، وأمر به فكفن ودفن ، وأقبل على

القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذاً شديداً ، وأمر بإخراجهم على أسوأ حال ، حفاة عراة الرءوس ، فخرجوا وكل واحدٍ منهم لا يشك أنه مقتول !

ولم يزل أمر القرابة من يومئذ فى خمول وهلم ، وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذ العلامة ، فكان جملة من قتل يعقوب : أخويه وعمه !

وقعة الأرك

ولما كان فى سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الأدفنش ـ لعنه الله ـ من العهد ، فخرجت خيل الأدفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها ، إلى أن كثر عيثها بالأندلس .

وتجهز أمير المؤمنين وأخذ فى العبور ، فعبر البحر فى جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموع عظيمة ، ونزل مدينة أشبيلية ، فلم يقم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجند وقسم الأموال ، وخرج يقصد بلاد الروم .

وسمع الأدفنش ـ لعنه الله ـ بقصده ، فتجهز هو أيضًا فى جموع ضخمة ، والتقوا بموضع يعرف بفُحْص الحديد ، وكان الأدفنش قد جمع جموعًا لم يجتمع له مثلها قط ، فلما تراءى الجمعان اشتد خوف الموحدين وساءت ظنونهم ، لما رأوا من كثرة عدوهم ، وأمير المؤمنين فى ذلك كله لامستند له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظن عنده خيراً من الصالحين .

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان من هذه السنة المذكورة ، التقى المسلمون وعدوهم ، فأنزل الله على الموحدين نصره ، وأفرغ عليهم صبره ، ومنحهم أكتاف الروم ، وكانت الدائرة على الأدفنش ـ لعنه الله ـ وأصحابه ، ولم ينج إلا هو فى نحوٍ من ثلاثين من وجوه قواده ، واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين ، وغيرهم ، منهم الوزير أبو يحيى أبو بكر بن عبد الله ابن الشيخ أبى حفص المتقدم الذكر فى وزراء أبى يوسف .

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح ، وقد انجلى عنها أهلها ، فدخلها ، وأمر بكنيستها فغيّرت مسجداً ، فصلى فيها المسلمون ، واستولى على ما حول طليطلة من الحصون ، ثم رجع إلى مدينة أشبيلية منصورًا مفتوحًا عليها .

وكانت هذه الهزيمة أُختاً لهزيمة الزلاقة ، المتقدم ذكرها فى مدة يوسف بن تاشفين أمير المرابطين .

وأقام أمير المؤمنين بأشبيلية بقية سنة ٥٩١ ، وقصد بلاد الروم فى السنة الثانية ، فنزل على مدينة طليطلة بعساكره ، فقطع أشجارها ، وانتسف معايشها ،وغور مياهها ، وأنكى فى الروم أشد نكاية .

ثم عاد فى السنة الثالثة أيضًا ، وتوغل بلاد الروم ، ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملك من ملوك المسلمين قط ، ورجع إلى مدينة أشبيلية ، فأرسل الأدفنش إليه ـ لعنه الله ـ يسأله المهادنة ، فهادنه إلى عشر سنين ؛ فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها ، وقصد مدينة مراكش ، وذلك فى سنة ٥٩٤ .

عزم أبى يوسف على قصد مصر ، ووفاته

فبلغنى من غير واحد أنه صرّح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول : نحن إن شاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات ـ رحمه الله ـ فى صدر سنة ٥٩٥ ـ كما ذُكر ـ ودفن بتينمل مع آبائه .

شىء من سيرته

وكان فى جميع أيامه وسيره مؤثرًا للعدل ، متحريًا له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التى هو فيها ، كان فى أول أمره أراد الجرى على سنن الخلفاء الأوَل . . .

فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه فى الصلوات الخمس ، لم يزل على ذلك مستمرًّا أشهرًا ، إلى أن أبطأ يومًا عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت ، وقعد الناس ينتظرونه ، فخرج عليهم فصلى ثم أوسعهم لومًا وتأنيباً ، وقال : ما أرى صلاتكم إلا لنا ، وإلا فما منعكم عن أن تقدموا رجلاً منكم فيصلى بكم ؟ أليس قد قدم أصحاب رسول الله ﷺعبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب ؟ أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتبعون والهداة المهتدون ؟ فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة .

وكان يقعد للناس عامة ، لايحجب عنه أحد من صغير ولا كبير ، حتى اختصم إليه رجلان فى نصف درهم ، فقضى بينهما ، وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ، وقال لهما : أما كان فى البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود فى أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره .

ولما ولى أبا القاسم بن بَقِيّ المتقدم الذكر ، كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه فى جميع القضايا ، فكان يقعد فى موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح .

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر فى كل شهر مرتين ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم .

وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم ، فإذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة ، فلا يقولن امرؤٌ منكم إلا حقا ، وربما تلا فى بعض المجالس ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾ [النساء : ١٣٥] .

ولما خرج إلى الغزوه الثانية سنة ٩٢ ـ وهى الغزوه التى كانت بعد الوقعة الكبرى التى أذل الله فيها الأدفنش وجموعه وأعز الإسلام وأنصاره ـ كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحملهم إليه ، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم

كلما سار بين يديه ، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده : هؤلاء الجند لا هؤلاء ! ويشير إلى العسكر ، فكان فى ذلك شبيهًا بما حُكى عن قتيبة بن مسلم والى خُراسان حين لقى الترك وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يُكثر السؤال عنه ، فأُخبر أنه فى ناحية من الجيش متكئاً على سية قوسه رافعاً أصبعه إلى السماء ينضنض بها ، فقال قتيبة : لأصبعه تلك أحب إلىَّ من عشرة آلاف سيف !

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وجهه هذا ، أمر لهؤلاء القوم بأموال عظيمة ، فقبل منهم من رأى القبول ورد من رأى الرد ، فتساوى عنده ـ رضى الله عنه ـ الفريقان وقال : لكل مذهب ، ولم يزد هؤلاء ردهم ولا نقص أولئك قبولهم .

وكان كثير الصدقة ، بلغنى أنه تصدق قبل خروجه إلى هذه الغزوه ـ أعنى التى كانت فيها الوقعة الكبرى ـ بأربعين ألف دينار ، خرج منها للعامة نحو من نصفها ، والباقى فى القرابة ، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعًا ، وجعلوا فى كل ربع أمناء معهم أموال يتحرَّون بها المساتير وأرباب البيوتات ، وكان كلما دخلت السنة يأمر أن يُكتب له الأيتام المنقطعون ، فيجمعون إلى موضع قريب من قصره ، فيُخْتَنُون ويأمر لكل صبى منهم بمثقال وثوب ورغيف ورمانة ، وربما زاد على المثقال درهمين جديدين ، هذا كله شاهدته لا أنقله عن أحد من الناس .

وبنى بمدينة مراكش بيمارستاناً ما أظن أن فى الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير ساحةً فسيحة بأعدل موضع فى البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه ، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح ، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات ، وأجرى فيها مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادةً على أربع بِرَك فى وسطه ، إحداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصوف والكتان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت ، وأجرى له ثلاثين دينارًا فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجًا عما جلب إليه من

الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنـوم ، من جهاز الصيف والشتـاء ، فإذا نَقَه المريض فإن كـان فقيراً أمر لـه عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل ، وإن كان غنيا دُفع إليه ماله وتُرِكَ وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الأغنياء ، بل كل من مَرِضَ بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت ، وكـان فى كل جمعة بعد صلاتـه يركب ويدخلـه ، يعود المرضى ويسأل عن أهل بيتٍ أهلِ بيت ، يقول : كيف حالكم ؟ وكيف القـومة عليكم ؟ إلى غير ذلك من السؤال ، ثم يخرج ، لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات رحمه الله .

مماليك الغُزّ ، المصريون فى المغرب

وفى أول ولايته ـ إما سنة ٨٣ أو ٨٢ ـ ورد علينا البلاد الغُزُّ من مصر كان فيمن ورد علينا مملـوك يسمى قراقُش ، ذكـروا أنه كـان مملوكـاً لتقىِّ الدين ابن أخى الملك النـاصر ، ورجل يسمى شعبان ، ذكـروا أنه من أمراء الغـز ، ومن أجناد المصريين رجـــل يعرف بالقـــاضى عماد الدين ، فى آخرين ، فأحسن نـزلهم ، وبالغ فى إكرامهم ، وجعل لهم مزيـة ظاهرة على الموحدين ، وذلك أن الموحـدين يأخذون الجامكيـة ثلاث مرات فى كل سنـة ، فى كل أربعة أشهر مـرة ، وجامكيـة الغز مستمـرة فى كل شهر لا تختـل ، وقال : الفـرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لاشىء لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية ، والموحدون لهم الأقطاع والأمـــوال المتأصلـة ، هذا مع أنه أقطـــع أعيانهـــم أقطاعـا كأقطـــاع الموحدين أو أوسع : أقطعَ رجلا منهـم فيما أعرف ، من أهل إربل ، يُعرف بـأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من قـرابته مثلهـا ، وأقطع شعبان المذكور بـالأندلس قـرى كثيرة تغل فى كل سنة نحواً من تسعة آلاف دينار ، هذا خـارجًا عن جامكيتهم الكثيرة التى ليس لأحد من الأجناد غيرهم مثلها .

ولم يرد المغـرب من هذه الطـائفة ـ أعنى الغُز ـ ألطف حسا ولا أزكى نفسًـا ولا أحسن محاضرةً ولا أطيب عشرة من شعبان هذا المذكور ، ما لقيته إلا استنشدنى أو أنشدنى .

أنشدته يومًا لشاعر من أصحابنا من أهل أشبيلية :

وقائل : فيما لم تهجع ؟ فقلت له :　　كيف الهجوع لطرفٍ نافر الوسن

لم تدر أن الكرى الممنوع عن بصرى　　هى السنات التى فى مقلتى حسن !

فضحك وقال : لقد حوم هذا الشاعر وما ورد ، ورفرف فما طار ، وأراد غاية فوقع دونها ، ولله من أثار هذا المعنى بأوجز لفظ وأسهل مأخذ وأيسر كلفة حيث يقول :

أعيدوا صباحى فهو عند الكواعب　　وردوا رقادى فهو لحظ الحبائب

قلت : هو أبو الطيب ، قال لى : نعم ، هو الطيب أبو الطيب .

وأنشدته يومًا ـ وقد جرى ذكر التجنيس اللفظى ، فأنشد هو منه وأكثر :

إذا صال ذو ود بود صديقه　　فيا أيها الخل المصاحب لى صل بى

فإنى مثل الماء ليناً لصاحبى　　وناهيك للأعداء من رجلٍ صلب !

فاستحسنهما وكتبهما عنده ، وقال لى رحمه الله : لك علىَّ بهذين البيتين حق ، فما وافقنى شىء من الشعر فى هذا المعنى ولا فى غيره ولا وقع منى موقعهما .

وفى الجملة كان له شغف بالآداب شديد ، وكان يقرض شيئًا من الشعر ، وربما ندَرَت له الأبيات الجيدة ، سألته أن يكتب لى شيئًا من شعره أو ينشدنيه ، فأبى علىَّ كل الإباء وحلف لا يفعل . . .

أبو يوسف وعقيدة العامة فى ابن تومرت

وخرج أمير المؤمنين أبو يوسف إلى تينمل للزيارة ومعه هؤلاء الغز المذكورون ، فقعدوا تحت شجرة خرُّوب مقابلة للمسجد ، وقد كان ابن تومرت قال لأصحابه فيما قال لهم

ووعـدهم بـه : لِيبصرنَّ منكم من طـالت حيـاتـه أمـراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجـرة قاعـدين تحتها ! فلما جلـس الغز على الصفـة المتقدمة تحتهـا كان ذلك اليـوم فى تينمل يـومًا عظيمًا ، اتصل التكبير من كل جـــهة ، وجاء النساء يولـولن ويضربن بالدفـوف ويقلن ما معناه بلسان : صدق مولانا المهدى ! نشهد أنه الإمام حقًّا!

فأخبرنى من رأى أمير المؤمنين أبـا يـوسف حين رأى ذلك يتبسم استخفـافاً لعقـولهن ، لأنه لا يرى شيئًا من هذا كله ، وكان لايرى رأيهم فى ابن تومرت ، فالله أعلم .

أخبرنى الشيخ الصـالح أبـو العبـاس أحمد بن إبـراهيم بن مطـرف المرى ونحن بحجـر الكعبة قال : قال لى أمير المؤمنين أبو يوسف : يـا أبا العباس اشهد لى بين يدى الله عز وجل أنى لا أقول بـالعصمة ـ يعنى عصمـة ابن تومرت قال : وقـال لى يومًا وقـد استأذنته فى فعل شىء يفتقر إلى وجود الإمام يا أبا العباس ، أين الإمام . . . ؟ أين الإمام . . . ؟

أخبرنى شيخ ممن لقيته من أهل مـدينة جيان من جـزيرة الأندلس ، يسمى أبـا بكر بن هانىء ، مشهـور البيت هناك ، لقيتـه وقد علت سِنُّـه فرويت عنـه ، قال لى : لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرك ــ وهى التى أوقع فيها الأدفنش وأصحابـه ـ خرجنا نتلقـاه ، فقدمنى أهل البلد لتكليمه ، فرُفِعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلـد وأحوال قضاته وولاته وعماله ـ على ماجـرت عادتـه ـ فلما فـرغت من جوابـه ـ سألنى كيـف حالى فى نفسى ، فتشكـرت له ودعوت بطول بقائه ، ثم قال لى : ما قرأت من العــلم ؟ قلت : قرأت تواليــف الإمــام ، ـ أعنى ابن تومـرت ـ فنظر إلىّ نظرة المغضب ، وقال : ما هكـذا يقول الطالب ! إنما حكمك أن تقول : قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئًا من السنة ، ثم بعد هذا قل ماشئت ، فى أضراب لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص .

اهتمامه بالتشييد والبناء

وكان عنـد رجوعه من السفرة التى استنقـذ فيها مدينـة شلب من أيدى الروم عـــلى ما

تقدم ، أمر أن يبنى له على النهر الأعظم ، نهر أشبيلية ، حصن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب ، جاريًا فى ذلك على عادته من حب البناء وإيثار التشييد ـ فإنه كان مهتمًا بالبناء ، وفى طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها ، زاد فى مدينة مراكش فى أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها ـ فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفوقه ، وسمَّى ذلك الحصن « حصن الفرج » .

على بن حزمون الشاعر

ولما رجع من غزوته العظمى ـ المتقدم ذكرها فى سنة ٥٩١ جلس للوفود فى قبة من تلك القباب مشرفةٍ على النهر الأعظم ، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم ، وأنشده الشعراء ، فممن أنشده فى ذلك اليوم صديق لى من أهل مرسية اسمه على بن حزمون ، أنشده قصيدة فى عروض يسمى الخبب كان يقترحه على الشعراء فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان ، أولها :

حييتك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم	إن الإسلام لفى عُرس
أمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق لملتمِس
ورفعت منار الدين على	عمدٍ شُمٍّ وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهمو فغدوا	فرصاً فى قبضةِ مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم	عدداً لم يحُصَ ولم يُقس

خرجوا بطراً ورثاء النا ... س ليختلسوا مع مختلس

ومضيت لأمر الله على ... ثقةٍ بالله ولم تخس

فأناخ الموت كلاكله ... بظُبَاك على بشرٍ رجس

وتساوى القاع بهامهم ... الربض مع الحرب الضرس

سُقِيَتْ بنجيعهمو أكَمٌ ... وطِئُوا منهن على دهس

فأولئك حزب الكفر ألا ... إن الكفار لفي نكس

أذوى الصلبان وراءكمو ... خيل الملك الخبر الندس

لو أن البحر تناوله ... جُرَعاً وطأته على يبس

كأن الصُّمَّ تُرَاجمها ... أضحت كحل المقل الذبس

ملأ التوحيد أعنتها. ... وأغار بها روح القدس

نهضت فمضت فقضت أملاً ... أنسى عتب الدنيا فُنِسي

جاست جنبات الكفر فلم ... تترك لهمو ما لم تجس

لم يبق بها مثوى رجل ... إلا وعليه شذى فرس

لحقوا بقرون الشُّمِّ فلا ... سقيا لطلولهمو الدُّرس

إن كان نجا أدفنشهمو ... فإلى عيشٍ نكدٍ تعس

نظر الملك الأعلى فرأى ... ملكاً ما بين قناً وقسي

كالصُّبح توشح رونقه ... كالطور بنور الله كُسِي

فمضى لم يلو على أحد ... ورمى بالدرع وبالترس

لصليل الهند بمفرقه ... لا يسمع صلصلة الجرس

سهـــر الموتـــــور وأرّقـــــه ‏ ‏ ‏ ‏ تـــــذكـــــار المنصـل والمرس

وبكــــاء عقـــائل هــــاتفــــة ‏ ‏ ‏ ‏ كـــــالــــورق ينُحْنَ مـع الغلس

بـــــــرزت وكأن ذوائبهـــــــا ‏ ‏ ‏ ‏ أذنـــــــــاب روامحة شُمـس

تـــرنـــو كظبــــاء الـــرمل على ‏ ‏ ‏ ‏ وجـلٍ لضراغمـــــــــة شرس

قـــد كـن مهـــا أنُسٍ فغـــدت ‏ ‏ ‏ ‏ تحت الـــرايـــات بــــلا أنس

إن الأيــــام قــــد ازدهـــرت ‏ ‏ ‏ ‏ كـــالـــروض يـــروق لمغترس

وتنــــاسقت الآمـــال لنـــــا ‏ ‏ ‏ ‏ كـــالثغـــــر تنظم فى لعـس

وتــــلألأ نـــور الحق على الْـــــ ‏ ‏ ‏ ‏ أثـــــر المهـــــديَّـــة فاقتبـس

أجــــزيـــرة أنـــدلس اعتصمى ‏ ‏ ‏ ‏ بـإمـــــام الأمـــــة واحترسى

أرعـــــاك حـــــراستـــه ملـك ‏ ‏ ‏ ‏ جبريـل لـــــه أحـــــد الحرس

حكمت أسيـــافك سيـــدنـــا ‏ ‏ ‏ ‏ فى كـل مصر الكفـــــــــر مسى

ومضت فى الــــروم مضــــاربها ‏ ‏ ‏ ‏ وكــــذلـك تفعـل فى الفـــــرس

لا يُخلـف ربك مـــــوعــــده ‏ ‏ ‏ ‏ دَوِّخ أقطـــــــــارهمو ودس !

أوردتها على تواليها وإن كان فيها طول ، لغرابة عـروضها وجودة أكثر أبياتها ، أنشدنيها منشئهـــا المذكـــور من لفظه ، ثم أعدتها عليـــه بلفظى أخر مرة لقيته بمدينـة مرسية فى سنة ٦١٤ .

ولعلي بن حزمـون هذا قدم فى الآداب ، واتسـاع فى أنواع الشعـر ، ركـب طـريقة أبى عبد اللـه ابن حجاج البغدادى ـ سـامحه الله وغفر لـه ـ فأربى فيها عليه ، وذلك إنـه لم يَدَعْ

موشحة تجرى على ألسنة الناس بتلك البلاد إلا عمل فى عروضها ورويِّها موشحة على الطريقة المذكورة ، وله مع هذا فى الهجاء يد لا تطاول ، غير أنه يفحش فى كثير منه ، فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأسلمه من الفحش والإقذاع ، أبيات ركب فيها طريقة الحطيئة :

ابتدأ يهجو نفسه ، ثم استطرد يهجو رجلاً من أعيان قواد الأندلس يقال له محمد ابن عيسى ، مشهور النجدة عندهم . والأبيات :

تأملت فى المرآة وجهى فخلته	كوجه عجوزٍ قد أشارت إلى اللهو
كأن على الأزرار منى عورة	تنادى الورى : غضوا ولاتنظروا نحوى
فلو كنت مما تنبت الأرض لم أكن	من الرائق الباهى ولا الطيب الحلو
وأقبح من مرآى بطنى فإنه	يقرقر مثل الرعد قرقر فى الجو
وإلا كقلبٍ بين جنبى محمدٍ	سليل ابن عيسى حين فر ولم يلو
يود بأن لو كان فى بطن أمه	جنيناً ولم يسمع حديثاً عن الغزو
ثقيل ولكن عقله مثلُ ريشةٍ	تطير بها الأرواح فى مَهْمَةٍ دوى
تميل بشدقيه إلى الأرض لحية	تظن بها ماءً يفرغ من دلو
وقد حدثوا عنه بكل نقيصةٍ	ولكن مثلى لا يُرَوِّى ولا يَرْوِى

وله فى هذا المعنى أحسن من هذا كثيراً إلا أنه أقذع فيه ، فلذلك لم أودعه هذه الأوراق ، لأنى لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عنى .

ونال ابن حزمون هذا عند قضاة المغرب وعماله وولاته جاهًا وثروة ، كل ذلك خوفًا من لسانه وحذرًا من هجائه ، ولا أعلم فى جميع بلاد المغرب بلداً إلا وأهاجى هذا الرجل تحفظ

فيه وتدرس ، أسأل الله له المسامحة ولجميع إخواننا من المسلمين .

محمد بن عبد ربه الكاتب حفيد صاحب العقد

وأمر أمير المؤمنين بعرض الجند فى هذا اليوم فى السلاح التام ، فلما انتشروا بين يديه وأعجبه ما رأى من حسن هيآتهم ، قام فصلى ركعتين شكراً لله عز وجل ، واتفق أثر فراغه من ذلك الركوع أن جاءت سحابةٌ فأمطرت مطرًا جودًا حتى ابتل الناس ، فقال فى ذلك صديق لى من الكتاب اسمه محمد بن عبد ربه أصله من الجزيرة الخضراء ، كان يكتب لأبى الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن ، وكان مختصًّا به :

بادى الكرامة بل بادى الكرامات ... قد شفَّع الله آياتٍ بآيات

ياليت شعرى ماشىء دعوت به ... قبل السلام ومن بعد التحيات

شىء تأثر عنه الجو فاتصلت ... من السحائب رايات برايات

من كل وطفاء لفاء الرباب همت ... ماءً نقيًّا على زعفٍ نقيَّاتِ

قل كيف لا يفتح الله البلاد وقد ... تفتحت لك أبواب السماوات

فاشتهر من يومئذ أبو عبد الله هذا وعرف مكانه ونبه قدره ، وله ! إحسان كثير وقدم راسخة فى صناعتى النظم والنثر ، مع تحقق بشىء من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق ، أنشدنى ـ رحمه الله ـ من شعره :

قف بالقباب وأين ذاك الموقف ... واسألهم بمامهم أن يعطفوا

وانشد فؤادك إن عرفت مكانه ... بين القباب وما إخا لك تعرفُ

عند التى رمت الجمار غدية ... وبنانها بدم القلوب مُطرفُ

نفسى الفداء لها وإن لم تُبق لى ... نفساً تُذكرنى بها وتُعرفُ

وهى قصيدة طويلة لم يبق تقادم العهد [منها] على خاطرى سوى ما أوردته .

وأنشدته - رحمه الله - يومًا ونحن فى قبة على شاطىء نهر وقد أخذ المطر فى الانسكاب ، بيتين أحفظهما لشاعر قديم :

حاكت يمين الرياحُ محكمةً   فى نهرٍ واضح الأسارير

فكلما ضعفت به حلقاً   قام لها القطرُ بالمسامير

فاستحسنها وقال لى : ذكرتنى هذا المعنى ، وأنشدنى فيه لنفسه أبياتًا ما سمعت بمثلها ، هذا على إكثار الناس فى هذا المعنى وتواردهم عليه حتى صار أخلق من الليل والنهار من كثرة تكراره على الأسماع ، فلا يتخلص منه إلا من لَطُفَ حسه وجاد طبعه وحَسُنَ ميزه ، والأبيات :

بين الرياض وبين الجو معترك   بيض من البرق أو سُمرٌ من السمرِ

إن أوترت قوسها كف السماء رمت   نبلاً من الماء فى زغفٍ من الغدر

لأجل ذاك إذا هبت طلائعها   تدرَّع النهر واهتزت قنا الشجرِ

فانظر- حفظك الله - إلى حسن توطأته لهذا المعنى وقوةِ تخلصه إلى هذا التشبيه بأحسن لفظ وأسهله على السمع والنطق .

واستأذنت عليه يومًا وهو فى مجلس له ، فلم يرـ رحمه ا ـ أن يحجبنى ، فاسترفع ما كان لديه وأذن لى ، فدخلت ، فتلقانى أحسن لقاء ، وأخذ يحدثنى ، وفهمت أنه مستحيٍ خَجلٌ إذ عرف أنى تفطنت لبعض الأمر ، فأنشدته رافعًا عنه كلفة الخجل لبعض الشعراء :

أدرهــا فما التحـريـم فيهـا لــذاتها ... ولكن لأسبـاب تضمنهــا السكــر
إذ لم يكن سُكــرٌ يــزلُّ بـــه الفتى ... فسيـان مـاءٌ فى الـزجـاجـة أو خمر !

فطـرب ـ نضر الله وجهـه ـ وعاوده أنسـه وانبسط ، ثم سكت عنى سـاعة واستـدعى الدواة وكتب بديهًا فى قريب من المعنى الذى أنشدته فيه :

مـاضرَّت الخمـر لـولا الشرع يشربُها ... قـومٌ حــديثهمـو همسُ التسـابيحِ
ليسـوا بِـرغُشٍ إذا أدوا فـوضهمـو ... عنـــد القيـــام ولا ميـل مــراجيحِ
بيت كبيتٍ وفيـــه شــادنٌ سَــدِنٌ ... مـزج الكئـوسِ بـــه وقـدُ المصـابيح

وأنشدنى بعد هذا لنفسه ، فى هذا المجلس ، من قديم شعره ، مقطوعَة سينية لم أسمع بأحسن منها ، لم يبق على خاطرى منها سوى آخر بيت فيها ، وهو :

ولكن قـــومــاً لا يغيـب نهارُهم ... إذا غـربت شمسٌ يُـديـرونها شمْسـا

وله ـ رحمه الله ـ رحلة إلى مصر لقى فيها ابن سناء الملك[1] وأخذ عنه من شعره ، وهو أول من سمعت يذكره عندنا ويروى شعره .

ولأبى عبد الله هذا اتساع فى صناعـة الشعر ، إلا أنه نحل كثيرًا من شعره السيـد الأجل أبا الربيع سليمان بـن عبد الله بن عبد المؤمن أيـام كتابته له ، ولم يدع بعـد ذلك فى شىءٍ مما نحله إياه من شعره ، ولا ذكـر أنه له ، فكان أكثر شعره يُنشد لأبى الربيع وتـرويه الرواة له ،

---

(١) وهو أبو بكر السعيد هبة الله بن جعفـر وهو من شعراء مصر فى المائة السادسة ، مات بمصر ٦٥٨ هـ وقيل ٦٥٩ هـ .

عرفت ذلك بعد مفارقته إياه ، لأنى فقدت شعر السيد أبى الربيع واختلف علىَّ كلامه ، ورأيت بخطه أشعاراً نازلة عن رتبةِ الشعر جدا ، فعلمت أن ذلك الأول ليس من نسجه !

وأخبرنى ابن عبد ربه هذا قال : دخلت على السيد أبى الربيع وهو فى قبة له وقد دخلت عليه الشمس من كوى صغارٍ فى أعلاها ، فلما رأيت ذلك المنظر أعجبنى وقلت بديهاً :

لما رأتــــه الشمس يفعـل فعلهـــا ... فى العـــالمين مُقـــاسما ومســـاهما

خـــافت تـوالى الجودِ يُنفـد مـالــه ... نثــرت عليــه دنـــانــراً ودراهما !

فحذف الياء من « دنانير » ، وهذا جائز ، كما قال الأول :

تضـل بـه أمـناً وفيـه العصـافر

أبو جعفر الحميرى المؤدب

ومما يتعلق بأخبار أبى يوسف ـ رحمه الله ـ ما أخبرنى شيخى وأستاذى أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميرى ـ رحمه الله ـ أيام قراءتى عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ ، وذلك أنا بلغنا عليه فى الحماسة إلى مقطوعة ابن زيابة التيمى(١) التى أولها :

يالهف زيابة للحارث الصابح فالغانم فالآيب

فلما انتهينا منها إلى قوله :

والله لـــو لاقيتـــه خـــاليـــاً ... لآب سيفـــانـــا مـع الغـــالبِ !

---

(١) هو مسلمة بن ذهل التيمى ، وزيابة : أمه ، وبها يعرف ، والحارث المذكور فى البيت هو الحارث بن همام الشيبانى ، وأنشد ابن زيابة هذه المقطوعة يناقض بها الحارث المذكور فى شعر قاله ، انظر ديوان الحماسة لأبى تمام .

قال لنا : أحدثكم بأعجب ما اتفق لى فى هذا البيت ، وذلك أن أمير المؤمنين أبا يوسف رحمه الله ـ لما فصل عن قرطبة متوجهًا إلى لقاء الأدفنش ـ لعنه الله ـ قال لى ولدى عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين : ياأبت ، رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلاً قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين ! فقلت : يابنى ، لئن صدقت رؤياك هذه ليَهْزِمنَّ الأدفنش لعنه الله ! وخطر لى هذا البيت :

والله لو لاقيتُه خالياً لآب سيفانا مع الغالبِ !

فصدقت الرؤيا والتعبير .

وأبو جعفر هذا المذكور ، آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس ، لزمته نحوًا من سنتين ، فما رأيت أروى لشعرٍ قديم ولا حديث ، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدبٍ أو مثلٍ سائر أو بيت نادر أو سجعةٍ مستحسنة منه ، رضى الله عنه ، وجازاه عنا خيراً . أدرك جلةً من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب ، وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم ، قال لى ولده عصام ـ وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبى الطيب قُرئت علىّ أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة ، فقلت له :

لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت فى نقلها . فقال لى : ما يمكن أن يكون فى الدنيا أصلٌ أصح من الأصل الذى كتبت منه ! فقلت له : أين وجدته ؟ قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا ! وكنا فى المسجد فى زاوية ، فقلت له : أين ؟ فقال لى : عن يمينك ! فعلمت أنه يريد الشيخ ، فقلت : ما على يمينى إلا الأستاذ ! فقال لى : هو الأصل ، وبإملائه كتبت ، كان يُملى علىّ من حفظه ! فجعلت أتعجب ، فسمع الأستاذ حديثنا ، فالتفت إلينا وقال : فيم أنتما ؟ فأخبره ولده الخبر ، فلما رأى تعجبى قال : بعيداً أن تفلحوا ! يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبى ! والله لقد أدركت أقوامًا لايعدُّون مَنْ حفظ كتاب سيبويه حافظًا ولا يرونه مجتهداً !

توفى أبو جعفر هذا فى شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كمُلت له ست وتسعون سنة ، لم يبق فى الأندلس أعلى رواية منه فى كل ما يُروَى ، ولم أر قبله ولا بعده ـ مع اتساع علمه وشدة تميزه وحسن اختياره ومعرفته بعلل هذه الصناعة ـ أكثر إنصافًا منه ولا أسرع رجوعًا إلى الحق ، كنت أنشده من شعرى على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة أبياتًا لا أعدها شيئا يحملنى على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك منى ، فيلهج بها ويشتد استحسانه لها ، وربما درسها فحفظها .

أنشدته يوماً ـ وقد استدعى منى ذلك على عادته ـ بيتين ارتجلتها فى شاب كان يقرأ معنا كان شديد العفة ـ رحمه الله ـ مع حسنٍ رائع وظرف ناصع ، كان اسمه « فتحاً » وهما :

يا من له عن كناسٍ … من المتيم قلبهْ

ما أنت كاسمك فتحٌ … وإنما أنت قلبُه

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر ، لا ما تصدعنى به طول نهارك ، إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسكت ! فلما كان من الغد قال لى ـ رحمه الله : أعلمت ما صنع عصام أمس ؟ قلت : لا ، قال : كان كما قالوا فى المثل : « سكت ألفاً . . . » ، لم يزل أمس يُعمل فكرته ، فبعد الجهد الشديد أخذ معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملةً فقال :

سَبَى فؤادى خشف … فقوتى اليوم ضعفُ

سموه فتحاً مجازاً … وفى الحقيقة حتفُ !

مازاد فيه أكثر من المجاز والحقيقة ، فقلت أنا : هذا والله أحسن من شعرى ! فتغير لى وقال : يابنى ، دع عنك هذه العادة ، فإن أسوأ ما تخلّق به الإنسان : الملق وتزيين الباطل ،

سيما إذا أضاف إلى ذلك الحلف الكاذب ، والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشىء ، وإلا فقد اختل ميزُك وساء اختيارك ، وما أظن هذا هكذا .

وسمعته ـ من شدة إنصافه رحمه الله ـ يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبنا على بن خروف رحمه الله ، وذلك أن الأستاذ ـ رحمه الله وعفا عنه ـ كان يلقب بالوزغى ، وكان عنده شاب يقرأ عليه يلقب بالغرنوق ـ وهو اسم عندهم للكركى ، والفصيح فيه غرنيق ـ فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب ، وذلك خلقٌ قد أعاذه الله منه ونزهه بفضله عنه ، فقال ابن خروف فى ذلك ، سامحه الله :

أحقًا سامَّ أبرص ماسمعنا بأنك قد تعشقت ابن ماء

وكيف وأنت فى الحيطان تمشى وذاك يطيرُ فى جو السماء !

فأبعده الأستاذ ـ رحمه الله ـ وأنهى خبره إلى القاضى أبى الوليد ابن رشد ، فأوجعه ضربًا ، وامتنع الأستاذ من قراءته عليه ، فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه ، وأبعده عن مريع جنابه ، وولاَّه الأستاذ خطته ، وألقى حبله على غاربه ، فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شىء من العلم ، وإنما كان يعتمد فيما يأتى به على طبعه خاصة .

وقد امتد بنا عنان القول إلى مالا حاجة لنا بأكثره ، رغبة فى تنشيط الطالب وإيثارًا للأحماض ، ولنرجع ـ الآن ـ إلى ماقطعنا :

اليهود فى عهد أبى يوسف

وفى آخر أيام أبى يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم ، وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم ، فشاع هذا الزى فى جميع

يهود المغرب ، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدرًا من أيام ابنه أبى عبد الله ، إلى أن غيره أبو عبد الله المذكور ، بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة ، واستشفعوا بكل ما يظنون أن شفاعته تنفعهم ، فأمر أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر ، فهم على هذا الزى إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزى وتمييزه إياهم به ، شكه فى إسلامهم ، وكان يقول : لو صح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر الأمور ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، ولكنى متردد فى أمرهم .

ولم تنعقد عندنا ذمةٌ ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ، ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعةٌ ولا كنيسة ، إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون فى المساجد ويُقْرِءون أولادهم القرآن ، جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تُكن صدورهم وتحويه بيوتهم .

محنة أبى الوليد بن رشد

وفى أيامه نالت أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ـ المتقدم الذكر ـ محنة شديدة وكان لها سببان جلىٌّ وخفى ، فأما سببها الخفى وهو أكبر أسبابها ، فإن الحكم أبا الوليد ـ رحمه الله ـ أخذ فى شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق ، فهذبه وبسط أغراضه وزاد فيه مارآه لائقًا به ، فقال فى هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ : « وقد رأيتها عند ملك البربر . . . » جارياً فى ذلك على طريقة العلماء فى الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت إلى مايتعاطاه خَدمةُ الملوك ومتحيلوا الكتَّاب من الإطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ، فكان هذا مما أحنقهم عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك ، وفى الجملة فإنها كانت من أبى الوليد غفلة ، فقد قال القائل : « رحم الله من عرف زمانه فهانَه ، وميز مكانه فكانَه ! » وما أحسن ماقال الأول :

وأنـزلنى طـول النـوى دارَ غُـربـةٍ إذا شئت لاقيت الـذى لا أُشـاكلـه
فحـامقتـه حتى يُقـال سجيـةٌ ولـو كـان ذا عقلٍ لكنـت أعـاقلـه !

واستمر الأمـر على ذلك إلى أن استحكم ما فى النفوس ، ثـم إن قومًـا ممن يناوئه من أهل قرطبة ويدعى معه الكفاءة فى البيت وشرف السلف ، سعوا به عند أبى يوسف ، ووجدوا إلى ذلك طـريقاً ، بأن أخـذوا بعض تلك التلاخيـص التى كان يكتبهـا ، فوجـدوا فيها بخطـه حاكيًا عن بعض قدماء الفلاسفة بعـد كلام تقدم : « فقد ظهر أن الزُّهرة أحد الآلهة . . . » فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة ، فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمـدينة قـرطبة ، فلما حضر أبـو الوليـد ـ رحمه الله ـ قال لـه بعد أن نبـذ إليه الأوراق : أخطك هـذا ؟ فأنكـر ! فقال أمير المؤمنين : لعن الله كـاتب هذا الخط ! وأمـر الحاضرين بلعنه ، ثـم أمر بإخراجه على حال سيئة وإبعاده وإبعاد من يتكلـم فى شىء من هذه العلوم ، وكتبت عنه الكتب إلى البـلاد بالتقدم إلى الناس فى تـرك هذه العلوم جملة واحـدة ، وبإحراق كتب الفلسفـة كلها ، إلا مـا كـان من الطب والحساب ومـايتـوصل به من علم النجـوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار وأخذ سمتِ القبلـة ، فانتشرت هذه الكتب فى سائر البلاد وعمل بمقتضاها .

ثم لما رجع إلى مراكش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، وأرسل يستدعى أبا الوليد من الأندلس إلى مراكش للإحسان إليه والعفو عنه فحضر أبو الوليد ـ رحمه الله ـ إلى مراكش ، فمرض بها مـرضه الذى مات منه ، رحمه الله ، وكانت وفـاته بها فى آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين ، رحمه الله .

ثم توفى أمير المؤمنين أبو يوسف بعـد هذا التاريخ بيسير ، وكانت وفاته ـ كما ذكرنا ـ فى غرة صفر الكائن فى سنة ٥٩٥ .

ذكر ولاية أبى عبد الله محمد ابن أبى يوسف أمير المؤمنين

أبو عبد الله هذا هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه أم ولدٍ اسمها زهر ، رومية ، بويع له بعهد أبيه إليه فى سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه ، وقد كان أبوه أمر ببيعته فى سنة ٨٦ وسنه إذ ذاك عشر سنين إلا أشهرا ، وكان مولده فى آخر سنة ٥٧٦ ، ولم يزل مرشحاً للخلافة معروفًا بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر فى التاريخ المذكور ، وسنه يوم بويع له البيعة الكبرى العامة ، سبع عشرة سنة وأشهر ، وكانت وفاته لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ، فكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا أشهرا .

صفاته

أبيض ، أشقر شعر اللحية ، أشهل العينين ، أسِيل الخدين ، حسن القامة ، كثير الإطراق ، شديد الصمت بعيد الغَور ـ كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه ـ حليماً ، شجاعًا ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه جدًّا ، إلا أنه كان يُبخِّل أولاده .

أولاده

كان قليل الولد جدا ، لا أعلم له من الولد سوى يوسف ولى عهده ، ويحيى ، وإسحاق ، توفى يحيى فى حياته بإشبيلية سنة ٦٠٨ ، وبلغنى عن جماعة من الحشم أنه كان رشح يحيى لولاية العهد ، وله بنات .

وزراؤه

أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجَّان ، وزير أبيه .

ثم عزله بعد مدة يسيرة وولى بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبى يوسف . . .

صلة المؤلف بإبراهيم ابن أبى يوسف

وهو خير ولده وأجدرهم بالأمر ولو كانت الأمور جارية على إيثار الحق واطراح الهوى ، لا أعلم فيهم أنجب منه ، كان لى ـ رحمه الله ـ محبًّا وبى حفيًّا ، وصلت إلىَّ منه أموال وخِلع جمةٌ غير مرة ، لم أعرفه أيام وزرائه ، لأنى كنت إذ ذاك حديث السن جدا كما ناهزت الاحتلام ، وإنما كانت معرفتى إياه حين ولوه إشبيلية فى سنة ٦٠٥ ، من جهة رجل من أصحابنا من الكُتاب اسمه محمد بن الفضل ـ جازاه الله عنى خيراً ـ هو الذى أوصلنى إليه ، أنشدته أول يوم لقيته قصيدةً مدحته بها ، أولها :

لكمو على هذا الورى التقديم ... وعليهمو التفويض والتسليمُ

الله أعلاكم وأعلى أمره ... بكمو وأنفُ الحاسدين رغيمُ

أحييتمو المنصور فهو كأنه ... لم تفتقدهُ معالمٌ وعُلومُ

ومحابرٌ ومنابرٌ ومحارب ... وحمِىً يُحاط وأرمل ويتيمُ

إلى أن أقول فيها فى ذكر ولايته إشبيلية :

فكأنما حمصُ جمالاً سارة ... وكأن إبراهيم إبراهيمُ

وأرى طُليطلةً كهاجر إثرها ... سيزُفها الأدفنش وهو دميمُ

أقول فيها :

يذرُ الصليب صغيره وكبيره ... فيها جُذاذاً والعلوج جُثومُ

ويُحرِّق الأعداء فيما أضرمت ... ويجوب نار الحرب وهى جحيمُ

ولم يبق على خاطرى منها لتقـــادم عهدها وقلـة اعتنائى بها سوى هـذه الأبيات التى أوردتها ، فاستحسنها ـ رحمه الله ـــ وبالغ فى الثناء عليها ، تفضلا منـه وسؤدداً ، وجرياً على سنن الأجواد ، هذا مع ركاكتها وقلة انطباعها وظهور تكلفها .

ثم علت حالى عنده بعد ذلك ـ نضر الله وجهـه ـ إلى أن كان يقول لى فى أكثر الأوقات : والله إنى لأشتاقك إذا غبتَ عنى أشـد الشوق وأصدقه ! ثم لم تزل حـالى معه على هذا إلى أن فارقته ـ رحمه الله ـ وهو والٍ على إشبيلية ولايته الثانية .

وكان توديعى إياه ـــ قدس الله روحه ـ آخر يـوم من ذى الحجة سنة ٦١٣ ، ثم اتصلت بى وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧ .

لم أر فى العـلماء بعـلم الأثر المتفرغين لذلك أنقل منه للأثر ، كان يذهب مذهب أبيه فى الظاهرية .

***

ثم عزله أبوه أبو عبد الله وولى بعده أبا عبد الله محمد بن على ابن أبى عمران الضرير جد يوسف بن عبد المؤمن لأمه ، وكناه أبا يحيى ، فكان أبو عبد الله الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرة وسريرة ، وكان يحضه على فعل الخير بجهده ، ونشر العـدل حسب طاقته ، والإحسان إلى الرعية والأجنـاد ، رأى الناس فى أيام وزارته من الخصب وسعـة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذى رأوا فى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريبًا منه .

ثم عزله وولى بعده أبا سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع .

أولية الوزير أبى سعيد ابن جامع

كان إبـراهيم بن جـامع جد هـذا الوزير مـن جملة أصحاب ابـن تومرت ، صحبـه من مـراكش ، وكان أصلـه من الأندلس ، آبـاؤه من أهل مدينـة طليطلة ، ونشأ هـو ـ أعنـى

إبراهيم ـ بساحل مدينة شريش على البحر الأعظم ، بضيعة تسمى روطة ، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبة كل سنة ، ثم انتقل إبراهيم هذا إلى العدوة ، وكان يحاول صنعة النحاس ، فتعرف بابن تومرت ، فكان من أصحابه ، فهو معدود فيهم ، وولد له أولادٌ نالوا فى الدولة حظوة وجاهًا متسعًا ، فمن أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تقدم ذكره ، وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر ، اسمه عبد الله ، كان يتولى فى إمارة أبى يعقوب مدينة سبتة وجهاتها ، وزيادة على ذلك ولاية الأسطول فى جميع بلادهم ، فلم يزل كذلك إلى أن مات ـ ظن أمير المؤمنين أبا يعقوب قتله ! ـ وترك من الولد : يوسف ، والحسين ، وعثمان الوزير هذا المذكور ، ويحيى ، وبنات .

فاستمرت وزارة أبى سعيد هذا إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله ، ووزر بعده لابنه أبى يعقوب إلى حين ارتحلت من البلاد ـ وهو سنة ٦١٤ ـ ثم اتصل بى فى شهور سنة ٦١٧ أن أبا يعقوب عزله وولى من سيأتى ذكره بعد هذا ـ إن شاء الله عز وجل .

حُجَّابه

ريحان الخصى ، ويدعى ريحان بِيَنْك ، حجبه ريحان هذا إلى أن مات .

ثم حجبه بعده مبشر الخصى ، يدعى مبشر وَلِدِى ، فلم يزل مبشر هذا حاجباً له إلى أن توفى أمير المؤمنين أبو عبد الله ، رحمه الله .

كُتَّابه

أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش المتقدم الذكر فى كتاب أبيه .

وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك بن عياش المتقدم ذكر أبيه فى كتاب عبد المؤمن وأبى يعقوب .

وأبو عبد الله محمد بن يَخْلُفتن بن أحمد الفازازى ، ذكره الله فيمن عنده ، وقرّب مطالعتى تلك الغرة الميمونة ، وسماعى تلك الألفاظ الحلوة ، واستمتاعى بتلك الشمائل الشريفة ، فما أشد شوقى إلى تقبيل يديه !

هؤلاء كتبة الإنشاء .

وكتاب الجيش : أبو الحجاج يوسف المُرانى (بتخفيف الراء وضم الميم) من أهل مدينة شريش من جزيرة الأندلس .

ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

قضاته

أبو القاسم أحمد [بن محمد] بن بَقِيّ قاضى أبيه .

ثم عزله وولى أبا عبد الله محمد بن مروان الذى كان أبوه قد عزله ، فلم يزل قاضيًا إلى أن مات .

وولى بعده رجلاً من أهل مدينة فاس ، اسمه محمد بن عبد الله بن طاهر ، يدعى أنه من ولد الحسين بن على بن أبى طالب ، كان قبل اتصاله بهم ينتحل طريقة الوعظ ويتصوف ، ولم يزل هذا دأبه ولا برح معروفًا به ، وكان له ـ مع هذا ـ حظ جيد من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشىء من الخلافة ، اتصل بأمير المؤمنين أبى يوسف شهور سنة ٥٨٧ ، فحظى عنده وكانت له منزلة ، سمعت أبا عبد الله الحسينى هذا يقول وأنا عنده فى بيته :

جملةُ ما وصل إلىّ من أمير المؤمنين أبى يوسف منذ عرفته إلى أن مات ، تسعة عشر ألف دينار ، خارجا عن الخلع والمراكب والأقطاع .

لم يزل أبو عبد الله هذا قاضيًا إلى أن مات بالأندلس فى شهور سنة ٦٠٨ ، وكانت ولايته فى شهور سنة ٦٠١ .

ثم ولى بعده أبا عمران موسى بن عيسى بن عمـران ، كان أبوه من قضاة أبى يعقوب ، فاستمرت ولاية أبى عمران هذا إلى هذا الوقت ــ وهو سنة ٦٢١ ـ لم يبلغنى عزله ولا وفاته ، وأبـو عمران هـذا لى صديق ، لم أر صـديقًا لم تغيره الـولاية غيره ، ولم يـزل يعاملنى بها كـان يعاملنى بـه قبل ذلك ، لم ينقصنى شيئًا من بره ، مـا لقيته قط فى مركبـه إلا سلم علىَّ مبتدئاً وجدد لى بِرا ، جزاه الله عنى أفضل الجزاء ، وعم بذلك سائر إخوانى !

أعمال أبى عبد الله ابن أبى يوسف

ولما تمت بيعة أبى عبد الله العامـة كما ذكرنا ـ وكان الذى تولاها وقام بأمـرها من القرابة : أبو زيد عبد الـرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، وهو الذى قام ببيعـة أبيه ، ومن الموحــدين : أبو زيد عبـد الرحمن بن موسى وزير أبيـه ، وأبو محمد عبد الـواحد ابن الشيخ أبى حفص ، وهـو الذى ولاه محمـد بعد هـذا أمر إفـريقية ــ كان أول شىء شرع فيـه تجهيز الجيــوش إلى إفريقية ، وذلك أن يحيى بن إسحاق بـن غانية المتقدم الذكر ، كان استـولى على أكثر بلادها أيام اشتغـال الموحدون عنه بغـزو الروم ، فأول جيش جهـز [أبو عبد اللـه] من الموحدين ، الجيش الذى استعمل عليـه السيد أبـا الحسن على بن عمر بن عبـد المؤمن ، لم أر لهم جيشًا أضخم منه ولا أكثر منه سلاحًا ولا أحسن عدة ، وكـان فيه أعيان الموحدين وأشياخهم جملة وافـرة ، فسـار أبـو الحسن هـذا بجيشه المذكـور حتى التقـى هو والميرقيـون فيما بين بجـايـة وقسطنطينة وبالقرب من قسطنطينة ، فانهزم الموحدون أصحاب أبى الحسن المذكور ، ورجع أبو الحسن إلى بجاية على حالة سيئة .

وجهز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله ، وأمَّـر عليهم من الموحدين أبا زيد عبد الرحمن ابن موسى الوزير ، فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينة المغرب .

دخول الموحدين جزيرة ميورقة

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبـد الله على إفريقيـة وأعمالهــا ، الســيد الأجل أبـا زيد عبد الـرحمن بن عبد المؤمن ، وخـرج هو فى سنة ٥٩٧ إلى تينمل لـزيارة قبر أبيـه أبى يوسف

وزيارة ضريح آبائه وابن تومرت ، ثم رجع إلى مراكش ، وأقام إلى أول سنة ٦٠٩ ، فتجهز بجيوش ضخمة حتى أتى مدينة فاس ونزل بها ، وأشاع أنه يقصد إفريقية ـ هذا بعد أن بلغه أن الميرقى استولى على مدينة تونس وقبض على الوالى عليها عبد الرحمن ـ فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأيامًا ، وبدا له أن يبعث بعثاً إلى جزيرة ميرقة ، ليستأصل شأفة بنى غانية ويقطع دابرهم ، فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال ، واستعمل على الأسطول عمه أبا العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، وعلى الجيش أبا سعيد عثمان ابن أبى حفص من أشياخ الموحدين ، فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحاها عنوة وقتلا عبد الله بن إسحاق بن غانية الأمير عليها ، وكان الذى قتله رجل من الأكراد يقال له عمر المقدم ، وذلك أنه حين نازله القوم خرج على باب من أبواب المدينة سكران ، فكبت به فرسه ، فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات ، وقيل : إنه قتله بسيف نفسه .

وكان دخولهما ميرقة وقتلهما أميرها المذكور فى شهر ذى الحجة من سنة ٥٩٩ ، فانتهبا أمواله ، وسبيا حرمه ، ودخلا بهم مدينة مراكش على الجمال فى هيئة الأسارى ، فأما النساء فدخلن بهن ليلا فجعلن فى بعض الخانات إلى أن نفذ الأمر بالمن عليهن وإطلاقهن وتزويج من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزها بمال ، وأما الرجال فلم يزالوا فى الحبس إلى أن مَنَّ عليهم بعد أن ضمنهم أكابرهم واتُّخذوا أجناداً فهم كذلك إلى اليوم .

وبلغنى أن المتولين لفتحها انتهبوا منها أموالاً عظيمة وذخائر نفيسة .

ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد الله إلى مراكش ، وبها اتصل به خبر فتح ميرقة ، وكان رجوعه إلى مراكش فى ذى القعدة من السنة المذكورة .

عبد الرحمن الجزولى الثائر

وقد كان قبل هذا فى سنة ٩٧ ، قام بسوس رجل من جزولة اسمه عبد الرحمن ، يعرف عندهم بما معناه بلسانهم « ابن الجزارة » ، فدعا إلى نفسه ، واجتمع إليه خلق كثير ، واشتد

خوف الموحدين منه ، فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر ، وفى كل ذلك يهزمهم ، إلى أن بعثوا بعثًا من الموحدين والغُزّ وأصناف الجند ، بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التى كان فيها ، وقالوا إنما يقوى هذا الرجل بتغافلكم عنه ، ومسامحتكم إياه ، ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوماً واحدًا ! فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحمية ، والتقوا هم وأصحاب عبد الرحمن المذكور ـ وكان يدعى أبا قصبة ـ فأسلمته جموعه ، وقتل وسير برأسه إلى مراكش ، فكتب إلىّ بعض إخوانى ، وهو إذ ذاك صبى صغير كان مع أبيه بسوس ـ وكان أبوه من العمال ، من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بلنسية ـ يخبرنى بهذا الفتح قبل وصوله إلىّ من جهة كتاب الموحدين المتولين له ، رسالة أولها :

« كُتِبَ من منزل سوس وقد تبلج فجر الفتح فأسفر، وقال فريق الضلال وشيعته أين المفر ؟ وقد ألقى النصر جرانه ، وأعز الله حزبه المؤيد وأعوانه ، وشرح الحال على غاية الإيجاز ، لأجل الاستعجال فى إنهاء هذه البشائر والانحفاز ، أن الناكثين النابذين للعروة الوثقى ، المتمسكين بالسبب الأشقى ، حاصرهم الموحدون ـ أنجدهم الله ـ أشد الحصار ، وقطعوا عنهم مواد المعايش وزرافات الأنصار ، ولسان التأييد يتلو علينا بالعشى والإشراق : « **ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق** »[1] ، ولحين ماأخذ الموحدون ـ أنجدهم الله ـ فى حسم دائهم العُضال ، وجردوا لهم من عزماتهم الصادقة ماهو أمضى من النصال ، طاحوا مجدلين بالحضيض ، وملأ جثمانهم الفضاء العريض ، وخيب الله ظنونهم الكاذبة وآمالهم ، وصيرهم إلى أمهم الهاوية فكانت أولى بهم ، « **ذلك بأنهم اتبعوا ماأسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** » [2] ، وأمكن الله من رأس ضلالهم المدعو بأبى قصبة ، فقهره الحزب المنصور وغلبه ، وحز الحسام منه قنة ورقبة . . . » .

***

(١) سورة صٓ : الآية : ١٥ : مكية .
(٢) سورة محمد : الآية : ٢٨ : مدنية .

إنما أوردت هذه الرسالة هاهنا لغرابة شأن من وردت عليّ منه ، وذلك أنه كان حين كتب بها إلى لم يحتلم بعد !

فتح جزيرة منرقة

ومع اتصال هذا الفتح بهم ، اتصل معه فتح جزيرة ميرقة ، كان فيها من أصحاب ابن غانية رجل اسمه الزبير بن نجاح ، دخلوها عليه فقتلوه ووجهوا برأسه إلى مراكش ، فهو معلق بها مع رأس أبى قصبة المذكور .

محاربة يحيى بن غانية بإفريقية

ولما كانت سنة ٦٠١ ، تجهز أمير المؤمنين أبو عبد الله فى جيوش عظيمة وقصد بلاد إفريقية ، وقد كان الميرقى يحيى بن غانية قد استولى عليها ، خلا قسطنطينة وبجاية ، هيأ له ذلك غفلة الموحدين عنه ، واشتغال أمير المؤمنين أبى يوسف بغزو الروم بالأندلس على ما قدمناه .

فسار أبو عبد الله حتى نزل بلاد إفريقية ، فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية ، مهدية بنى عبيد ، فإنه أقام عليها أربعة أشهر قبل أن دخلها ، أوجب ذلك ماقدمنا من شدة منعتها ـ وكان يحيى بن غانية قد ولى فيها ابن عمه لحًّا ، أبا الحسن على بن عبد الله بن محمد بن غانية ـ فلما طال عليه الحصار سلم البلد وخرج بنفسه يقصد ابن عمه ، ثم بدا له أن يرجع إلى الموحدين ، فأرسل إليهم فتلقوه أحسن لقاء ، ووصلوه من الصلات النفيسة بما لا قيمة له ، ولا يصل بمثله إلا الخلفاء ، وبعد هذا نزع إليهم أخو يحيى ابن غانية ، سير بن إسحاق بن محمد ، فأكرموا نُزُوله وأقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملأوا يديه أموالاً .

ولم يزل أبو عبد الله أمير المؤمنين مقيماً بإفريقية يصلح ما أفسده ابن غانيـة إلى أن تم له ما أراد من ذلك ، وبلغنى أن جملة ما أنفق فى هذه السفرة مائة وعشرون حِملا ذهبا .

ثم رجع إلى مراكش دار الملك ، بعـد أن ترك بأفريقية من الموحديـن وأصناف الجند من يقوم بحمايتهـا ويذود عنهـا من رامها ، واستعمل عليـه من أشياخ الموحـدين أبا محمـد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص عمر إينتى فأقام بمراكش .

انتقاض الهدنة بين الموحدين والفرنجة

وكـان رجوعـه إليها فى شهـور سنة ٦٠٤ ، فأقـام بها ـ كما ذُكـر ـ إلى أول سنـة ٦٠٧ ، فانتقض مابينه وبين الأدفنش ـ لعنه الله ـ من المهادنة ، وبدا له أن يقصد بلاد الروم للغزو ، فخرج بـالجيوش حتى عبر البحـر ، وكان عبوره فى شهـر ذى القعدة من سنـة ٧ المذكورة ، فسار حتى نزل إشبيلية قبله ، فأقام بها بقية السنة المذكورة .

فتح شلبتره

وتحرك فى أول سنة ٨ فقصد بـلاد الروم ، فنزل غايـة المنعة تدعى شلبتره ــ معناه بلسان العـرب : الأرض البيضاء ، إلا أن فيـه تقديماً وتأخيراً ، كما جـرت العادة فى لسـان العجم ـ ففتحها بعد حصار وتضييق عليها شديد ، وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أيامًا يسيرة ثم تركها شفقـة على المسلمين وخوفًا عليهم ، فراع فتح هذه القلعة الـروم ، وخامرهم الرعب ، وخرج الأدفنش ـ لعنه الله ـ إلى قاصيـة بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسـانهم وذوى النجدة منهـم ، فـاجتمعت له جموع عظيمـة من الجزيرة نفسهـا ومن السام حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى .

أشهر الإمارات الإسبانية فى ذلك العهد

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربع أربعة ملوك من الروم : إحدى الجهات تسمى أرغون ـ وهى التى ذكرنا ـ وهى شرقى الجزيرة مما يقابل الجنوب منها .

والجهة الأخرى ـ وهى المملكة الكبرى ـ بلاد تسمى بلاد قشتال ، يملكها الأدفنش ـ لعنه الله ـ وحد هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال ، أميل إلى الجنوب قليلا .

والجهة الأخرى تسمى ليون ، فهو أول الحد الشمالى المغربى ، يملكها رجل يدعى بالببوج ، ومعنى هذا الاسم بالعربية : الكثير اللُّعاب !

والجهة الأخرى فى الشمال مما يلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس يملكها رجل يعرف بابن الريق ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب .

والجزيرة بأسرها ، أعنى جزيرة الأندلس ، تسمى فى قديم الدهر عند الروم جزيرة أشانية .

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبى عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة ، وخرج من إشبيلية فى أول سنة ٦٠٩ ، فسار حتى نزل مدينة جيان ، فأقام بها ينظر فى أمره ويعبىء عساكره وخرج الأدفنش ـ لعنه الله ـ من مدينة طليطلة فى جموع ضخمة ، حتى نزل على قلعة رباح ـ وهى كانت للمسلمين ، افتتحها المنصور أبو يوسف فى الواقعة الكبرى ـ فسلمها إليه المسلمون الذين بها ، بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش ـ لعنه الله ـ بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا : إنما جئت بنا لتفتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ! مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه !

وقعة العقاب وهزيمة المسلمين

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيان ، فالتقى هو والأدفنش بموضع يعرف بالعقاب ، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم ، فعبأ الأدفنش جيوشه ورتب أصحابه ، ودهم المسلمين وهم على غير أهبة ، فانهزموا ، وقُتل من الموحدين خلق كثير .

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين ، وذلك أنهم كانوا على عهد أبى يوسف يعقوب يأخذون العطاء فى كل أربعة أشهر ، ولا يخل ذلك من أمرهم ، فأبطأ فى مدة أبى عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصًا فى هذه السفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء ، وخرجوا وهم كارهون فبلغنى عن جماعة منهم أنهم لم يسلوا سيفًا ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا فى شيء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنجة عليهم قاصدين لذلك ، وثبت أبو عبد الله هذا فى ذلك اليوم ثباتًا لم يُرَ لملك قبله ، ولولا ثباته هذا لاستؤصِلت تلك الجموع كلها قتلا وأسراً !

ثم رجع من هذا الوجه إلى إشبيلية ، وأقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة ، ثم عبر البحر قاصداً مدينة مراكش . . .

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين يوم الاثنين منتصف صفر الكائن فى سنة ٦٠٩ .

وفصل الأدفنش ـ لعنه الله ـ عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدى أصحابه أموالاً وأمتعة من متاع المسلمين ، فقصد مدينتى بياسة وأُبذة ، فأما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية ، فحرق دورها وخرب مسجدها الأعظم ، ونزل على أبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهل بياسة وأهل البلد نفسه فأقام عليها ثلاثة عشر يومًا ، ثم دخلها عنوة فقتل وسبى وغنم ، وفصل أصحابه من السبى من النساء والصبيان بما ملأوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة ! .

وفاة الناصر محمد

ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد الله مقيماً بمراكش بقية سنة ٩ وأشهراً من سنة ١٠ إلى أن توفى فى شهر شعبان كما قدمنا ، واختلف علينا فى سبب وفاته فأصح ما بلغنى أنه أصابته سكتة من ورم فى دماغه ، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ، فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك ، وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ، صلى عليه خاصة الحشم ! .

ذكر ولاية أبى يعقوب يوسف بن محمد

هو يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، أمه أم ولد رومية اسمها قمر ، تلقب حكيمة ، كانت ولادته فى صدر شوال من سنة ٥٩٤ ، قبل وفاة جده أبى يوسف بأربعة أشهر .

بويع له وسنه يومئذ ست عشرة سنة ، لا أعلم له ولداً لحداثة سنه ، ثم اتصل بى فى شهور سنة ٦٢١ أن يوسف هذا توفى فى أحد الشهرين من شوال أو ذى القعدة سنة ٢٠ ، فكانت مدة ولايته من يوم بويع له ـ وذلك لأحد عشر يومًا خلت من شعبان من سنة ٦١٠ ـ إلى أن توفى كما ذكر فى التاريخ المذكور ، عشرة أعوام وشهرين .

صفته

كان صافى السمرة ، مستدير الوجه ، شديد الكَحَل ، يشبهونه بجده أبى يوسف فى أكثر خَلْقِه وخُلُقِه .

وزراؤه

أبو سعيد ـ المتقدم الذكر ـ وزير أبيه ، استمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ .

ثم عزله وولى بعده رجلاً اسمه زكريا بن يحيى ابن أبى إبراهيم إسماعيل الهزرجى صاحب ابن تومرت والمقتول فى حياة عبد المؤمن ، كما تقدم .

أم هذا الوزير هى بنت أبى يوسف المنصور ، فهو وزيره إلى أن توفى ، كما ذكر .

حجابه

مبشر الخصى حاجب أبيه .

ثم حجبه بعده فارح الخصى ، يكنى أبا السرور ، فلم يزل حاجباً له إلى أن توفى ، كما قيل .

قاضيه

أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه ، لم يزل أبو عمران هذا قاضياً له إلى أن توفى كما قيل .

كُتَّابه

أبو عبد الله ابن عياش كاتب أبيه وجده .

وأبو الحسنا بن عياش .

ثم اتصلت بى وفاة هذين الكاتبين وأنا بالديار المصرية فى شهور سنة ٦١٩ ، وأنهم استعادوا أبا عبد الله محمد بن يخلفُتَن الفازازى المتقدم الذكر فى كتاب أمير المؤمنين أبى عبد الله ، وكان قاضياً بمدينة مرسية من شرقى الأندلس ، وبها فارقته فأعادوه إلى الكتابة كما كان .

واستكتبوا معه أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش . أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم ، وقد تقدم ذكره فى كُتّاب ثلاثة أمراء منهم وكاتب الجيش أحمد بن منيع ، لم يتغير .

بيعته

بويع لأبى يعقوب هذا يوم دفن أبيه ، لا أدرى أبعهد أبيه إليه أم لا ؛ لأنى أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه فى آخر أيامه ، لما كان يسمع من سوء أخباره والذين قاموا ببيعته من القرابة : أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ـ عم جده الذى دخل عليه الميرقيون بجاية ، وهو آخر من بقى من ولد عبد المؤمن لصلبه ، لم تبلغنى وفاته إلى وقتنا هذا ـ وأبو زكريا يحيى ابن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس ، ومن الموحدين : أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى يزيد الهنتاتى ـ كان أبوه أول وزير وزر لأبى يوسف ، وقد ذُكر ـ وأبو على عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان عبد الملك بن يوسف بن سليمان ، من أهل تينمل .

وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس ، ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة ، وفى يوم السبت أذن للناس عامة ، شهدت ذلك اليوم ، وأبو عبد الله ابن عياش الكاتب قائم يقول للناس :

« تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ رسولَ الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم ولكم ، عليه : ألا يُجمر بعوثكم ، وألا يدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطائكم ، وألا يحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قُلد من أموركم » .

يعيد هذا القول لكل طائفة ، إلى أن انقضت البيعة ، ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر .

فاطمى من سلالة ملوك القاهرة يثور بمراكش

ولأربعة أشهر من ولايته قُبض على رجل كان قد ثار عليهم يدعى أنه من بنى عُبيد ويقول : إنه ولد العاضد لصلبه ، اسمه عبد الرحمن .

كان قد ورد البلاد فى حياة أبى يوسف أيام كونه بإشبيلية ، ورام الاجتماع به فلم يأذن له ، وأقام بالبلاد مطرحًا إلى أن حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله فى شهور سنة ٥٩٦ ، فلم يزل فى الحبس إلى أن كانت سنة ٦٠١ وتحرك أمير المؤمنين إلى إفريقية ، شفع له فيه أبو زكريا يحيى ابن أبى إبراهيم الهزرجى ، فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرك فى أمر يكرهونه ، فلم يقم هذا العبيدى بمراكش إلا أيامًا يسيرة بعد خروج أمير المؤمنين أبى عبد الله ، ثم خرج وقصد بلاد صنهاجة ، فالتفت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم ، لأن هذا الرجل كان كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين فلم أر فى أكثر من شهدته من المشبَّهين بالصالحين مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة ، ثم قصد مدينة سجلماسة فى حياة أمير المؤمنين أبى عبد الله بجيش عظيم ، فخرج إليه متواليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العبيدى المذكور وأعاده إلى سجلماسة أسوأ عود ، ولم يزل ينتقل فى قبائل البربر من موضع إلى موضع ، وفى ذلك كله لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة ، أوجب ذلك كونه غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ، ولا أصل بالبلاد يرجع إليه ، إلى أن قُبض عليه بظاهر مدينة فاس ، لم يبلغنى تفصيل قضية القبض عليه ، وكتب إلى أمير المؤمنين متولى فاس أبو إبراهيم إسحاق ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، يُعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده فى سجنه ، فكتب إليه يأمره بقتله وصلبه ، فضرب عنقه وصُلب جسده ووُجه برأسه إلى مراكش فهو معلق هناك مع عدة رءوس من الثوار والمتغلبين .

ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئًا من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عمن

كـان قبله ، خـلا أنى رأيت كل من يعرفـه من خـواص الدولـة قد ملىء قلبـه منه رعبًـا ، لما يعلمون من شهـامته وشدة تيقظه ، لقيتـه وجلســت بين يديـــه خالياً بـه ، وذلك فى غرة سنة ٦١١ ، فرأيت ـ من حـدة نفسه وتيقظ قلبه وسؤاله عن جزئيات لا يعـرفها أكثر السوق فكيف الملوك ـ ماقضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شىء مما يتوقع .

ثائران آخران على أبى يعقوب الثانى

وثار فى أيام يوسف هذا ـ بعد قتل العبيدى ـ رجلان : أحدهما ببلاد جزولة من سوس ، كان يدعى بالفـاطمى ، قُتل وجىء برأسه إلى مراكش فى شهور سنة ٦١٢ وأنا يـومئذ بجزيرة الأندلس ، لم يبلغنى تفصيل أمره لبعدى عن الحضرة ، غير أنى رأيتهم أعظموا الفرح بأخذه وقتله ، والآخر من صنهاجة ، قتل فى سنة ٦١٨ بعد أن أثر آثاراً قبيحة فيها بلغنى وهزم بعوثاً عدة واستفسد خلقًـا كثيرًا ، بلغنى هذا كله وأنا بـالبلاد المصرية فى التاريـخ المتقدم ، وكان الذى تولى قتل هذا الرجل والإراحة منه وحسم الخلاف الواقع بسببه ، السيد الأجل أبا محمد عبد العزيز ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب ابن عبـد المؤمن بن على ، وهو يومئذ والٍ على مدينة سجلماسة وأعمالها .

وفاة أبى يعقوب الثانى

ثم اتصل بى فى هذه السنة ــ وهى سنة ٦٢١ ـ أن أبا يعقـوب أمير المؤمنين توفى فى أحد الشهرين من شـوال أو ذى القعدة من سنـة ٦٢٠ ولم يبلغنى كيفية وفاتـه ، فاضطـرب الأمر واشرأَبَّ الناس للخلاف .

ولاية أبى محمد عبد العزيز ابن أبى يعقوب الأول

ثم ذكر لى أن عامتهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز

ابن أمير المؤمنين أبى يعقوب يوسف ابن أمير المؤمنين محمد عبد المؤمن بن على ، رحمهما الله ونضر وجههما وجزاهما خيرًا عن صلاحهما ، وإصلاحهما ! وأبو محمد عبد العزيز هذا من أصاغر أولاد أبى يعقوب ، أمه حرة اسمها مريم ، صنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب فى حياة أبيه ، وكانت سُبِيت هى وأمها ملكة فيمن سُبُوا من أهل القلعة ، فأعتقهما أبو محمد عبد المؤمن ، وزوج مريم هذه لابنه أبى يعقوب ، فولدت له ثمانية من الولد : أربعة ذكور، وأربعة بنات ، فالذكور هم : إبراهيم ، وموسى ، وإدريس ، وعبد العزيز هذا المذكور ، وهو أصغرهم ، توفى موسى بظاهر مدينة تاهرت ، قتله العرب أصحاب الميرقى فى شهور سنة ٦٠٥ ، وتوفى إبراهيم منهم بإشبيلية وأنابها فى شهور سنة ٦١٢ ، وتوفى أبو العلاء إدريس منهم بإفريقية كما سيأتى ، والبنات هن : زينب ، ورقية ، وعائشة ، وعلية .

لم يتولَّ أبو محمد عبد العزيز هذا شيئًا من أمرهم فى حياة أبيه ، ولا فى حياة أخيه أبى يوسف ، فلما ولى أبو عبد الله الأمر ، ولاه مدينة مالقة وأعمالها من جزيرة الأندلس ، وذلك فى شهور سنة ٥٩٨ ، ثم عزله عنها فى شهور سنة ٦٠٣ وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهى ولاية ضخمة ، فلم يزل واليًا عليها إلى أن عزله عنها وولاه أمر سجلماسة ، فلم يزل واليا عليها بقية مدته ومدة ابنه أبى يعقوب ، إلى أن قتل هذا الثائر المتقدم الذكر فى ولاية أبى يعقوب ابن أبى عبد الله ، فعزله أبى يعقوب عن سجلماسة وولاه مدينة إشبيلية حين عزل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر إفريقية فلم يزل أبو العلاء إدريس واليًا بإفريقية إلى أن مات بها فى رمضان من سنة ٦٢٠ على ما بلغنى ، رحمة الله عليه .

فهذه جملة أخبار هذا الرجل ، أبى محمد عبد العزيز المذكور بالولاية لأمرهم كما ، قالوا ، ولئن كان ماقالوا حقا وتم هذا الأمر له ، ليملأنها خيرًا وعدلاً ، ولتزكون الأرض وتخرج بركاتها ، ولترسلن السماء مدرارها ، بيمن نقيبته وحسن سيرته وحميد سريرته ، هذا إذا ساعده الدهر وقيض الله له أعوانا صالحين ، فإنه ـ ماعلمت ـ صوام قوام ، مجتهد فى دينه ،

شديد البصيرة فى أمره ، قوى العزيمة ، شديد الشكيمة ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، أرطب الناس لساناً بذكر الله ، وأتلاهم لكتاب الله ، شهدته والولاية قد اكتنفته ، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته ، وهو فى ذلك لا يُخل بشىءٍ من أوراده ، ولا يترك وظيفة من الوظائف التى رتبها على نفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن ، وأذكارٍ رتبها على أوقات الليل والنهار ، شهدت هذا كله منه بنفسى ، لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية ، هذا مع دماثة خلق ولين جانب وخفض جناح لأصحابه ولمن علم فيه خيراً من المسلمين أو ظنه مُضافا إلى سخاء نفس وطلاقة وجه .

وصفته

أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جدًّا ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء ، وله من الولد ـ على علمى ـ ثلاثة : محمد وهو أكبرهم ، وعبد الرحمن ، وأحمد ، وبنات .

***

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم ـ وهو سنة ٥١٥ ـ إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ فذلك مائة سنة وست سنين ، على الإجمال لا على التفصيل .

وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه ، وتجشم الضرورة من عُنِىَ بالأخبار إلى معرفته ، من غير تعرض إلى ما لا حاجة بنا إليه ، من ذكر أولاد عبد المؤمن ، وأولاد أولاده ، وأولاد وأولاد أولاده ، وتفاصيل أخبارهم فى ولايتهم وعَزْلهم وأمهاتهم وكُتابهم وحُجابهم ووزرائهم ، إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حد التلخيص ولحق بالكتب المبسوطة ، هذا على أنَّا لو كُفينا ضرورات المعاش ، وأُعفينا من كد الزمان ، لأوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصلته المشاهدة .

ولم أثبت فى هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً من كتاب ، أو سماعًا من ثقةٍ عدل ، أو مشاهدة بنفسى ، هذا بعد أن تحريت الصدق وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجهدت ألا أنقص أحداً ذرة مما له ، ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه ، وبالله أستعين ، وإياه أسأل ، وإليه أضرع فى إلهام الصواب والسداد فى القول والعمل ، فهو حسبى ونعم الوكيل .

***

جامع سيرة المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم فى طعنهم وإقامتهم

قد قدمنا أن أول من صحب المهدى محمد بن تومرت ، عشرة أنفس ، وهم المسمَّون بالجماعة ، أولهم عبد الواحد الشرقى على الصحيح ، ثم عبد المؤمن بن على أمير المؤمنين ، ثم عمر بن عبد الله الصنهاجى المعروف عندهم بعمر أزناج ، ثم فصكة بن وَمزَّال ، وسماه ابن تومرت عمر ، وكناه أبا حفص ، انتشر من ظهر عمر هذا بشر كثير ، وكان له عدة من الولد ، منهم : إبراهيم ، وإسماعيل ، ومحمد ـ أم محمدٍ هذا ابنة عبد المؤمن ـ ويحيى ، وعيسى ، وموسى ، ويونس ، وعبد الحق ، وعثمان ، وأحمد ، وعبد الواحد ، كان عبد الواحد هذا يتولى أمر إفريقية ، ولاه أمرها أمير المؤمنين أبو عبد الله سنة ٦٠٣ ، فلم يزل واليًا عليها إلى أن مات بها يوم الخميس وهو أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨ .

وكان ابن تومرت يسمَّى فصكة هذا : المبارك ، ويقول : لايزالون بخير ما بقى فيهم هذا الرجل أو أحد من ولده ! فكان الأمر كما قال ، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده ، وهو المشهور بعمر إينْتى ، وقد تقدم ذكره فى مواضع من هذا الكتاب ، ولم يبق فى وقتنا هذا من ولده لصُلبه سوى رجل واحد اسمه عثمان ، فارقته بمدينة مرسية ، وبها ودعته حين ارتحلت إلى هذه البلاد ، وقد ولوه مدينة جيان وأعمالها ، هذا آخر عهدى به ، ثم اتصل بى بديار مصر أنهم ولوه بلنسية ثم عزلوه عنها ، فلا أدرى أهو بالأندلس اليوم أو بمراكش ؟ وهو معدود عندى من جملة إخوانى ، رضى الله عنه وعنَّا وعن جميع المسلمين .

. . . ثم يوسف بن سليمان ، وأخوه عبد الله بن سليمان ، وهما من أهل تينمل ، من قبيلة تدعى مسكالة حسبما تقدم ، ثم أبو عمران موسى بن على الضرير ، صهر عبد المؤمن ، كان ضرير البصر ، كان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا سافر عنها ، ثم أبو إبراهيم إسماعيل الهزرجى ـ وهو الذى أسلم نفسه للقتل وفدى عبد المؤمن بذلك على ما تقدم ـ ثم

رجل من أهل تينمل ، يعرف عندهم بابن بيجيت ــ أنا شاكٌّ فى اسمه ــ ثم أيوب الجدميوى ، وهو الذى تولى قسمة الأقطاع بين الموحدين فى أول الأمر .

فهؤلاء العشيرة المسمَّون بالجماعة ، وبعض الناس يعد فيهم أبا محمد وأسنار ، وهو رجل دبّاغ أسود من أهل مدينة أغمات ، صحب أبا عبد الله ابن تومرت حين مرّ فاختصه أبو عبد الله ابن تومرت لخدمته ، لما رأى من شدته فى دينه وكتمانه لما يرى ويسمع ، فكان يتولى وضوءه وسواكه والإذن عليه للناس وحجابته والخروج بين يديه ، فلم يزل على ذلك إلى أن توفى ابن تومرت ، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المؤمن حين دفن هناك ، توفى وأسنار هذا فى صدر دولة أبى يعقوب بعد أن علت سنه ، وكان من العباد المجتهدين والزهاد المتبتلين ، لم يكتسب شيئًا ولا خلف ديناراً ولا درهمًا ، مع أنه لو شاء لكان أكثر الناس مالاً ، لمكانه من عبد المؤمن ومن المصامدة ، لما كانوا يعلمون من قربه من صاحبهم وثنائه عليه فى أكثر الأوقات .

وانضاف إلى هؤلاء القوم المسمين بالجماعة ، خلق من قبائلهم ، فعدوا فيهم ونسبوا إليهم .

وأول من يعترض فى العرض العام ، ولد عمر بن عبد الله الصنهاجى ، ثم فرس عبد المؤمن أو من كان من ولده يتولى الأمر ، ثم سائر أهل الجماعة على طبقاتهم من سبقٍ وإبطاء ، ثم أهل خمسين ، وهم خلق كثير .

ذكر قبائل الموحدين

وقبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم . . وهم الجند والأعوان والأنصار ، ومن سواهم من سائر البربر والمصامدة رعية لهم وتحت أمرهم ــ سبع قبائل ، أولهم قبيلة ابن تومرت ، وهى قبيلة تسمى هرغة ، وهى قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين ، ثم قبيلة عبد المؤمن ، تسمى كومية ، وهى قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب ، لم

يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حـديثه ذكر فى رياسة ولا حظ من نباهـة ، إنها كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع ، فتبارك المعـز المذل المعطى المانع ! فأصبح القوم اليـوم وليس فوقهم أحد ببـلاد المغرب ، ولا تطاول أيديهم يدٌ بكون عبد المؤمن منهم ، هذا على أنه ـ كما قدمناه ـ ينتسب إلى غيرهم ، ثم أهل تينمل ، وهم قبـائل شتى يجمعهـا اسم هـذا الموضع ، ثم هنتـاتة ، وهى أيضـا قبيلـة ضخمة جدا ، وفى بعضها رياسة وشرف فى الدهـر القديم ، ثم جنفيسة ، وهى قبيلة عزيزة منيعة ، ولغتها أجـود اللغات وأفصحها فى ذلك اللسان ، ثم جدميـوه ، وليست كلها ـ بل بعضها ــ رعيـــة ، ثم من اســـتجاب للموحـــدين من قبـــائل صنهـــاجة ، ثم بعض قبائـــل هسكورة .

فهـذه جملة قبـائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عنـدهم ، والـذين يأخذون العطـاء وتجمعهم الجيوش وينفرون فى البعوث ، وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية .

وإذ قد جـرى ذكرهـم ـ أعنى المصامـدة ـ على هذا النسق ، فلنذكـر لك الآن ـ حفظك الله وأصلحك وأصلح بك ــ القبـائل التى يجمعهـا هذا الاسـم ، أعنى المصامـدة ، وحـد بلادهم ، لتعرفهم ممن سواهم من البربر ، فحد بلادهـم النهر الأعظم الذى يصب من جبال صنهاجة وينتهى إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، يُدعى هذا النهر أم ربيع ، عليه قبيلتان ، إحـداهما تسمى هسكـورة ، وأخـرى صنهـاجة ، وهما من المصـامـدة ، وآخـر بـلادهم الصحراء التى تسكنهـا قبائل لمتونـة ومسوفة وسرطـة ، وهؤلاء ليسـوا مصامدة ، وقـد كانت المملكة فى هـذه القبائل أيام المرابطين كما تقدم ، فهـذا حد بلاد المصـامدة عرضًا ، وحـدها طـولاً من الجبل المعروف بـدرن إلى البحر الأعظم المسمـى أقيانس ، وقبـائلها الـذين ينطلق عليهم هذا الاسم ، هسكورة ، وصنهاجة ، ودكالة ، وحاحة ، ورجراجة ، وجزولة ، ولمطة ، وجنفيسة ، وهنتاتة ، وهرغـــة ، وقبـائل أهل تينمل ، وحول مراكش قبائل منهم أيضًا ، وهـم : هزمير ، وهيـلانة ، وهزرجـة ، يدعونهم الموحـدن بالقبائل ، فهـؤلاء الذين يجمعهم اسم المصامدة ، ثم يجمع الكل جنس البربر ، من طرابلس المغرب إلى أقصى سوس وماوراء

ذلك ممن ذكرنا ، من لمتونة ومسوفة وسرطة ، وآخر بلادهم أول حد بلاد السودان .

وللمصامدة بعد هذا جند من سائر أصناف الناس ، كالعرب والغُزّ ، والأندلس ، والروم ، وقبائل من المرابطين ، وغيرهم .

ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان : فالصنف الأول يدعون الجموع ، وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها ، والصنف الآخر يدعون العموم ، وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا فى النفير الأعظم ، وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الأجناد - على ماصح عندى تلخيصه - عشرة آلاف نفس ، هؤلاء الذين بمراكش خارجًا عما فى سائر البلاد من الموحدين وأصناف الجند .

وإذا كان العرض العام فأول من يعترض ذرية أبى حفص عمر الصنهاجى على طبقاتهم فى أسنانهم ، ثم بعدهم فرس الخليفة من بنى عبد المؤمن ، ثم أهل الجماعة على ترتيب طبقاتهم ، ثم أهل خمسين ، ثم القبائل ، وأولهم عرضاً هرغة قبيلة ابن تومرت ، ثم بعدهم أهل تينمل ، ثم كومية ، ثم الموحدون بعد هذا على طبقاتهم فى سرعة الهجرة وبُطئها .

وقد جرت عادتهم بالكَتْبِ إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن ، وخاصة أهل علم النظر ، وسموهم طلبة الحضر ، فهم يكثرون فى بعض الأوقات ويقلّون ، وصنف آخر ممن عُنى بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ، ولابد فى كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم ، من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم ، فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يُلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه ، كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يُلقون المسائل بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء ، يدعون الخليفة ويؤمّن الوزير جهراً يُسمع من بَعُدَ من الناس ، ثم إذا سافروا لايزال القرآن يُقرأ بين أيديهم بالغدو والعشى رُكبانًا ، وإذا نزلوا فأول شيء يصنعونه فى أول النهار بعد صلاتهم الفجر ، أن يخرج من ينادى : « الاستعانة بالله والتوكل عليه ! » هذه عندهم للركوب ، فحينئذ يركب الناس ، ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيان القرابة وأشياخ

الموحدين بين يديه مُشـاةً خطوات كبيرة ، ثـم يأمرهـم بالركوب ، فإذا ركبـوا وقف وبسط يديه ودعا ، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءة طلبة الموحدين خلفه ، فيقرأون حزبًا من القرآن فى نهاية الترتيل وهم سـائرون سيراً رفيقًا ، ثـم شيئًـا من الحديث ، ثـم يقرأون تـواليف ابن تومـرت فى العقائد بلسانهم وباللسـان العربى ، فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضا وبسـط يديه ودعا ، وإذا كان وقت النزول أيضًا نزلوا مشاة بين يديـه إلى خيمته ، فإذا بلغها بسط يديه ودعا ، فلا يزال هذا دأبهم فى جميع سفرهم كله .

صفة أحوالهم فى إقامة الجمعة

فأما صفـة أحوالهم وخطبتهم فى جمعهم ، فيخرج الخليفـة منهم عند زوال الشمس من خوخة فى القبلة ، ويخرج معه خواص حشمـه ، ويركع ركعتين ثم يجلس ، فيقرأ قارىء قدر عشر آيات ، حسن القـراءة حسن الصوت ، ثـم يقوم رئيس المؤذنين ومعه العصـا التى يتوكأ عليها الخطيب فيقول : « قـد فاء الفىء ياسيدنا أمير المؤمنين ، والحمـد لله رب العالمين ! » يريد بهذا القول استئذانه فى صعـود الخطيب المنبر ، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر ، ثم يناوله ذلك الـــرجل العصـا ، فإذا جلس الخطيـب فـوق المنبر أَذَّن ثـلاثـــة من المؤذنين مفترقين ، أصواتهم فى نهايـة الحسن ، قد انْتُخِبُوا لذلك من البـلاد ، ثم يقوم الخطيب فيخطب ، فأول شىء يقول :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى لـه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدا عبده ورسـوله ، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يـدى الساعة ، من يُطع الله ورسوله فقـد رشد ، ومن يعص الله ورسوله فـلا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً ، أسأل الله ربنـا أن يجعلنـا ممن يطيعه ويطيع رسولـــه ، ويتبع رضـــوانه ويجتنب سخطه ، فإنما نحن به وله . . »

ثم يتعوذ ويقرأ سورة «قاف» من أولها إلى آخرها ، ثم يجلس ، فإذا قام إلى الخطبة الثانية قال :

« الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه ، ونبرأ من الحول والقوة إليه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأنام جِدًّا وعزمًا ، وأنفدوا وسعهم فى نصره والصبر على ما أصابهم فيه وفاءً وصدقًا وحزمًا ، وعلى الإمام المعصوم المهدى المعلوم أبى عبد الله محمد بن عبد الله العربى القرشى الهاشمى الحسنى الفاطمى المحمدى ، الذى أُيد بالعصمة فكان أمره حتمًا ، واكتنف بالنور اللائح والعدل الواضح الذى يملأ البسيطة حتي لايدع فيها ظلامًا ولا ظُلمًا ، وعلى وارث شرفه الصميم قسيمه ـ رضى الله عنه ـ فى النسب الكريم ، المجتبى لوراثة مقامه العلى ، الخليفة الإمام أبى محمد عبد المؤمن بن على ، وعلى أبى يعقوب ولى ذلك الاستخلاص ومستوجب شرف الاجتباء والاختصاص اللهم وارض عن المجاهد فى سبيلك ، المُحيى سنة رسولك ، الخليفة الإمام أبى يوسف أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، وعلى الخليفة الإمام أبى عبد الله ابن الخلفاء الراشدين ، اللهم وانصر ولىَّ عهدهم ، الطالع فى أفق سعدهم ، القائم بالأمر من بعدهم ، الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبا يعقوب ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، ابن أمير المؤمنين ، اللهم كما شددت به عُرى الإسلام ، وجمعت على طاعته قلوب الأنام ، ونصرت به دين نبيك محمد عليه الصلاة والسلام ، فاقضِ له بالنصر المقرون بالكمال والتمام ، اللهم كما اجتبيته من الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، فاجعله من المقتفين لآثارهم ، المهتدين بمنارهم ، المقتبسين من أنوارهم ، اللهم وأيد الطائفة المنصورة والجماعة ، إخوان نبيك ، وطائفة مهديك ، الذين أخبرت عنهم فى صريح وحيك : إنهم لايزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة ، وأمدهم وكافة من انتظم فى سلكهم من أنصار الدين ، وحزبك الموحدين ، بمواد النصر والتمكين ، والفتح المبين ، واجعل لهم من عضدك وتأييدك أعز ظهير ، وأكرم نصير . . . » .

ثم يدعو وينـزل فيصلى ، فإذا فرغ دعا الخليفة بنفسه وأمَّن الوزيـر على ماتقدم ، فهذه كليات سيرتهم مجملةً على مـا يقتضيه شرط التقريب ، وفى أثناء ذلك تفـاصيل يطول شرحها وليس بالناظـر فى هذا الكتاب إليها كبير حاجـة ، إذ قد بين له ما يستـدل على مالم يرسم فى هذه الأوراق بما رُسم .

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا ـ أصلحك الله ـ منتهى ما بلغ من أخبـار المغرب وسير ملوكه وزرائهم وكتابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطـاعة ، وقد تقـدم بسط العذر عما يقع من التقصير أو الخلل ، مع أن أصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدث قط نفسه به ، وإنما بعثته عليه الهمة الفخرية ـ أعلى الله رُتبها ـ فما كان من إحسان فإلى تلك الهمة العلية نِسبته وعنها منبعثه ، وما كان من غير ذلك فإغضاؤها يستره ، ومسامحتها تغمره .

وقـد رسم مولانـا ـ حـرس الله مجده ـ أن يُضـاف إلى هذا التصنيف ذكـر أقاليم المغـرب وتعيين مدنـه وتحديد ما بينهـا من المراحل عدداً ، من لـدن برقة إلى سـوس الأقصى ، وذكر جزيرة الأندلس ومايملكه المسلمون من مـدنها على ما تقدم ، فلم يرَ المملوك بُدًّا من الجرى على العادة فى سرعة الإجابـة وامتثال مرسوم الخدمة ، لوجوب ذلك عليه شرعـاً وعرفاً ، هذا مع أن هذا الباب خارج عن مقصود هذا التصنيف ، وداخل فى باب المسالك والممالك ، وقد وضع النـاس فيه كتبـاً كثيرة : ككتـاب أبى عبيد البكـرى الأنـدلسى ، وكتاب ابن فيـاض الأندلسى أيضـاً ، وكتاب ابن حـرداذبه الفارسى ، وكتـاب الفرغـانى ، وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستـوعبة له ، ونحن إن شـاء الله ذاكرون من ذلك ـ مـوافقة لرأى مـولانا العـالى ـ مـا يقف به على حـدود البلاد ويصـور له صـورتها على التقريب من غير تطـويل ، جارين فى ذلك عـلـى ما ســلف من عادتنا فى سـائر الكتاب : فنقول وباللـه التوفيـق ومنه الإعانة :

قد تقرر واشتهر أن أول حد البلاد المصرية مما يلى الشام ، العريش ، وآخره مما يلى المغرب ، مدينة أنطابُلس المعروفة ببرقة ، هذا عرض الديار المصرية ، وحدها فى الطول من ثغر أسوان إلى مدينة رشيد الكائنة على ساحل البحر الرومى ، هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن .

أولاً : المدن العامرة على الساحل

وأول حد بلاد إفريقية والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة ، المدعوة ببرقة ، بناها الروم فكانت حاضرة لتلك البلاد ومجتمعاً لأهلها ، افتتحها المسلمون فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومنها كان ابتداء فتح المغرب ومن هذه المدينة ـ أعنى أنطابلس ـ إلى مدينة طرابلس المغرب ، قريب من خمس وعشرين مرحلة .

اتصال العمران بين الإسكندرية والقيروان

وما بين الإسكندرية وطرابُلس المغرب ، خمس وأربعون مرحلة ، وكانت العمارة متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القيروان ، تمشى فيها القوافل ليلاً ونهاراً : وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصون متقاربة جدا ، فإذا ظهر فى البحرعدوٌ نور كل حصن للحصن الذى يليه ، واتصل التنوير ، فينتهى خبر العدو من طرابلس إلى الإسكندرية ، أو من الإسكندرية إلى طرابلس ، فى ثلاث ساعات أو أربع ساعات من الليل ، فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد إلى أن خربت الأعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب وذلك فى حدود ٤٤٠ ــ حين تغير ما بينهم وبين المعز بن باديس الصنهاجى وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبنى العباس ، فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا ، واستوطنتها الأعراب من سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وغيرهم ، فهم اليوم بها ، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم .

ومدينة أنطـابلس هذه خراب ، لم يبق منها إلا آثارها ، وفيما بين بـرقة وطرابلس حصن يسمى طُلميثة ، بـالقرب منه معدن كبريت ، فأمـا مدينة طرابلس فلم تـزل معمورة إلى هذا الوقت ، وهى أول مملكة المصامدة ، وقـد استولى عليها فى مدة ملكهم وفى ملك أبى يعقوب منهم ، المملـوك قراقُش المتقـدم ذكره فى تـرجمة أبى يوسف ، ثم أخـرجه منهـا المصامـدة ، واستولى عليها أيضاً يحيى بن غانية وعلى كثير من إفـريقية حسبما تقدم تلخيصه ، ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة فهى فى ملكه إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ٦٢١ .

[بلاد إفريقية الساحلية]

فحد بلاد إفـريقية مما يلى المشرق ، مدينـة أنطابلس المذكورة ، وحدهـا مما يلى المغرب ، المدينة المعروفة بقسطنطنية الهواء ، سميت بذلك لإفراط علوها وشدة منعتها ، ومسافة ما بين أنطابلس وقسطنطينـة المغرب قريبـة من خمس ، وخمسين مرحلة ، فهـذا حد إفريقيـة طولاً ، وعرضها يختلف بحسب مـزاحمة الصحراء العمارة ومباعدتها ، وسميت إفريقيـة بذلك لنزول أفريقش من ولد حام بن نوح بها ، وأفريقش هذا هـو أبو البربر ، فالبربر كلهم من ولد حام ابن نوح ، خلا صنهاجة ، فإنهم يرجعون إلى حمير ، هـذا كله قول أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه ، من لدن ذكر أفريقش إلى ذكر صنهاجة .

فأول مدن إفـريقية المعمورة ، طـرابلس المغرب المتقدم ذكـرها ، ومنها إلى مـدينة تسمى قابس ، عشر مراحل ، وقـابس هذه على ساحل البحر الـرمى وكذلك طرابلس ، وتنصب إلى قابس هـذه أنهار من بعض تلك الجبـال التى تليها ، فهى بـذلك أخصب بلاد إفـريقية وأوسعها فـواكه وأعنـاباً ، ومن قـابس هذه إلى مدينـة صـــغيرة على الساحـل أيضاً تسمى سفاقس ، أربع مراحل ، ومن سفـاقس إلى مهدية بنى عُبيد ، ثلاث مـراحل ، وقد تقدمت صفة المهدية فى أخبـار أبى محمد عبد المؤمن بن على ، وبظاهر المهديـة المذكورة وقريب منها

جدا ، مدينـة تدعى زويلة ، بنـاها بنو عبيد حين بنوا المهـدية ، فاختصوا المهـدية لأنفسهم وحشمهم وأعيـان جندهم ووجـوه قوادهم ، وأسكنـوا زويلة هـذه سائر النـاس من الرعيـة والسودان وأراذل كتـامة وغيرهم من أتباعهم ، ولما ارتحل المعز إلى مصر بعـد أن افتتحها على يـدى خادمـه جوهـر ، ارتحلت معه طـائفة كبيرة من أهل زويلـة هذه فإليهم ينسب البـاب والحارة التى بالقاهـرة اليوم ، ومن مهدية بنى عبيـد إلى مدينة تسمى سوسـة ـ وإليها تنسب الثياب السوسية ـ مرحلتان ، ومن سوسة إلى مدينة تـونس ، ثلاث مراحل ، ولم تكن تونس هذه فى قدم الدهر على أيام الإفرنج مدينة ، وإنما بنيت فى أول الإسلام ، بناها عقبة بن نافع الفهرى لمصلحة رآها ، وإنما كانت المدينة الكبرى مدينـة على الساحل هناك تسمى قرطاجة بينها وبين تونس نحو من أربع فراسخ .

شأن مدينة قرطاجة فى القديم

وهذه المدينـة ـ أعنى قرطاجـــةـ هى كانـت حاضرة إفريقيـة أيام الروم ، وهى مـدينة عظيمة ، ظهـر فيها من قوتهـم وشدة طاعـةرعيتهم لهم وفرط جبروتهم مـا يعجب منه من تأمله ، ويعتبر فيه من وقف عليه ، وذلك أهم جلبوا إليها المياه من بعد شديد ، وتحيلوا على ذلك بغرائب من الحيل يعجز عن أيسرها جميع من فى هذا العصر ، وكانوا يضاهون بها مدينة القسطنطينيـة العظمـى ، المنسـوبـة إلى قسطنطين بـن هيـلان ملك الأفـرنج ، ثم لما افتتح المسلمون إفريقية فى أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، خرَّبوا هذه المدينةالمذكورة ، واتخذوا مـدينة القيروان دار ملكهم ومقـر ولاتهم ومجتمع جنـدهم ومـركز جيـوشهم ، وأسسـوا على ساحل البحـر مدينة تونـس المذكورة وكان هناك قبل ذلك ديـر معلَّم عند الروم يـزورونه من أقاصى بلادهـم ، فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً ، سموا المدينة تونس ، باسم الراهب الذى كان فى ذلك الدير ، فما زالت تونس معمورة إلى وقتنا هذا .

ولما خربـت مدينة القيروان على مـا سيأتى الإيماء إليـه ، صارت مـدينة تونـس حاضرة

إفريقية ومقر ولاتها وموضع مخاطبة أولى الأمر منها ، وكل ما بتونس من جيد الرخام وخالص المرمر فمن مدينة قرطاجة المذكورة .

ومن مدينة تونس هذه إلى مدينة صغيرة على ساحل البحر تدعى بونة ـ ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج : جيدة ـ ست مراحل ، وفيما بين تونس وبونة بُليدة صغيرة تسمى بنى زرت ، بينها وبين تونس يوم تام فى البر للمُجِدّ (ولبنى زرت ، هذه شأن غريب ، وذلك أنه يخرج فى بحرها كلما طلع هلال ، نوعٌ من السمك لم يكن فى الشهر الذى قبل ذلك ، هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد ، والمتفطنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهلّة ، وهذا منسوب إلى الطلسمات ، اعتنى به من عنى بخدمة القمر) ، ومن مدينة بونة إلى مدينة قسطنطينة التى هى أحد حَدَّى إفريقية ، خمس مراحل ، وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلاً .

هذا ما على ساحل البحر أو قريب منه من مدن إفريقية ، وبها مما يلى الصحراء مدن أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذافرغت مما على ساحل البحر من بلاد المغرب .

بلاد المغرب الساحلية

ومن قسطنطينة المغرب إلى بجاية ، خمس مراحل على الرفق ، وبجاية هذه هى دار ملك بنى حماد الصنهاجيين الذين تنتسب قلعة بنى حماد إليهم وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب إلى موضع يعرف بسيوسيرات ، وقد تقدم هذا الموضع بينه وبين بجاية قريب من تسع مراحل .

لم يزل بنو حماد يملكون بجاية وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها فى ولاية يحيى منهم ، أبو محمد عبد المؤمن بن على حسبما سبق .

ومن مدينة بجاية إلى مدينة صغيرة تـدعى الجزائر ـ وتنسب إلى قوم يقال لهم بنو مزغنة ـ قريب من أربع مراحل ، وهذه المدينة ـ المعروفة بالجزائر ـ على ساحل البحر الرومى وكذلك مدينـة بجاية ، ومن الجزائر هذه إلى مـدينة صغيرة تسمى تَنسَ ، أربع مراحل ، ومن مـدينة تنس إلى مدينة وهران ، سبع مراحل ، ومن مدينة وهران إلى مدينة سبتة على التقريب ، ثمان عشرة مرحلة .

ضيق البحر بين المغرب والأندلس

وبساحل سبتة هذه يلتقى البحران ، بحر مانطس الذى هو بحر الروم ، وبحر أقيانس الذى هو البحر الأعظم ، وهذا أول الخليج المعروف بالزقاق .

وسعة البحرَ فيما بين سبتة والأندلس ، ثمانية عشر ميلاً ، ثم لا يزال يضيق إلى أن ينتهى ذلك من عُدوة البربـر إلى موضع يُدعـى قصر مصمودة ، بينه وبين سبتـة نصف يوم ، ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يدعى جزيـرة طريف ، مقابلاً لقصر مصمودة المذكور ، فأضيق ما يكون البحر هنالك ، وسعته فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلاً ، ترى رمال كل واحد من الشطين من الآخر فى كـل وقت من أوقات النهار ، وقـد ذكر المؤرخـون أن الروم بنت فى قديم الـدهر قنطرة على هـذا الخليج ، ثم طغت المياه فغطتها ، فيـذكر قوم من أهل جـزيرة طريف أنهم يرونها أوان سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه .

ومن مدينة سبتة إلى مـدينة طنجة ، يوم تام فى البر ، وطنجة هـذه آخر الخليج الذى به يلتقى البحران ، وهى على سـاحل البحر الأعظم الذى لا عمارة وراءه ، وهو المعـروف عندنا بالبحـر المحيط ، المتصل ببحر الهند والحبشـة ـ وطنجةهذه آخـر بلد بالمغـرب المحقق ، وما بعدها من البلاد فإنما هـو فى الجنوب ، كمدينة سلا ، ، مدينـة مراكش ـ ثم لا يزال دائرًا فى الجنوب إلى أن يأتى بلاد الحبشة والهند .

فأول بـلاد المغرب مما على سـاحل البحـر الرومى ، ومـدينة أنطابلـس المعروفـة ببرقة ،

وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم ، مدينة طنجة ، مسافة ما بين ذلك على التقريب ، ست وتسعون مرحلة ، فهذا ذكر المدن التى على ساحل البحر من بلاد المغرب .

ثانياً : البلاد التى ليست على ساحل

ثم نعود إلى ذكر ما ليس على الساحل من مدن إفريقية والمغرب ، فنقول :

بلاد إفريقية

من مدينة قابس المتقدم ذكرها إلى مدينة تسمى قفصة ، ثلاث مراحل ، من مدينة قفصة إلى مدينة تُورَز ، أربع مراحل .

وتوزر هذه هى حاضرة بلاد الجريد وأُم قُراها ، وبلاد الجريد التى يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين : قسم يسمى قسطيلية ، وهذا الاسم يقع على توزر وأعمالها ، وقسم يسمى الزاب ، وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بسكرة وأعمالها . ومن مدينة توزر إلى مدينة بسكرة أربع مراحل ، وبالقرب من مدينة بسكرة مدينة صغيرة تسمى نقاوس ، بينها وبينها مرحلتان ، فهذه المدن التى تلى الصحراء من بلاد إفريقية ، ويتخللها قرى كثيرة لم نذكرها لصغرها .

شأن القيروان فى قديم الزمان

وفيما بين مدينة تونس وتوزر ، مدينة القيروان المشهورة ، منها إلى الساحل ثلاث مراحل ، وهى كانت ـ أعنى القيروان ـ دار ملك المسلمين بإفريقية منذ الفتح ، لم يزل الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس يُولون عليها الأمراء من قبلهم ، إلى أن اضطرب أمر بنى العباس واستبد الأغالبة بملك إفريقية بعض الاستبداد ، وهم بنو أغلب ابن محمد بن إبراهيم بن

أغلب التميميون ، فاتخذوا القيروان دار ملكهم ، فلم يزالـوا بها إلى أن أخرجهـم عنها بنو عبيد وملكـوها أيام كونهم بأفـريقية ، ثم ولوا عليها حين ارتحلـوا إلى مصر زيرى بن مناد الصنهاجى ، فلم يـزل زيرى وبنوه ملـوكاً عليها ، إلى أن كان آخـرهم الذى أخرجـه العرب عنها ، تميم بن المعـز بن باديس بن منصور بن بلجين بن زيـرى بن مناد المذكور ، فـانتهبتها الأعراب وخربتها ، فهى كذلك خراب إلى اليوم ، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية .

وكـانت القيروان هذه فى قـديم الزمـان منـذ الفتح إلى أن خربتهـا الأعراب ـ دار العلم بالمغـرب ، إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليهـا كانت رحلة أهلـه فى طلب العلـم ، وقد ألّف الناس فى أخبـار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كـان به من الزهاد والصـالحين والفضلاء المتبتلين ، كتباً مشهـورة ، ككتاب أبى محمـد ابن عفيف ، وكتاب ابن زيـادة الله الطبنى ، وغيرهما من الكتب ، فلما استولى عليها الخراب ـ كما ذكرنا ـ تفرق أهلها فى كل وجه ، فمنهم من قصد بـلاد مصر ، ومنهم من قصد صقلية والأنـدلس ، وقصدت منهم طائفـة عظيمة أقصى المغرب ، فنزلوا مدينة فاس ، فعقبهم بها إلى اليوم .

فهذه نبـذة من أخبار إفريقيـة ، وفيها مدن كثيرة قـد خربت لا أعرف أسماءهـا ، لقلة معرفتى بتفـاصيل أحوال إفريقيـة ، لأنى لم أدخل منها إلا مدينـة تونس خاصـة ، أتيتها فى البحر من الأندلس ، وذلك سنة ٦١٤ ، وإنما نقلت مـا نقلته من أخبارها حسب المستفيض من السماع .

وفى خـراب القيروان على ما تقـدم يقـول أبو عبـد اللـه محمد ابن أبى سعيـد ابن شرف الجذامى :

تـــرى سيئـــات القيروان تعـــاظمت فجلت عن الـغفـــران واللـــه غـــافُـر !

تــراهــا أُصيبت بـــالكبــائر وحــدهــا ألم تك قــدمــاً فى البـلاد الكبـــائر ؟

بلاد المغرب

. . . فقسطنطينة آخر بلاد إفريقية ، ما يلى البحر منها وما يلى الصحراء ، وما بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير إفريقية ، فأول ذلك بليدة صغيرة قبلى بجاية فى البر ، تسمى ميلة ، بينها وبين بجاية ثلاث مراحل ، ومن بجاية إلى قلعة بنى حماد أربع مراحل ، وهى أيضاً ـ أعنى القلعة ـ قبلى بجاية .

طريق السُّفَّار من بجاية إلى مراكش

وها أنا أذكر طريق السفار من بجاية إلى مراكش ، فمن بجاية إلى مدينة تلمسان عشرون مرحلة ، وفيما بين ذلك بليدات صغار كمليانة ، ومازونة ، ووهران ـ وقد ذكرناها فى بلاد الساحل ـ وبين مدينة تلمسان وبين البحر أربعون ميلاً ، وذلك يوم للمُجِد ، ومن مدينة تلمسان إلى مدين فاس عشر مراحل ، سبع منها إلى المدينة التى تدعى رباط تازا ، وثلاث إلى فاس ، وقبلى مدينة تلمسان فى الصحراء ، مدينة سجلماسة ، منهـا إلى تلمسان عشر مراحل ، وهذه المدينة ـ أعنى سجلماسة ـ متوسطة فى الصحراء ، مسافة ما بينها وبين تلمسان وفاس ومراكش ، على حد سواء ، فمن حيث قصدت إليها من أحد هذه البلاد ، كان ذلك مسافة عشر مراحل .

التعريف بمدينة فاس

ومدينة فاس هذه هى حاضرة المغرب فى وقتنا هذا ، وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس ، كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان ـ كما ذكرنا ـ عاث العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بنى أمية بعد موت أبى عامر محمد ابن أبى عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فراراً من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس ،

فهى اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها فى غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات فى ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب ، وبحق ما قالوا ذلك ، فإنه ليس بالمغرب شىء من أنواع الظرف واللباقة فى كل معنى إلا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، ولم يتخذ لمتونة والمصامدة مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة ، لأنها خير من مدينة فاس فى شىء من الأشياء ، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراكش كرسى المملكة ، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها ، وما أظن فى الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معايش ، وأخصب جهات ، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، ويتخلّل الأنهار أكثر دورها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابها ويحيط بهاسورها ، وفى داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شىء يجلب إليها من غيرها - إلا ما كان من العطر الهندى - سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج إلى مدينة فى شىء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هى توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً .

***

ومن مدينة فاس إلى مدينة مكناسة الزيتون ، يوم تام للمُجِدّ ، ومن مكناسة الزيتون إلى مدينة سلا ، أربع مراحل .

ومدينة سلا هذه على ساحل البحر الأعظم المسمى أقيانس ، وهى فى الجنوب ، كما ذكرنا ، ينصب إليها نهر يسمى وادى الرمان ، يصب فى البحر الأعظم المذكور .

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلى مراكش مدينة عظيمة ، سموها رباط الفتح ، كان الذى اختطها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وأتمها ابنه يعقوب ، وبنى فيها مسجداً عظيماً قد تقدم ذكره ، وقيل : إنهم إنما بنوها بأمر ابن تومرت إياهم بذلك ، وذلك أنه قال لهم : « تبنون مدينة عظيمة على ساحل هذا البحر - يعنى البحر الأعظم - ثم

يضطرب أمركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة ، ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان ! » فلهذا سموها رباط الفتح ، وبين هذه المدينة وبين سلا العتيقة ، النهر المذكور ، وقد بنوا عليه قنطرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يجزر النهر ، فإذا مد عبروا فى القوارب .

وبين مدينة سلا هذه ومدينة مراكش كرسى المملكة ، تسع مراحل فمراكش آخر المدن بالمغرب ، وكان الذى اختطها ملك لمتونة تاشفين بن على ، ثم زاد فيها بعده ابنه يوسف بن تاشفين ، ثم زاد فيها بعدهما علىٌّ بن يوسف بن تاشفين ، ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت فى نهاية الكبر ، فهى اليوم طولاً وعرضاً قدر أربع فراسخ ـ هذا إذا ضُمت إليها قصور بنى عبد المؤمن ـ وأجرى المصامدة فيها مياهًا كثيرة لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من الملوك ، فصارت بذلك فى نهاية الحسن وغاية الكمال ، كما قال الأول :

ليس فيها ما يقال له كمُلَتْ لو أنه كمُلا

ترجمة المؤلف بقلمه

وبهذه المدينة ـ أعنى مراكش ـ مسقط رأسى ، وهى أول أرض مس جلدى ترابها ، وكان مولدى بها لسبع خلوان من ربيع الآخر سنة ٥٨١ ، فى أول أيام أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على .

ثم فصلت عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس ، فلم أزل بها إلى أن قرأت القرآن وجودته ورويته عن جماعة كانوا هنالك مبرزين فى علم القرآن والنحو .

ثم عدت إلى مراكش ، فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين .

ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس فى أول سنة ٦٠٣ ، فأدركت بها جماعة من الفضلاء من أهل كل شأن ، فلم أحصل بحمد الله من ذلك كله إلا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم ، انفردوا دونى بكل فضيلة ، ولا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، يختص برحمته من يشاء وهو ذو الفضل العظيم !

بلاد السوس الأقصى

فمراكش هذه آخر بلاد المدن الكبار بالمغرب المشهورة به ، وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة ، إلا بليدات صغار بسوس الأقصى ، فمنها مدينة صغيرة تسمى تارودانت ، وهى حاضرة سوس ، وإليها يجتمع أهله ، ومدينة أيضاً صغيرة تدعى زُجندر ، هى على معدن الفضة ، يسكنها الذين يستخرجون ما فى ذلك المعدن ، وفى بلاد جزولة مدينة هى حاضرتهم أيضًا تسمى الكُسْت ، وفى بلاد لمطة مدينة أخرى هى حاضرتهم أيضا تسمى نول لمطة ، فهذه المدن التى وراء مراكش ، فأما تارودنت وزجندر فدخلتهما وعرفتهما ، ولم أزل أعرف السفار من التجار وغيرهم ، وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بزجندر ، وأما مدينة جزولة ومدينة لمطة فلا يسافر إليهما إلا أهلهما خاصة .

ذكر مابالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص والزئْبق وغير ذلك ، وأسماء مواضعها

قد تقدم ذكر معدن الكبريت الذى بين برقة وطرابلس وأنه بالقرب من حصن يدعى طلميثة .

وفيما بين سبتة ووهران موضع قريب من ساحل البحر يسمى تمسامان ، فيه معدن حديد .

وفيما بين سلا ومراكش قريبًا على ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً ،

موضع يدعى إبسنتار ، فيه معدن حـديد أيضًا ، وليس هذا الموضع على طريق السفار ، إنما يقصده من أراد حمل الحديد منه .

وبالقـرب من مكناسـة الزيتـون على ثلاث مـراحل منها حصن يـدعى وركنـاس ، فيه معدن فضـة ، وقد ذكرنـا معدن زجندر الـذى بسوس ، غير أن فضتـه ليست هناك ، أعنى فضة معدن زجندر .

وبسوس أيضا معـدنان للنحاس ، ومعدن توتيا ، وهى التـوتيا التى يصُبغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر .

فهذه جملة مابالغدوة من المعادن .

المعادن بجزيرة الأندلس

وبجزيـرة الأندلس معـادن أيضاً ، فمنها معـدن فضة ببلاد الـزوم فى الجهة المغـربية ، بموضع يدعى شنترة .

وعلى أربع مراحل من مدينـة قرطبة موضع يسمى شلون ، فيـه معدن زئبق ، منه يفترق الزئبق على جميع المغرب .

وفى أعمال ألمرية وعلى يوم ونصف منها بموضع يعرف بدلاية ، فيه معدن رصاص .

وفى أعـمال ألمرية أيضاً على يـوم ونصـف منها مـوضع يسمى بكارش ، فيـه معدن حديد أيضاً .

وما بين دانيـة وشاطبة مـوضع يسمى أوربة ، على نصف يـوم من دانية ، فيه معـدن حديد .

فهـذا أيضًا جملـة ما بالأنـدلس من المعـادن ، فأما الـذهب فمسوق إليها مـن بلاد السودان .

ذكر أسماء الأنهار العظام التى بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد إفريقية على نصف مرحلة من مدينة تونس ، يسمى بجردة ، ينصب من جبل هنالك ينتهى إلى البحر الرومى .

ونهر بجاية الذى يسمى الوادى الكبير ، وهو متنزهها وعليه بساتينها وقصورها .

ونهر آخر فيما بين تلمسان ورباط تازا يدعى وادى ملوية ، يصب فى البحر الرومى أيضًا .

ونهر يدعى سَبُو ، هو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها ، ويجاور نهر سبو هذا نهر آخر كبير يسمى ورغة .

وهذان النهران ينصبان إلى البحر الأعظم ، بحر أقيانس ، بعد أن يلتقيا بموضع يدعى المعمورة .

وفيما بين مكناسة وسلا نهر يدعى بهتا ، ينصب إلى البحر الأعظم أيضا . ونهر سلا المتقدم الذكر .

وفيما بين سلا ومراكش ، وعلى ثلاث مراحل من مراكش ، نهر عظيم يدعى أم ربيع ، ينصب من جبال صنهاجة من موضع يدعى وانْسِيفن ، يصب فى البحر الأعظم أيضًا .

ونهر على أربعة أميال من مراكش ، عليه قنطرة عظيمة ، يسمى تانسيفت ونهر سوس الأقصى .

ونهر ببلاد حاحة ، يسمى شفشاوة .

هذه الأنهار كلها تصب إلى البحر الأعظم ، فهذه جملة الأنهار الكبار التى بالمغرب التى لا يقل ماؤها ولا ينقطع شتاءً ولا صيفًا ، ولم نتعرض لذكر الأودية الصغار والأنهار التى تيبس فى الصيف .

ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهى المعروفة فى قديم الزمـان عند الروم بجزيرة أشبانية ، وقد تقدم ذكر حدودها فى صدر هذا الكتاب فأغنى ذلك عن إعادته ههنا ، وكان دين أهلها فى الدهر القديـم دين الصابئـة من عبادة الكـواكب واستنزال قـواها والتقـرب إليها بأنـواع القرابين ، شهدت بـذلك طلسمات وجدت بها وضعتهـا القدمـاء من أهلها ، ثم انتقل أهلهـا إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدى أصحاب المسيح عليه السلام .

وكانـت هذه الجزيرة ــ أعنى الأندلـس ـ منتظمة فى مملكـة صاحب روميـة ، يستعمل عليها من شاء من أصحـابه ، فلم تزل كذلك والـروم يملكونها ـ وقاعدة ملكهم منهـا مدينة تسمى طالقة ، على فرسخين من إشبيليـة ، وهى مدينة عظيمة باقٍ أثرهـا إلى هذا اليوم ـ إلى أن غلبهم عليها القوطـا ، وهى قبيلة من قبائل الإفرنج ، فأخرجـوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى .

وانفرد القوطا هـؤلاء بمملكة الجزيرة ، فملكوها أضخم مُلك قريبـاً من ثلاثمائة سنة ، وكانت دار ملك القوطـا ، مدينة طليطلة ، وهى فى قريب من وسط الجزيـرة ، فلم يزالوا بها وطليطلة دار ملكهم ـ كما ذكـرنا ـ إلى أن افتتحها المسلمون فى شهـر رمضان من سنة ٩٢ من الهجرة ، على ماتقدم فى صدر الكتاب .

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قرطبة دار ملكهم ومقر تدبيرهـم وموضع حلهم وعقدهم ، فلم تزل قرطبة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بنى أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلب أبى عامر محمد ابن أبى عامر وابنه ، على هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر حسبما تقدم فى صدر هذا الكتاب .

فهذه تلخيص أخبار جزيرة الأندلس .

وأنا ذاكر ــ إن شاء الله ـ أول ما يلقاه من يعبر إليهـا من حـدودها ومدنها ، فأول ذلك أنى أقول :

قد تقدم أن البحرين : بحر الروم ، وبحـر أقيانس ، يلتقيان بساحل سبتة ، ثم يضيق الخليج ويتقارب العدوتان حتى ينتهى ذلك إلى قصر مصمودة من العدوة وجزيرة طريف من الأنـدلس ، ثم يأخذ فى السعـة ، وأول هذا الخليج مما يلى طنجة ، الجبل الخارج فى البحـر الأعظم المعـروف بطرف أشبرتـال ، وآخره الجبل الـذى شرقى سبتـة ، فإذا عبرت إلى جزيـرة الأندلس من سبتـة ، كان الذى تنـزل به المدينـة المعروفة بـالجزيرة الخضراء ، وإذا عبرت من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طريف ، فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هى ـ فى التحقيق على ساحل البحـر الرومى ، وجزيـرة طريف على سـاحل البحر الأعظم ، وبين الموضعين ـ أعنى الخضراء وطريف ـ ثمانية عشر ميلاً .

وفى شرقى الجزيرة الخضراء الجبـل المعروف بجبل الفتح ، ويسمى أيضـاً جبل طارق ، وله طرف خارج فى البحر يسمى طرف الفتح ، وعنـده يلتقى البحران بجزيرة الأندلس فهذا تلخيص التعريف بخبر مجاز الأندلس .

البلاد التى تغلب عليها النصارى إلى سنة ٦٢١

فأما ذكر مدنها فقد كانت فيها مدن كثيرة تغلب النصارى على أكثرها ، فأنا ذاكر أسماء المدن التى بأيدى النصـارى فى وقتنا هذا ، ومـوضعها من الجزيـرة من مشرقٍ ومغرب ، من غير تعرض إلى مابينها من المسافاتِ ، إذ كان كون النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك :

فأول المدن فى الحد الجنوبى المشرقـى على ساحل البحر الـرومى ، مدينـة برشنـونة ، ثم مدينة طـرعونة ، ثم مدينة طرطـوشة ، هذه البلاد التى على ساحل البحـر الرومى المذكور ، أعادها الله للمسلمين !

والمدن التى على غير الساحل فى هذا الحد المذكور ، مـدينة سرقسطة ، ولاردة ، وأفراغة وقلعة أيوب ، هذه كلها يملكها صاحب برشنونة ـ لعنه الله ـ وهى الجهة التى تسمى أرغن .

وفى الحد المتوسط مابين الجنوب والمغرب من المدن : مـدينة طليطلة ، وكونكة ، وأقليج

وطلبيرة ، ومكادة ، ومشريط ، وويذ ، وأبلة ، وشقوبية ، هـذه كلها يملكها الأدفنش ـ لعنه الله ـ وتسمى تلك الجهات قشتال .

وتجاور هـذه المملكة فيما يمل إلى الشمال قليـلاً ، مـدن كثيرة أيضًا ، وهى : سمـورة ، وشلمنكة ، والسبطـاط ، وقلمريـة ، هذه كلهـا يملكها رجـل يعرف بـالببوج ـ لعنه الله ـ وتسمى هذه الجهة ليون .

وفى الحد المغربى الـذى هو ساحل البحـر الأعظم أقيانس ، مـدن أيضا منها : مـدينة الأشبونة ، وشنترين ، وبـاجة ، وشنترة ، وشنت ياقو ، ومدينة يـابرة ، ومدن كثيرة ذهبت عنى أسماؤها ، يملكها رجل يعرف بابن الريق ـ لعنه الله .

فهذا مـا بأيدى النصارى من مدن جـزيرة الأندلس مما يلى بـلاد المسلمين ، ووراء هذه المدن مما يلى بـلاد الروم ، مدن كثيرة لم تشتهر عنـدنا لبعدهـا عنا وتوغلها فى بـلاد الروم ، لم يملكها المسلمون قط ، لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها ، وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها .

المدن التى بقيت بأيدى المسلمين إلى سنة ٦٢١

وأنا ذاكـر ـ بعد هذا ـ ما بقى بأيدى المسلمين من البلاد ، وعـدد المراحل التى بينها ، وقربها من البحر وبعدها ، حتى يبين ذلك ـ إن شاء الله تعالى :

فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة بالأندلس اليوم ، حصن صغير على شاطىء البحر الرومى يسمى بنشكلـة ، بينه وبين مدينة بلنسيـة ثلاث مراحل ، وهذا الحصن ممـا يلى بلاد الروم ، بينه وبين طرطوشة مرحلتان أو أكثر قليلا .

ثم مدينـة بلنسية ، وهى مـدينة فى غايـة الخصب واعتدال الهواء ، كـان أهل الأندلس يدعـونها فيما سلف من الزمان : مُطيب الأنـدلس ، والمطيب عندهـم ، حزمـة يعملونها من

أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات ، سموا بلنسية بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها ، وبين بلنسية هذه وبين البحر الرومى قريب من أربعة أميال .

ثم بعدها مدينة تدعى شاطبة ، بينها وبينها مرحلتان .

وبينهما مدينة صغيرة تدعى جزيرة الشقر ، وسميت جزيرة ؛ لأنها فى وسط نهر عظيم قد حف بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة .

ومن شاطبة هذه إلى مدينة دانية التى على ساحل البحر الرومى ، يوم تام .

ومن شاطبة إلى مدينة مرسية ثلاثة أيام .

ومن مدينة مرسية إلى البحر الرومى عشرة فراسخ .

ومن مدينة مرسية إلى مدينة أغرناطة سبع مراحل .

وبين ذلك بلاد صغار ، أولها مما يلى مرسية : حصن لرقة ، ثم حصن آخر يدعى بَلَّس ، ثم حصن آخر يدعى بلس ، قُلْيَة ، ثم بليدة صغيرة تسمى بسطة ، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تسمى وادى آش ، يقال لها أيضاً وادى الأشى ، هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها فى أشعارهم ، فهذه البُليدات التى بين أغرناطة ومرسية .

وفى مقابلة وادى آش على ساحل البحر الرومى ، مدينة ألمرية (محففة الراء) وهى مدينة مشهورة ، تضرب أمواج البحر فى سورها ، بينها وبين وادى آش هذه مرحلتان للمجد .

وبعد المدينة المعروفة بألمرية على ساحل البحر الرومى ، حصن مُنكب ، وهى بليدة صغيرة يضرب البحر أيضا فى سورها ، بينها وبين ألمرية أربع مراحل .

وبين حصن منكب هذا وبين مدينة مالقة ثلاث مراحل .

وبين مالقة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجد .

وبالجزيرة الخضراء ، أو بجبل الفتح ، يلتقى البحران ، كما ذكرنا ، فالذى على ساحل البحر الرومى من بلاد المسلمين بالأندلس : الجزيرة الخضراء ، ومالقة ، ومنكب ، وألمرية ، ودانية ، وبين ألمرية ودانية نحو من ثمان مراحل ، ووراء دانية الحصن الذى يسمى بِنَشْكُلة ، وقد تقدم ذكره .

فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس ، أعنى مايضرب الموج فى سوره ، فأما مدينة بلنسية فبينها وبين البحر ـ كما ذكرنا ـ قريب من أربعة أميال .

***

ثم نعود إلى ذكر البلاد التى ليست على الساحل ، فنقول :

من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلاً ، وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرفق .

ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيان ، مرحلتان ، فبين جيان وبين البحر الرومى ثلاث مراحل .

ومن مدينة جيان إلى مدينة قرطبة مرحلتان .

ذكر قرطبة

وقد تقدم ذكر قرطبة هذه وأنها كانت دار ملك المسلمين ومقر تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بنى أمية بالأندلس ، وبلغت قرطبة هذه من القوة وكثرة العمار وازدحام الناس مبلغًا لم تبلغه بلدة .

حكى ابن فياض فى تاريخه فى أخبار قرطبة قال : كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى ، هذا ما فى ناحية من نواحيها ، فكيف بجميع الجهات ؟ .

وقيل : إنه كان فيها ثلاثة آلاف مُقَلَّس ، وكان لا يتقلس عندهم فى ذلك الزمان إلا من صلح للفُتيا .

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها ، أن الماشى كان يستضيىء بسروج قرطبة ثلاث فراسخ لاينقطع عنه الضوء .

وبها الجامع الأعظم الذى بناه أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد المتلقب بالناصر لدين الله ، وزاد فيه بعده ابنه الحكم المستنصر بالله ، فزيادة الحكم معروفة إلى اليوم .

وحكى أبو مروان ابن حيان ـ رحمه الله ـ فى أخبار قرطبة ، أن الحكم لما زاد زيادته المشهورة فى الجامع ، اجتنب الناس الصلاة فيها أيامًا ، فبلغ ذلك الحكم ، فسأل عن علته ، فقيل له : أنهم يقولون : ماندرى هذه الدراهم التى أنفقها فى هذا البنيان من أين أكتسبها ! فاستحضر الشهود والقاضى أبا الحكم المنذر بن سعيد البلوطى المتقدم الذكر فى قضاته ، واستقبل القبلة وحلف باليمين الشرعية التى جرت العادة بها ، أنه ماأنفق فيه درهمًا إلا من خمس المغنم ! وحينئذ صلى الناس فيه لما علموا بيمينه ، ومن الخمس أيضا كان أبوه بناه ، وزاد فيه أبو عامر محمد ابن أبى عامر زيادة أخرى من هذه النسبة ، فهو مسجد لم ينفق فيه درهم إلا من خُمس المغنم ، وهو معظم القدر عند أهل الأندلس ، مبارك ، لايصلى فيه أحد ويدعو بشىء من أمر الدنيا والآخرة إلا استُجيب له ، قد عُرف ذلك من أمره واشتهر .

وحكى غير واحد أن الأدفنش ـ لعنه ا ـ لما دخلها فى شهور سنة ٥٠٣ ، دخل النصارى فى هذا المسجد بخيلهم ، فأقاموا به يومين لم تَبُلْ دوابهم ولم تَرُثْ حتى خرجوا منه ، وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بقرطبة .

وقد جمع أهل الأندلس كتباً فى فضائل قرطبة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء .

ذكر إشبيلية

ومن مدينة قرطبة إلى مدينة إشبيلية ثلاث مراحل ، وإشبيلية هذه هى حاضرة الأندلس فى وقتنا هذا ، وهى التى تسمى عندهم فى قديم الـزمان حمص ، سُميت بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس .

وقد زاد أمر هذه المدينـة على صفة كل واصف ، وأتى فوق نعت كل ناعت ، وهى على شاطىء نهر عظيم ينصب من جبل شقورة ، وتنصب فيـه أنهار كثيرة ، فلا يصل إلى إشبيلية إلا وهو بحر خضم ، تصعد فيه السفن الكبار من البحر الأعظم ، ترسو على باب المدينة ، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلاً ، وذلك مرحلتان .

وهذه المدينة كـانت قاعدة ملك بنى عباد حسبما تقدم ، ثم صيرها المصـامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس ، منها ينفذ أمـرهم ، وفيها يستقر ملكهم ، وبنوا بها قصوراً عظيمة ، وأجروا فيها المياه ، وغرسوا البساتين ، فزاد ذلك فى حسن هذه المدينة ، أعنى إشبيلية .

***

ومن إشبيلية إلى مـدينة شلب التى على سـاحل البحر الأعظم ، خمس مـراحل ، وبين ذلك بليـدات صغيرة ، كمدينـة لبلة ، وحصن مـرتلة ، ومـدينة طبيرة ، ومـدينة العليـا ، والمدينة المعروفة بشنتمرية ، هذه البلاد كلها فيما بين شلب وإشبيلية من مغرب الأندلس .

وبين قرطبة وبين البحر الرومى خمس مراحل ، وقرطبة أيضًا على ساحل هذا النهر الذى ينصب إلى إشبيليـة ، يعظم جـدا حتى تصعـد فيه السفن كما تقـدم ، وينحـدر من أراد فى القوارب من قرطبة إلى إشبيلية ، ويصعدون من إشبيلية إلى قرطبة ، كهيئة النيل .

وبين مدينة إشبيلية ومدينة شريش مرحلتان .

وبين شريش وبين البحر ثلاث مراحل .

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيـرة الأندلس ومسافات الأبعاد التى بين كل بلد وبلد على التقريب ، منها ما سافرت فيه بنفسى ، ومنها ما نقلته مستفيضًا عن السُّفار المترددين .

فصـــل

[أنهار الأندلس الكبار المشهورة]

وقد رأيت أن أذكرها ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها :

فأول ذلك ممـا يلى المشرق : نهر طرطـوشة ، وهـو نهر عظيم من جبال هنـاك إلى مدينـة طرطوشة ، ثم يصب فى البحر الرومى ، وبين طرطوشة وبين البحر الرومى اثنا عشر ميلاً .

ثم نهر مرسية ، وهو يصب أيضًا فى البحر الرومى ، منبعه من جبل شقورة ، وهو قسيم نهر إشبيلية ، منبعهما واحد ثم يفترقان ، فينصب هذا إلى أشبيلية وهذا إلى مرسية .

ثم نهر إشبيلية الأعظم ـ وقد تقدم ذكـر منبعه ـ ثم تنصب فيه قبل وصولـه إلى إشبيلية أنهار كثيرة ، فيعظم حتى يصير بحـراً كما ذكـرنـا ، ثـم يصــب فى البحـر الأعظم المسمى أقيانس .

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يسمى تاجو ، وهو الذى عليه مدينة طليطلة وشنترين ، وبين هاتين المدينتين قريب من عشر مراحل ، وعلى هذا النهر أيضًا مدينة الأشبونة ، وبينها وبين شنترين ثلاث مراحل ، ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم .

فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها .

***

وقد نجز ـ بحمد الله جـ ميع هذا الإمـلاء حسبما رسمه مولانا ، وجـريتُ فى ذلك كله على عادتـى فى التلخيص ، وتركت أسماء القـرى والضياع والأنهار الصغار ، وغير ذلـك مما لاتدعو إليـه الحاجة ولا يُخل بالتصنيف تركه ، فإن وافق غرض مـولانا ولاق بنفسه وأتى وفق مراده ، فهى البغية الكبرى والأمنية العظمى التى لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسابق إليها ، وإن يك غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فحُرم الإصابة ولم يقع على المراد ولا وفِّقَ المقصود !

وبالله أعتصم ، وإياه أسترشد ، وعليه أعتمد ، وهو حسبى ونعم الوكيل .

وكـان الفراغ من هـذا الإملاء يـوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من سنـة ٦٢١ والحمد للـه رب العالمين ، وصـلى الله على سيـدنا محمد وآله وصحبـه أجمعين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

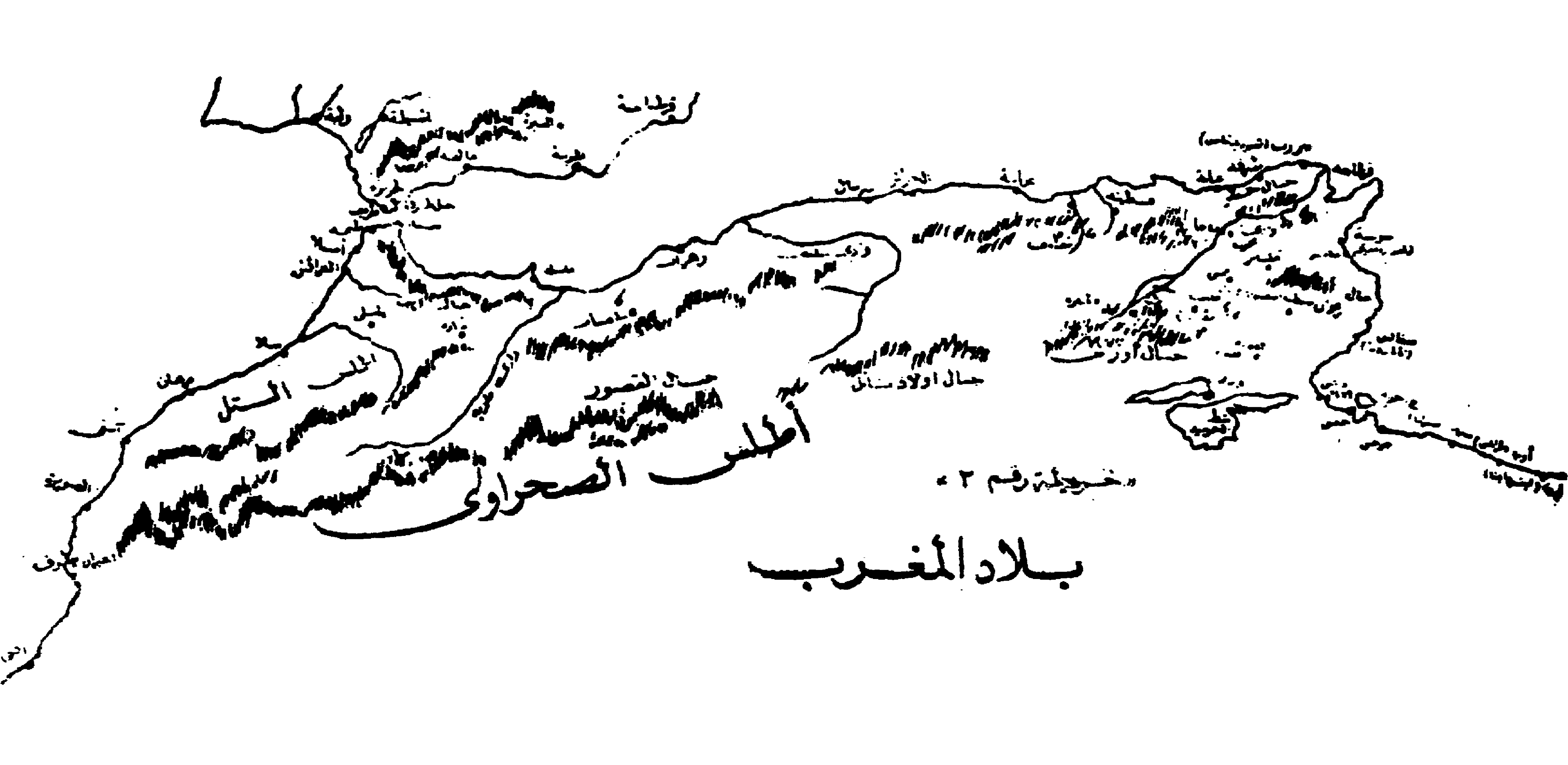
تم بحمد الله



خريطة رقم ١
دولة الوندال في المغرب

خريطة رقم ٢

« حملة بليزاريوس على المغرب سنة ٥٣٣ »



بلاد المغرب
«خريطة رقم ٢»
أطلس الصحراوى
أطلس التل
جبال القصور
جبال اولاد نايل
جبال أوراس
قرطاجنة
عنابة
وهران

خريطة رقم ٤

حملة عبدالله بن سعد

« خريطة رقم ٥ »

الغزوة الصحراوية الأولى

غزوة غدامس وبلاد قسطيلية

حملة عقبة بن نافع على افريقية ٤٩ هـ – ٥٠ هـ

القيروان

سبيطلة

غدامس

ودان

فزان

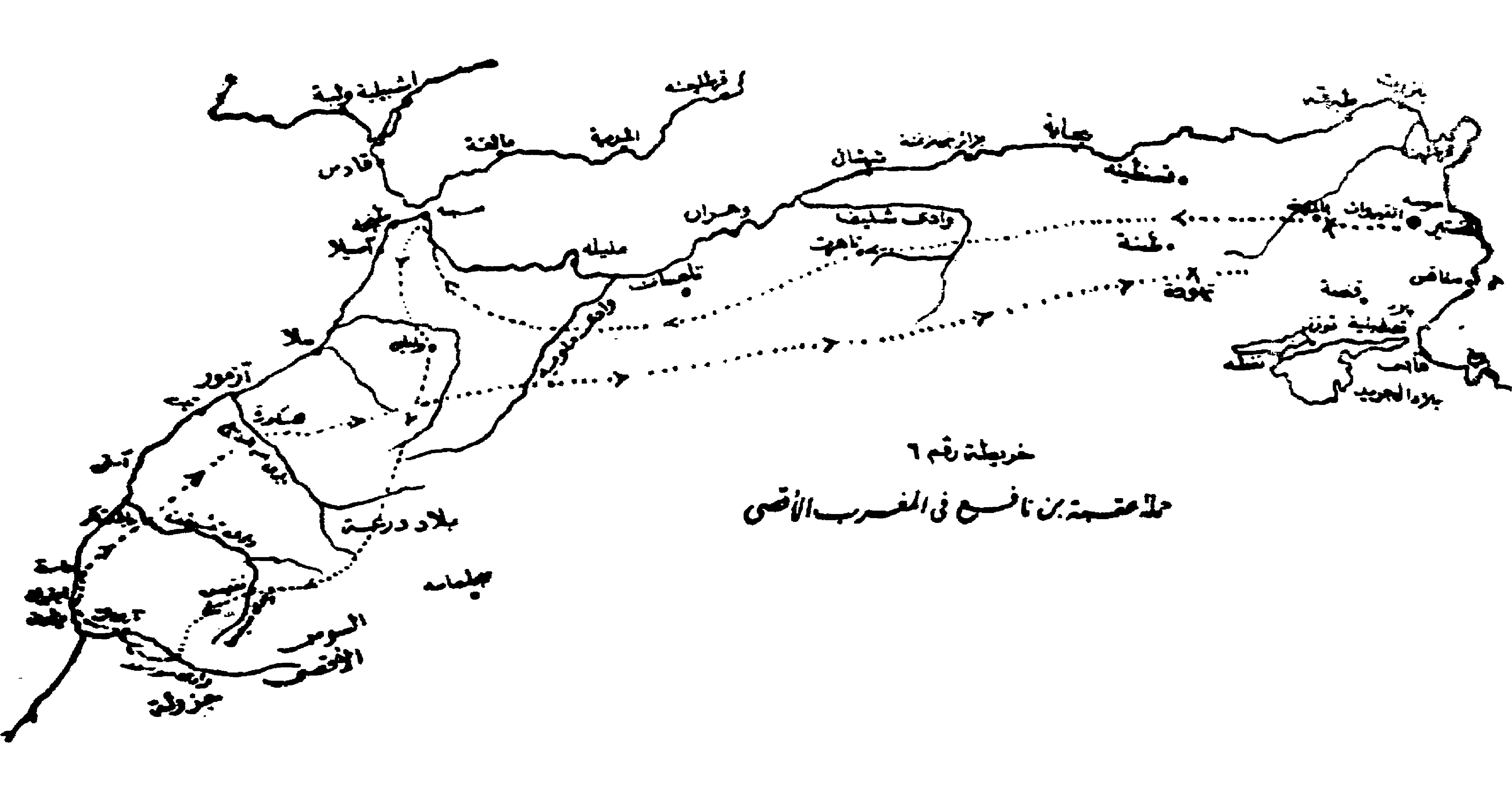
طرابلس

سرت

برقة

حملة برقة

مراقية

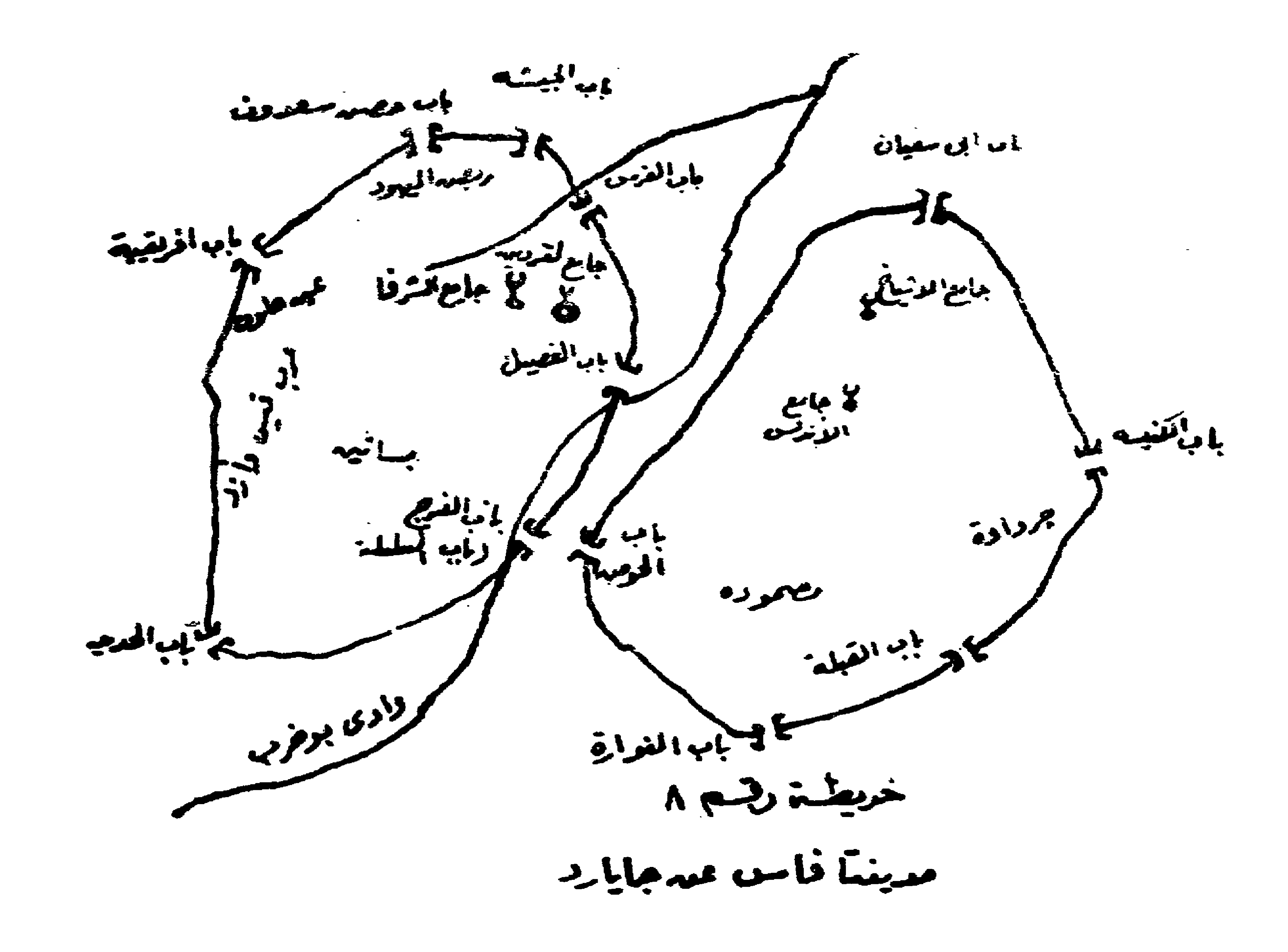


خريطة رقم ٦

حملة عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى

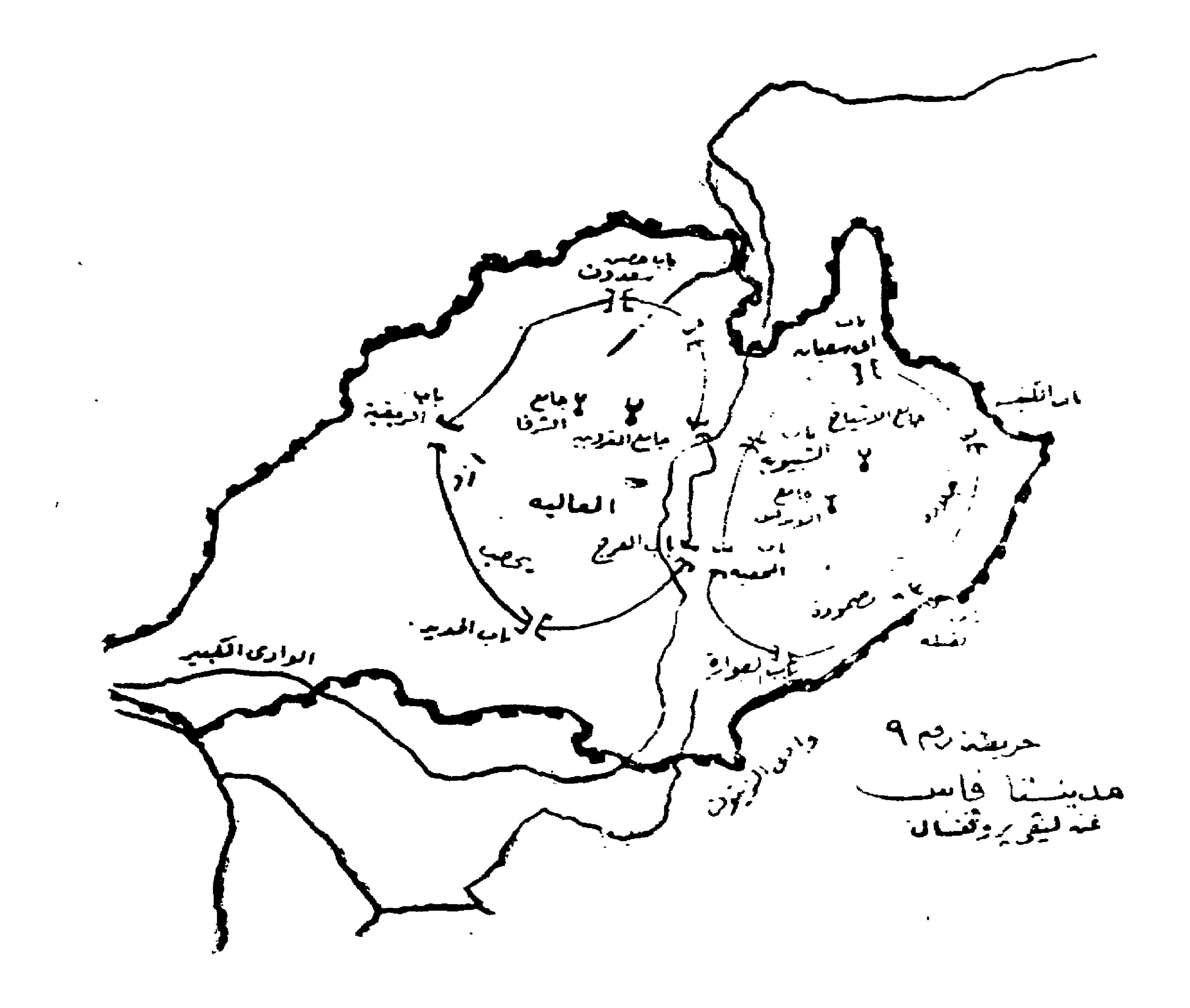
سبتة
طنجة
مليلة
نكور
تلمسان
أصيلا
لواتة
صنهاجة
مطماطة
الريف
كتامة
وجدة
سلا
تازة
أوربة
مكناسة
برغواطة
آزمور
مكناسة
مغراوة
تامسنا
هسكورة
وادي أم الربيع
رجراجة
تادلا
بنو يفرن
بني ملال
السوس الأدنى
ماسة
درعة
نفيس
جدميوة
أغمات وريكة
سجلماسة
وادي سوس
جزولة
السوس الأقصى
خريطة رقم ٧

مواضع وقبائل البربر في المغرب الأقصى

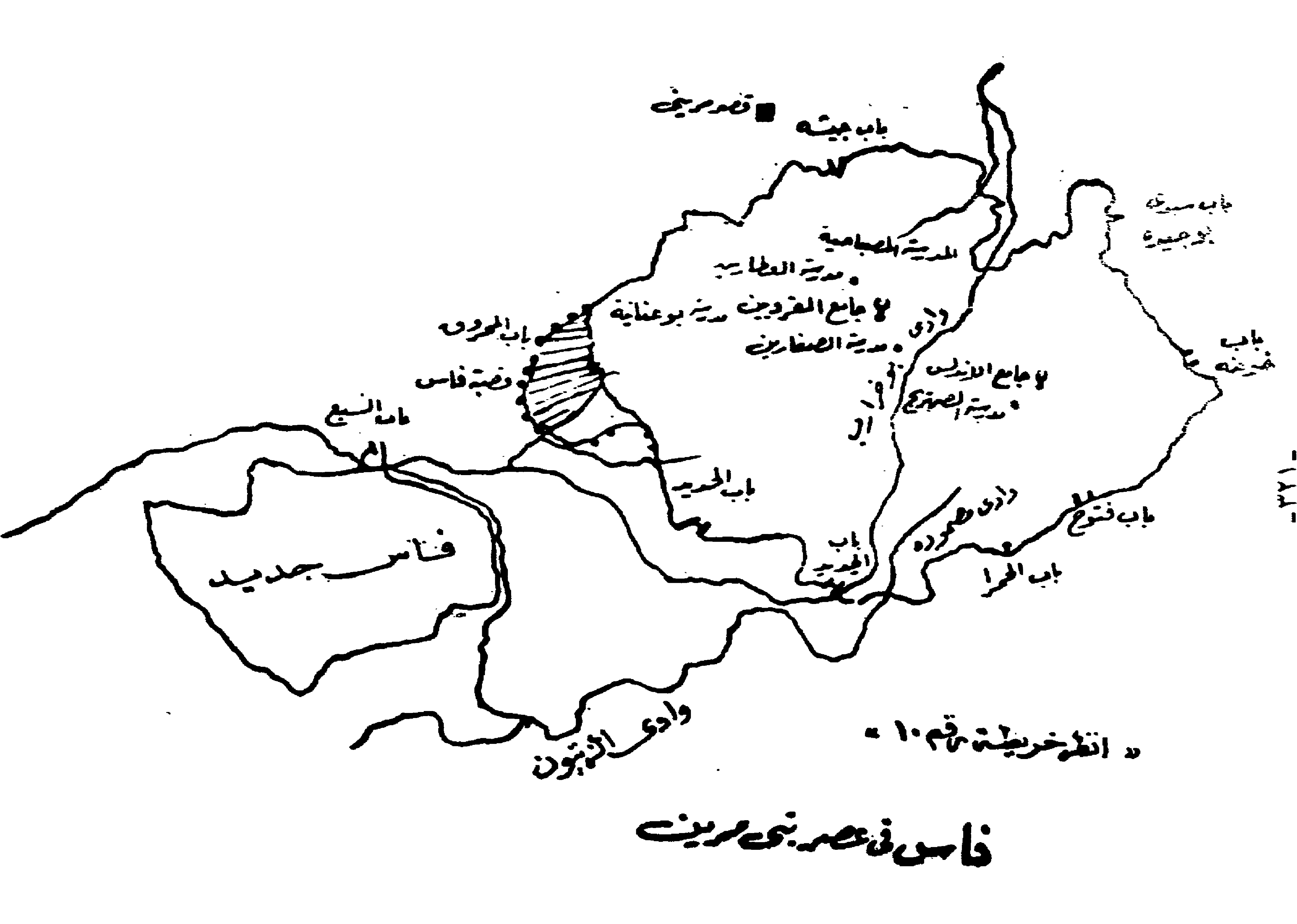


خريطة رقم ٨

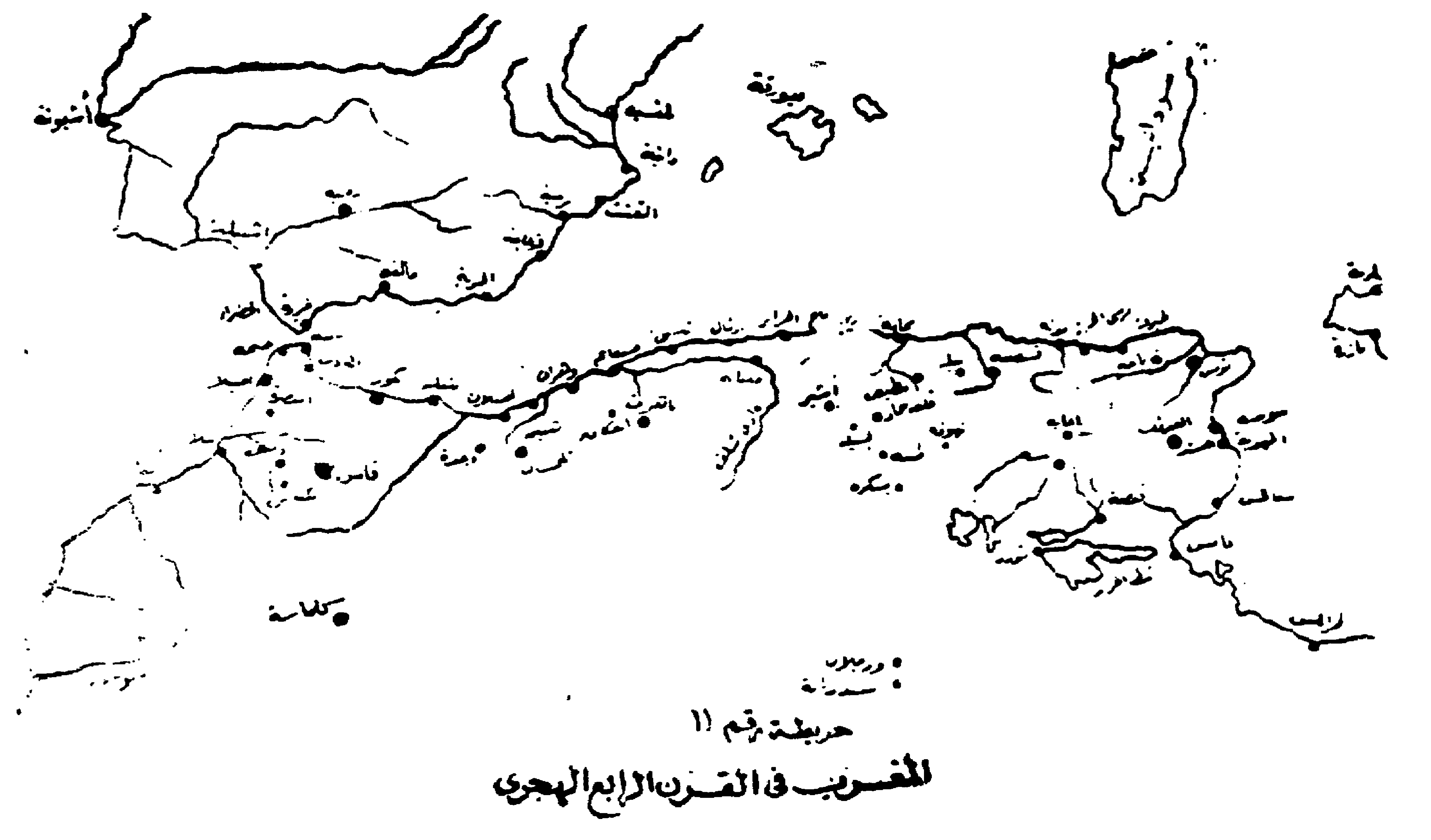
مدينتا فاس عند جايارد



خريطة رقم ٩
مدينة فاس
عن ليفي بروفنسال

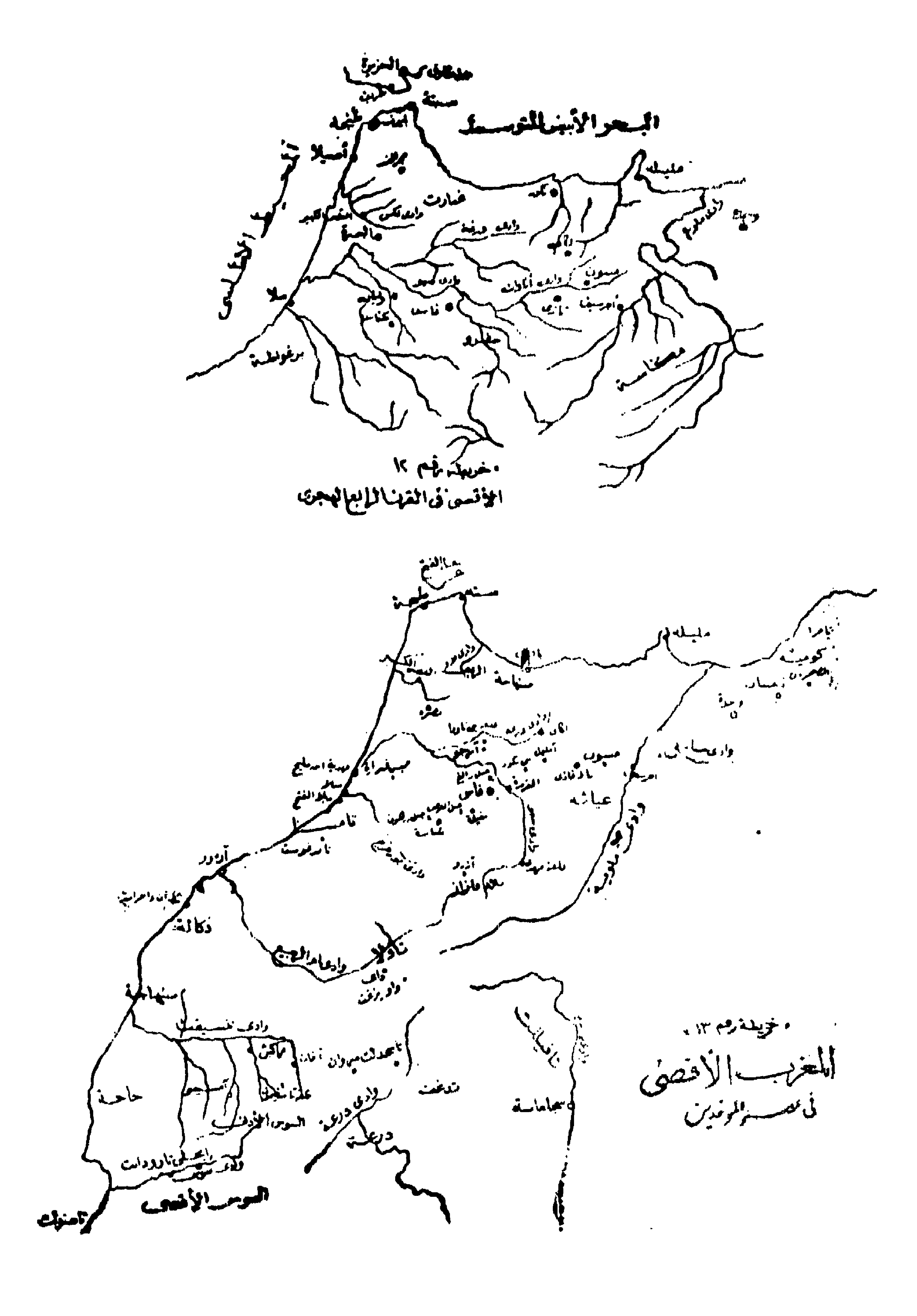


فاس في عصر بني مرين



خريطة رقم ١١

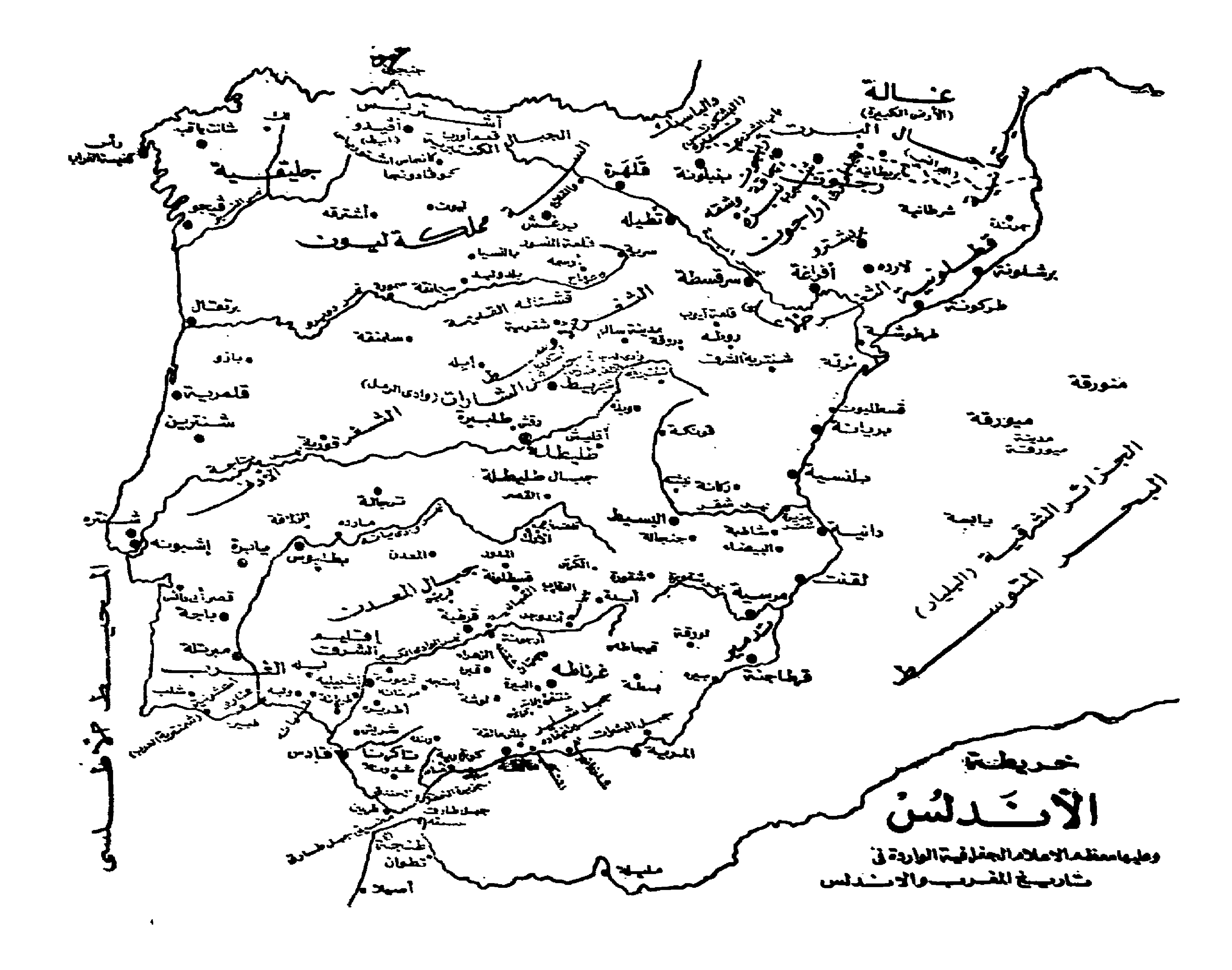
المغرب في القرن الرابع الهجري



خريطة رقم ١٢
الأقصى في القرن الرابع الهجري

خريطة رقم ١٣
المغرب الأقصى
في عصر الموحدين


المسلمون في
صقلية وجنوب ايطاليا
دوقية بنفنتو
استنجلو
مدينة الملك
جرجنت
قطانية
سرقوسة
طبرمين
ريو
اطرابنش


خريطة
الأندلس
وعليها معظم الأعلام الجغرافية الواردة في
تاريخ المغرب والأندلس
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
الجزائر الشرقية (البليار)
غالة
(الأرض الكبيرة)
مملكة ليون
جليقية
قطلونية
أراجون
نافار
البرت
منورقة
ميورقة
يابسة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
سرقسطة
تطيلة
قلهرة
بنبلونة
برغش
أشترقة
برتقال
قلمرية
شنترين
شنترة
أشبونة
يابرة
بطليوس
باجة
مبرتلة
شلب
إشبيلية
قادس
شريش
قرطبة
غرناطة
بسطة
مالقة
المرية
مرسية
لقنت
قرطاجنة
لورقة
دانية
بلنسية
شاطبة
قونكة
طليطلة
طلبيرة
وادي الحجارة
مدينة سالم
قلعة أيوب
سلمنقة
سمورة
بلد الوليد
بطليوس
ماردة
جبال طليطلة
قلعة رباح
جيان
أبدة
بياسة
إستجة
قرمونة
طريف
جبل طارق
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة
تطوان
أصيلا
مليلة

قائمة بالمصادر
والمراجع العربية والأجنبية

(أ) المصادر

١ - **ابن الآبار** : (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) :

(أ) الحلة السيراء . جزءان ، تحقيق حسين مؤنس سنة ١٩٦٣ م القاهرة .

(ب) التكملة لكتاب الصلة . جزءان نشر كوديرا طبعة مدريد سنة ١٨٨١ ،وطبعة القاهرة ١٩٥٩ م ضمن المكتبة الأندلسية .

(جـ) المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى القاهرة ١٩٦٧ م دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .

٢ - **ابن الأثير** : (ت ٦٣٠ هـ / ١١٥٤ م) :

- كتاب الكامل فى التاريخ ، طبعة القاهرة فى سنة ١٣٠٣ هـ .

٣- **الإدريسى** : (٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) .

- وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس .

- « مستخرج من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » .

- طبعة ليدن سنة ١٨٦٦ م بعناية دوزى ودى غوى .

٤- **ابن أبى أصيبعة** : (ت ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م) .

- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء - ط بيروت ١٩٦٥ م .

٥ـ **الأندلسي** : أبو عبد الله محمد بن محمد :

ـ الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ، الطبعة الأولى تونس ١٢٨٧ م .

٦ـ **الباجي** : الشيخ أبو عبد الله محمد المسعودى :

ـ الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية ، تونس ١٣٢٣ هـ .

٧ـ **ابن بشكوال** : (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) .

ـ كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم تحقيق عزت عطار الحسينى ، طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

٨ ـ **البيذق** : أبو بكر الصنهاجي (كان حيًّا فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) :

ـ كتاب أخبار المهدى بن تومرت ، وابتداء دولة الموحدين ، نشر وتحقيق ليفي بروفنسال سنة ١٩٢٨ م . نشره عبد الوهاب بن منصور بعد ذلك بالرباط سنة ١٩٧١ م .

٩ـ **ابن جبير** : (ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) :

ـ رحلة ابن جبير ، بيروت سنة ١٩٤٩ م .

١٠ـ **الجزنائى** :

ـ كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس . نشر الفريد بيل الجزائر سنة ١٩٢٣ م

١١ـ **الحميري** : (ت أواخر القرن ٩هـ / ١٥م) :

ـ كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار . نشر ليفي بروفنسال طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

١٢ـ **ابن الخطيب** : (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) :

(أ) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثانى ، تحقيق ونشر ليفى بروفنسال ، بيروت ١٩٥٦ م .

(ب) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، القسم الثالث ، تحقيق ونشر أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني بعنوان « تاريخ المغرب فى العصر الوسيط » الدار البيضاء ١٩٦٤ م .

(ج) الإحاطة فى أخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان القاهرة ١٩٥٦ م ، وطبعة ١٩٦٤ م .

١٣ ـ ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) :

ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، ٧ أجزاء طبعة جديدة عن طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ .

١٤ ـ ابن خلكان : (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . طبعة القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ وطبعة ١٩٥٠ م .

١٥ ـ ابن أبى دينار : (ت ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م) :

ـ المؤنس فى أخبار إفريقيا وتونس ، طبعة ١٢٨٦ هـ .

١٦ ـ ابن الزبير :

ـ كتاب صلة الصلة ، نشر ليفي بروفنسال الرباط سنة ١٩٣٨ م .

١٧ ـ ابن أبى زرع : (ت نحو منتصف القرن ٨ هـ / ١٤ م) :

ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشر كارل يوحن نورتبرغ ، أوبسالة ١٨٤٣ م .

١٨ ـ الزركشى :

ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تونس سنة ١٢٨٩ هـ .

١٩ ـ **ابن زيدان** : عبد الرحمن بن محمد :

إتحـــاف أعـلام الناس بجمـــال أخبـار حاضرة مكناس ، ٥ أجزاء طبعـة الرباط سنة ١٩٤٩ م .

٢٠ ـ **زيني دحلان** : أحمد بن السيد زينى دحلان .

ـ الفتوحات الإسلامية ، جزءان ، المطبعة الحسينية بمصر .

٢١ ـ **ابن سعيد** : (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٧ م) .

(أ) المغـرب فى حلى المغـرب ، تحقيق ونشر شـوقى ضيف ، طبعـة القاهـرة سنـة ١٩٥٣ م ، وطبعة ١٩٦٤ م .

(ب) الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة . تحقيق إبراهيم الإبيارى ، نشر دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٥ م .

٢٢ ـ **ابن صاحب الصلاة** : (كان حيا سنة ٥٩٤ هـ / ١١٩٨ م) :

ـــ كتاب المن بـالإمامـة على المستضعفين بأن جعلهم اللـه أئمة وجعلهم الـوارثين ، تحقيق عبد الهادى التازى . بيروت سنة ١٩٦٤ م .

٢٣ ـ **ابن صاعد** : (ت ٤٦٢ هـ) .

ـ كتاب طبقات الأمم ، مطبعة السعادة بمصر .

٢٤ ـ **الصفاقسى** : محمود بن سعيد بن مقديش .

ـ نزهة دائرة الأنظار فى علم التواريخ والأخبار ، الجزء الأول تونس سنة ١٣٢١ هـ

٢٥ ـ **الضبى** : (ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م) :

ـ بغية الملتمس فى تاريخ أهل الأندلس وعلمائها وأمـرائها وشعرائها وذوى النباهة فيها ومن دخل إليها أو نزح عنها ، ضمن المكتبة الأندلسية .

٢٦ ـ **ابن عذارى** : (كان حيا سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م) .

(أ) البيان المغْرِب فى أخبار الأندلس والمغرب . الجزء الرابع تحقيق إحسان عباس ، بيروت سنة ١٩٦٧ م .

(ب) البيان المغْـرِب فى أخبار الأنـدلس والمغرب . القسم الثـالث ، تحقيق أمبروثو هويثى ميرنـدا ومحمد بن تاويت وإبـراهيم محمد الكـتانى طبعة تطـــوان سنة ١٩٦٠ م .

٢٧ ـ **ابن غازى** : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن على (ت ٩١٩ هـ):

ـ الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون ، طبع الحجر مغربى .

٢٨ ـ **الغبرينى** : الشـــيخ أبـو العباس أحمد بن أحمد بن عبـد الله (ت ٧١٤ هـــ / ١٣١٥ م) .

ـ عنوان الدراية فيمن عرف مـن العلماء فى المائة الســـابعة ببجـــاية ، نشر محمـد ابن أبى شنب الجزائر ١٣٢٨ هـ .

٢٩ ـ **ابن القاضى** : أحمد بن محمد بن محمد :

ـ جـذوة الاقتباس فيمن حل من الأعـلام بمدينـة فـــاس ، طبـــع الحجـــر فاس ســـنة ١٣٠٩ هـ .

٣٠ ـ **ابن القطـــان** : (كان حيا فى منتصـــف القـــرن الســابع الهجـــرى / الثالث عشر الميلادى) .

ـ نظم الجمان من أخبار الزمان ، نشر محمود على مكي ، تطوان ١٩٦٤ م .

٣١ ـ **القفطى** : (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م):

ـ أخبار العلماء بأخبار الحكماء طبعة ١٣٦١ هـ بمصر .

٣٢ـ **القلقشندى** : (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) :

ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ، طبعة دار الكتب الخديوية ، المطبعة الأميرية ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م .

٣٣ ـ **المراكشي** : (كان حيا فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى) :

ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، نشر محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة سنة ١٩٤٩ م .

٣٤ـ **المقرى** : (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م) .

(أ) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، عشرة أجزاء تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٣٠٢ هـ . عشرون جزءا ، مطبوعات دار المأمون ١٩٣٦ م .

(ب) أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض . ثلاثة أجزاء نشر مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبى ، القاهرة ١٩٤٢ م .

٣٥ـ **ابن المؤقت** : محمد بن محمد بن عبد الله :

ـ السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ، جزءان طبع الحجر مراكش سنة ١٣٣٥ هـ .

٣٦ـ **مؤلف مجهول** :

ـ الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبع الرباط ١٩٣٦ م .

٣٧ـ **مؤلف مجهول** :

ـ الذخيرة السنية فى تاريخ الدول المرينية ، طبع الجزائر سنة ١٩٢٠ م .

٣٨ ـ **مؤلف مجهول** : (كان حيا فى النصف الأول من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) :

ـ كتاب الطبيخ ، نشر وتحقيق أمروثو هويثى ميراندا . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، المجلدان التاسع والعاشر سنة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ م .

٣٩ ـ **الناصرى** : أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٢ م) :

ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الجزء الثانى والثالث تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى . الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ م .

٤٠ ـ **النباهي** : أبو الحسن المالقى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى) (الرابع عشر الميلادى) :

ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . نشر ليفى بروفنسال القاهرة ١٩٤٨ م .

٤١ ـ **الونشريشى** : أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمسانى: (ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م).

ـ أسنى المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر ، نشر وتحقيق حسين مؤنس ، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

***

(ب) المراجع العربية

١ ـ أحمد بن عامر :

ـ الدولة الصنهاجية . للدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٢ م .

٢ ـ أحمد لطفى عبد البديع :

ـ الإسلام فى إسبانيا . المكتبة التاريخية الطبعة الأولى سنة ١٩٥٨ م بالقاهرة .

٣ ـ أحمد مختار العبادى :

ـ دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس . الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ م .

٤ ـ أرشيبالد لويس :

ـ القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة / أحمد محمد عيسى .

٥ ـ أرنست رينان :

ابن رشد والرشدية . باريس ١٨٨١ م . ترجمة / عادل زعيتر .

٦ ـ أنخل جنثالث بالنثيا .

ـ تاريخ الفكر الأندلسى . ترجمة / حسين مؤنس . القاهرة ١٩٥٥ م .

٧ ـ ج . ترند واخرون :

ـ تراث الإسلام جزءان . ترجمة / زكى حسين وآخرين . لجنة الجامعيين لنشر العلم بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م .

٨ ـ حسن أحمد محمود :

ـ قيام دولة المرابطين . صفحة مشرقة من تاريخ المغرب فى العصور الوسطى . مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧ م .

٩ ـ الحسن السائح :

ـ الحضارة المغربية عبر التاريخ . الدار البيضاء . الطبعة الأولى سنة ١٩٧٥ م .

١٠ ـ حسن على حسن عبد الجواد :

ـ الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة . رسالة دكتوراه من كلية دار العلوم بإشراف د / أحمد شلبى سنة ١٩٧٣ م .

١١ ـ حنا الفاخورى وخليل الجر :

ـ تاريخ الفلسفة العربية . جزءان . دار المعارف بيروت .

١٢ ـ خواد بخشى :

ـ الحضارة الإسلامية . ترجمة / على حسنى الخربوطلى . القاهرة ١٩٦٠ م .

١٣ ـ ديلاسى أوليرى :

ـ الفكر العربى ومكانه فى التاريخ . ترجمة / تمام حسان ومراجعة مصطفى حلمى . وزارة الثقافة والإرشاد القومى . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

١٤ ـ سلفادور غومث نوغالس :

ـ الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم فى فكر الغرب أثناء العصور الوسطى . ترجمة / عثمان الكعاك . الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٧م .

١٥ ـ شارل أندريه جوليان :

(أ) تاريخ إفريقيا الشمالية . ثلاثة أجزاء ترجمة / محمد فرالى والبشير بن سلامة عن الطبعة الثانية ١٩٥٨ م التى نقّحها وزاد عليها روجيه لوتورنو . الدار التونسية للنشر سنة ١٩٧٨ م ١٣٩٨ هـ .

(ب) تاريخ إفريقيا . ترجمة / طلعت أباظة ومراجعة عبد المنعم ماجد . دار النهضة بمصر سنة ١٩٦٨ م .

١٦ ـ شاخت وبوزورث :

ـ تراث الإسلام . ثلاثة أقسام . ترجمة ونشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، ضمن سلسلة عالم المعرفة سنة ٩٨ ـ ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٨ م .

١٧ ـ الشخات السيد زغلول :

ـ السريان والحضارة الإسلامية . الهيئة المصرية العامة للكتاب . فرع الإسكندرية سنة ١٩٧٥ م .

١٨ ـ طارو وجان جيروم :

ـ أزهار البساتين فى أخبار المغرب والأندلس على عهد المرابطين والموحدين . ترجمة وتعليق أحمد بلا فريج ومحمد الفاسى طبعة الرباط سنة ١٣٤٩ هـ .

١٩ ـ عبد الله العراوى :

ـ تاريخ المغرب . محاولة فى التركيب . ترجمة / ذوقان قرقوط سنة ١٩٧٧ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر .

٢٠ ـ عبد الله على علام :

ـ الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على . دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ م .

٢١ ـ عبد الله كنون :

ـ النبوغ المغربى فى الأدب العربى . الطبعة الثالثة . دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٥٧ م بيروت (٣ أجزاء) .

٢٢ـ عبد الرحمن على الحجى :

الحضارة الإسلامية فى الأندلس . بيروت ١٩٦٩ م / ١٣٨٩ هـ .

٢٤ـ عثمان أمين :

ـ إحصاء العلوم للفارابى . الطبعة الثانية . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٩ م .

٢٥ـ ليبولد توريس بالباس :

ـ الفن المرابطى والموحدى . ترجمة / سيدي غازى . منشأة المعارف بالإسكندرية سنة ١٩٧٦ م .

٢٦ـ ليفى بروفنسال :

(أ) الإسلام فى المغرب والأندلس . ترجمة / سيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى . مراجعة أحمد لطفى عبد البديع . نشر مكتبة النهضة بمصر .

(ب) نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى . باريس ١٩٤٨ م .

٢٧ـ مانويل جوميث مورينو :

ـ الفن الإسلامى فى إسبانيا . ترجمة / أحمد لطفى عبد البديع وسيد محمود عبد العزيز سالم . مراجعة جمال محمد محرز . الدار العربية للترجمة والنشر .

٢٨ـ محمد بيصار :

ـ فى فلسفة ابن رشد . الوجود والخلود . دار الكتاب العربى بمصر ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ م .

٢٩ـ محمد عبد الله عنان :

(أ) دولة الإسلام فى الأندلس . القسم الأول والثانى من العصر الثالث . القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٤م .

(ب) الآثار الأنـدلسية الباقية فى إسـبانيا والبرتغـال . القاهرة ، الطبعة الثـانية ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م مؤسسة الخانجى .

٣٠ـ محمد المرزوقى :

ـ قابس تونس ١٩٦٢ . الناشر مكتبة الخانجي بمصر ، والمثنى ببغداد .

٣١ـ محمد ولد أدادة :

ـ مفهوم الملك فى المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع الهجرى . دار الكتاب اللبنانى سنة ١٩٧٧ م .

٣٢ـ محمود على مكى :

ـ مدريد العربية . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .

٣٣ـ محمود قاسم :

ـ دراسـات فى الفلسفـة الإسلاميـة ، الطبعـة الثالثـة ، دار المعارف بمصر سنـة ١٩٧٠ م .

٣٤ـ مراجع عقيلة الغناي :

(أ) قيام دولة الموحدين . الطبعة الأولى ١٩٧١ ، المكتبة الوطنية ببنغازى . ليبيا .

(ب) سقوط دولـة الموحـدين ، منشـورات جامعـة بنغـازى ليبـيا ، الطبعة الأولى ١٩٧٥ م .

٣٥ـ نجاة باشا :

ـ التجـارة فى المغرب الإسلامى من القرن الـرابع إلى القرن الثامن للهجـرة ، منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٦ م .

٣٦ـ يوسف أشباخ :

ـ تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين تـرجمة / محمد عبد الله عنان . مجلدان القاهرة ١٩٤١ ، مجلد واحد القاهرة ١٩٥٨ م .

(ج) المراجع الأجنبية

1 - **Altamira. R** : A history of Spain from the beginnings to the present day. Translated by Muna Lee. Copyright 1949. by D. Van Nostrand Company Canand. Ltd.

2 - **Artz. F. B** : The mind of the middle ages, Newyork 1953 .

3 - **Darbour. N** : A Survey of north west Africa (The Maghrib) Oxford University press, London 1959 .

Barbour. N : Morocco, Thames and Hudson Lt. London 1965 .

4 - **Barker. E and Clark. G** : The European inheritance. 3 Volumes Oxford 1954 .

5 - **Bell. F.** : Les Ḃenou Ghanga. Paris 1903 .

6 - **Bernard. L. and Hodges. T. B** : Readings in european history Newyork 1958 .

7 - **Cambridge Medieval History** : 8 Volumes, Cambridge 1936 .

8 - **Cantor. F. N** : The medieval world, 300 - 1300, Columbia University, Third printing 1964 .

Cantor. F. N : Medieval history, the life and death of a civilization, Columbia University, first Printing 1963. The Macmillan company, Newyork .

9 - **Chapman. C.E** : A history of Spain, Newyork 1931 .

10 - **Encyclopeadia Judaica,** Massadah publishing company Ltd. Jerusalem, Tel - Aviv, 1958 - 1959 .

11 - **Haskins. H. Ch** : Studies in medieval culture, Newyork 1929 .

1 2 - **Hayes. F. C. and Baldwin. W. M** : A history of Europe. The Macmillan company, Newyork, fifth printing 1959 .

13 - **Hirschberg. J. W** : A history of the Jews in north Africa. V. I second revised-edition. Translated from the hebrew. Leiden 1974 .

1 4 - **Hulme. M. E** : The middle ages. Newyork, Henry Haltanel comany 1936 .

15 - **Ibars. A. P** : Valencie arabe, Valencia 1901 .

16 - **Lafuente. M** : Historia general de Espana. T. III Y IV. Barcelona 1977 .

17 - **Lea. Ch. H** : A history of the inquistion in spain. V. I, II . London . Macmillan company 1906 .

18 - **Meakin. B** : The moorish empire, London, Newyork 1899.

19 - **O'callaghan. F. J** : A history of medieval Spain, copyright 1975, Cornell University, Ithaca, Newyork.

20 - **Painter. S** : A history of the middle ages. 284 - 1500, Newyork 1954 .

21 - **Prestage. E** : Chivalry, members of king's college, London 1928 .

22 - **Remiro G. M** : Historia de murcia musulmana, Zaragoze 1903 .

23 - **Russel. B** : History of western philosoph. London, second impression 1947

24 - **Scott. S. P** : A history of the moorish empire in Europe V. II, III philadelphia, London 1904 .

25 - **Sephenson. G** : Medieval history (Europe from the second to the sixteenth century) Harper and brotheres publishers, Newyork and London .

26 - **Thompson. W. J** : The middl ages, 300 - 1500, V. II, III printed in the United States of America, by the plimpon press .

(د) الدوريات

١ ـ إحسان عباس :

ـ نوازل ابن رشد . مجلة الأبحاث عن الجامعة الأمريكية ببيروت . المجلد ٢٢ ، الأجزاء ٣ ، ٤ سنة ١٩٦٩ م .

٢ ـ أحمد الأهوانى :

ـ الفلسفة فى الأندلس . مجلة كلية الآداب ، مجلد ١٥ ، الجزء الأول مايو سنة ١٩٥٣ م .

٣ ـ أحمد لطفى عبد البديع :

ـ التروبادور غرسية فرنانديث ، مجلة مدريد للدراسات الإسلامية المجلد الثاني سنة ١٩٥٤ م .

٤ ـ أحمد المكناسى :

ـ دراسة تمهيدية عن الخزف الإسلامى القديم فى المغرب مجلة تطوان ، العدد الثانى سنة ١٩٥٧ م .

٥ ـ أرنولد شتيجر :

ـ التأثيرات والمصادر العربية فى مؤلفات ألفونسو الحكيم العاشر . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

٦ ـ أمبروثو هويثى ميراندا :

(أ) موقعة الأرك . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثانى سنة ١٩٥٤ م .

(ب) المطبخ الأندلسى المغربى خلال العصر الموحدى . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

٧ ـ جون بكويث :

ــ أثر الفن الإسـلامى فى الفن الغربـى الحديث . مجلة الأبحـاث تصدر عن الجامعـة الأمريكية ببيروت العدد ١٠١٣ آذار سنة ١٩٦٠ م .

٨ ـ حسين مؤنس :

(أ) الثغر الأعلى الأندلسى . مجلة كلية الآداب بجـامعة القاهرة المجلد الحادى عشر ، ج ٢ ديسمبر ١٩٤٩ م .

(ب) عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبـد الله المعروف بالخليفة الناصر الموحدى . . مجلة كلية الآداب . . بجـامعة القـاهرة ، المجلـد الثالث عشر الجزء الثـانى ديسمبر سنة ١٩٥٠ م .

(ج) نصوص سيـاسية عن فترة الانتقـال من المرابطين إلى الموحـدين . مجلة مـدريد للدراسات الإسلامية ، المجلد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

٩ ـ خنثو بوسك بيلا :

ـ الوثائق العربية المحفوظة فى كاتدرائيـة وشقة . . مجلة مدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

١٠ ـ خوسيه كامون أثنار :

ــ الأساليب الفنيـة المستمـرة فى الفن الإسلامى . . . مجلـة المعهـد المصرى بمدريـد للدراسات الإسلامية ، العدد الثالث ١٩٥٥ .

١١ ـ خنثو مياس بياكروزوا :

(أ) المؤلفات الأولى عن الاسطرلاب فى إسبانيا العـربية . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الثالث سنة ١٩٥٥ م .

(ب) كتاب الرد على اليهود لرامون لل . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية المجلد الخامس ١٩٥٧ م .

(ج) نشاط الدراسات الفلكية فى الأندلس . . نفس الدورية والعدد .

١٢ ـ خوليان ريبيرا :

ـ المكتبات وهواة الكتب فى إسبانيا الإسلامية . . . ترجمة جمال محرز مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلدان الرابع والخامس سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م .

١٣ ـ رامون مننديث بيدال :

(أ) إسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام . . ترجمة أحمد لطفى عبد البديع مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الأول ١٩٥٣ م .

(ب) إسبانيا وإدخال العلوم العربية إلى الغرب . . . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية . المجلد الثالث ١٩٥٥ م .

١٤ ـ سعد زغلول عبد الحميد :

ـ العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى . مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . المجلدان السادس والسابع سنة ١٩٥٢ ـ ١٩٥٣ م .

١٥ ـ الصديق بن العربى

ـ طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب . . مجلة تطوان المغربية العدد الأول سنة ١٩٥٦ م .

١٦ ـ عبد العزيز بن عبد الله :

(أ) العربية لغة العلم والحضارة . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الخامس سنة ١٩٥٧ م .

(ب) البحرية المغربية والقرصنة . مجلة تطوان المغربية العددان الثالث والرابع سنة ١٩٥٨ ـ ١٩٥٩ م .

(ج) تطور الفن فى عهد الموحدين . مجلة البينة ، السنة الأولى ، العدد التاسع شعبان ١٣٨٣ هـ/ يناير ١٩٦٣ م.

١٧ ـ ليبولد توريس بالباس :

ـ الأبنية الإسبانية الإسلامية . ترجمة علية إبراهيم العنانى . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية ، العدد الأول سنة ١٩٥٣ م .

١٨ ـ الأب مانويل ألونسو ألونسو :

ـ ابن سينا وآثاره الأولى فى العالم اللاتينى . ترجمة تاج الدين أبو زيد . . مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية . . العدد الأول سنة ١٩٥٣ م .

١٩ ـ محمد المنونى :

ـ تاريخ المصحف الشريف بالمغرب ، مجلة معهد المخطوطات العربية . المجلد الخامس عشر ، ربيع الأول سنة ١٣٨٩هـ/ مايو سنة ١٩٦٩ م .

٢٠ ـ نيفل باربر :

(أ) سفارة جون ملك انجلترا إلى محمد الخامس ملك المغرب . ترجمة محمد ابن تاويت . مجلة تطوان المغربية العدد الخامس سنة ١٩٦٠ م .

(ب) أخبار الأندلس فى المدونات الإنجليزية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، مجلة المعهد المصرى بمدريد للدراسات الإسلامية . المجلد الثالث عشر سنة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ م .

الكشاف العام

ا ـ الأعلام

ا ـ الأماكن الجغرافية

٣ـ الطوائف والبطون

٤ ـ الآيات الواردة فى النص

٥ ـ الأحاديث

٦ ـ الكتب الواردة

٧ ـ الأشعار

فهرس الكتاب

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات | الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

الموضوعات	الصفحة

رقم الإيداع ٢٦٠٩ لسنة ١٩٩٤
الترقيم الدولى
I.S.B.N
977 — 5496 — 05 — 5


مطابع
ت : ٩٣٢٧٠٦